بسم الله الرحمن الرحيم

فقه الحوار مع المخالف

في ضوء السنَّة النَّبوية

إعداد

د. رقية طه العلواني

الكتاب نال جائزة

نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية

للسنة النبوية

في الدورة الأولى 2005م

فهرس المحتويات

الموضوع

الصفحة

* فهرس المحتويات

* المقدمة..6

الباب الأول: الأسس التي يقوم عليها الحوار مع المخالف..............39

الفصل الأول: أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر............40

أولا: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف 40

ثانيا: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي.........43

ثالثا: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين.................................49

رابعا: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف....................................63

الفصل الثاني: أساس التعايش السلمي..72

أولا: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر.......................................72

ثانيا: تحقيق الاجتماع والالفة والاعتصام بحبل الله بين المسلمين...................95

الفصل الثالث: أساس اتباع الحق والعدل...104

أولا: الإنصاف مع المخالف مطلقا..104

ثانيا: حرمة عرض المسلم...108

ثالثا: مقتضيات العدل مع المخالف..113

الباب الثاني: أهداف الحوار..121

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين........................122
المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة.................127
المبحث الثالث: الترقي بالذات..130
المبحث الرابع: التلاقح الحضاري....................................133
المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم...................................136
المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات............................140

الباب الثالث: ضوابط الحوار وآدابه.........................141

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن................................142
المبحث الثاني: مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية.........145
المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد...........................147
المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة........................149
المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه..........152
المبحث السادس: ضوابط مساعدة...................................155

الباب الرابع: وسائل الحوار...159

الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي.........................160

الفصل الثاني: وسائل معاصرة..165
المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الاسلامية...................165
المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.......................166
المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع..................169
أولا: التنشئة الاجتماعية 170
ثانيا: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية......................175
ثالثا: المناهج الدراسية...180
رابعا: المؤسسات الإعلامية......................................185

خامسا: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد..............190
الباب الخامس: الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار........................193
أولا: تخفيف حدة التعصب...194
ثانيا: تخليص المجتمع من الشخصيات السيكوباثية..................195
ثالثا: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين.......................196
رابعا: الدعوة إلى الله 197
خامسا:التلاقح الحضاري...201
الباب السادس: الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار.................205
المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات........................206
المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب.............................207
المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري...........................212
المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف...................213
المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد...........215
المبحث السابع: الوقوع في الظلم والبغي وبروز ظاهرة التكفير.......216
المبحث الثامن: انتشار داء الفرقة والنزاع.........................220
المبحث التاسع: التراجع الحضاري...............................220
* الخاتمة والنتائج..221
*فهرس المراجع...224

المقدمة

الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أرسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور المبين. وبعد

فقد جعل الله سبحانه الوحي (قرآنا وسنّة) رسالة إلى الخلق على امتداد العصور واختلاف الأزمنة والدهور. وقد حوى في ثناياه منهجاً متكاملاً للحياة البشرية بكل ما تحمله من أعباء ومتغيرات هائلة. كما ضمّ في طيّ توجيهاته وتشريعاته أهم الوسائل وأوضح السبل للتعايش والتعامل بين البشر على مختلف أجناسهم وأعراقهم في سبيل تحقيق رسالة العمران والاستخلاف على هذه الأرض.

وتضمنت تلك التشريعات سواء ما جاء منها في القرآن الكريم أو ما ورد في السنة النبوية، قيما ومبادئ كفيلة بتحقيق رسالة العمران والاستخلاف، صالحة لتفعيلها في مختلف العصور والبيئات، كفيلة بتحقيق راحة الإنسان. وقد جاء اهتمام الوحي(قرآنا وسنة) بهذه القيم الحضارية واضحاً شاملاً لمختلف إحداثياتها وأبعادها وأساليبها وغاياتها العظيمة. ولم يكن ذلك الاهتمام تجريديا أو تنظيريا في منأى عن واقع الحياة، بل جاءت سلوكيات النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله المثبتة في سننه وسيرته، وعاءا تنفيذيا لتلك القيم الحضارية.

وعلى هذا أصبحت القيم الحضارية جزءا لا يتجزأ من التشريعات والتوجيهات النبوية وفي مختلف مجالات الحياة من العقيدة والعبادة إلى المعاملة والثقافة والسياسة والاقتصاد والعمران والأسرة والقضاء....

بيد أن عملية تفعيل الحوار في الحياة الإنسانية على امتداد عصورها وتعاقب تغيراتها لا تتحقق إلا بامتلاك الفقه لنصوص الوحي، والقدرة على التعامل مع قيّم الحوار في الكتاب والسنة من خلال التحديات الواقعة والإشكاليات الحادثة، وإيجاد الحلول الشرعية التي تتلائم مع هذا الواقع في ضوء إمكاناته وأطره.

فالاقتصار على التنظير وإطلاق الشعارات المؤكدة لدور الحوار في الإسلام وفاعليته في ماضي الأمة مع انسحاب سلوكي من واقع الحوار وأروقته إلى دهاليز الانكفاء والانغلاق على الذات، أمر مغاير لإدراك غايات نصوص الوحي وأبعاده.

من هنا تأتي هذه الدراسة في محاولة متواضعة لتحويل دفة الحوار وإدراتها من مواصلة السير في اتجاه التفكير التنظيري التجريدي إلى تفكير استراتيجي يستوعب إحداثيات الحوار وقيّمه في الوحي سلوكا وتنفيذا. كما تروم الدراسة تأصيل مقدمة ضرورية لتأسيس فقه حواري معاصر من خلال استلهام المنهجية القرآنية والنبوية في بنائه المعرفي وتأصيله الفكري من جهة، واستدعاء الدراسات النفسية والاجتماعية في معالجة موضوع الحوار من جهة أخرى.

فالعلم بالقرآن الكريم والسنّة النبوية أحكاما ومقاصد، لابد أن يصاحبه فقه بشروط تنزيلها على الواقع، في إطار منهجية اسلامية تنظم تلك المعرفة من خلال فهم دقيق لظروف الزمان والمكان وتغيراتهما المتسارعة. الأمر الذي يقتضي الفهم العميق والاهتمام الدقيق بالسياق النفسي والاجتماعي لتلك الأحكام والمقاصد القرآنية والنبوية وظرفية تنزيلها في الواقع.

فالحوار ظاهرة نتاج جملة من العوامل النفسية والاجتماعية والظروف السياسية والاقتصادية والثقافية. وأية معالجة جادة لهذه الظاهرة، لا تتطلب مجرد الرجوع إلى القرآن والسنة للاستشهاد بهما في موضوع الحوار أو التنظير له فحسب، بل تتطلب إلماما حقيقيا بجملة هذه العوامل والظروف التي يمكن أن تسهم في توليدها، ومدّها بأسباب الحياة ونقلها من واقع التنظير والتجريد إلى حيز التنفيذ والتطبيق.

إشكالية الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تأسيس نظرية الحوار الاسلامي مع المخالف مطلقا، من خلال القيام بعرض قيّم الحوار وإحداثياته الواردة في مختلف نصوص الوحي (قرآنا وسنة) مع التركيز على النصوص والوقائع الواردة في السنة النبوية بشكل خاص.

أهمية الدراسة

تتميز هذه الدراسة عن غيرها من دراسات اهتمت بموضوع الحوار بمحاولة المساهمة في تقديم إضافة نوعية في فنّ الحوار مع المخالف من خلال وضع استراتيجية، تتسم بالشمول والتكامل، تقوم على الجمع بين ما جاء في الكتاب والسنة من معالم وضوابط وقواعد مستنبطة للحوار، وبين الدراسات النفسية والاجتماعية المؤثرة في إدارة دفة الحوار وتأسيس ثقافته ونشرها في المجتمع.

والدراسة إذ تسهم بمحاولة تقديم هذه الإضافة، تنطلق من الإيمان بأهمية تفعيل الحوار في ظل الظروف الراهنة، تفعيلا يعيد للحوار دوره ويصبح به عاملاً موجّهاً صوب تشكيل شخصية الفرد والأمة المسلمة.

وللوقوف على أثر ذلك في الواقع المعاش أهمية واضحة تتجلى في نقطتين أساسيتين:

الأولى: إدراك أن عالمية الإسلام وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان تتجلى في تأسيس ثقافة الحوار وتبني استراتيجية واضحة الأهداف والمعالم والوسائل لتحقيق ذلك. من هنا يأتي اهتمام الدراسة بإثارة الوسائل الجديدة والأساليب الحديثة الناجعة في دفع دفة الحوار إلى الإمام مع إبراز لأهم المعوقات.

الثانية: إن غياب هذا الإدراك لدور استراتيجية الحوار في الواقع المعاش، يمكن أن يكرّس صوراً سلبية عن الإسلام ومنظومته المعرفية وحضارته الإنسانية. فيتحول الحوار آنذاك إلى

وسيلة تنفيرية تخلق الحواجز النفسية والفكرية بين أمم العالم وشعوبه من جهة وبين الإسلام والمسلمين من جهة أخرى.

منهج الدراسة

تقوم هذه الدراسة على توظيف منهج التحليل والاستنباط في محاولة لتلمس دور الحوار وأسسه ومعالمه وأهدافه وشروط تفعيله من خلال تتبع واستقراء جزئي في السنة النبوية التي تشكل الوعاء التطبيقي لتشريعات القرآن الكريم وتعاليمه.

كما تستدعي هذه الدراسة منهجية الجمع والمزاوجة بين المفاهيم الشرعية الواردة في نصوص الوحي، والاتجاهات النفسية والاجتماعية الواردة في الدراسات الحديثة كلما دعت الحاجة إلى ذلك، **في محاولة يمكن اعتبارها من أوائل مثيلاتها في الدراسات الحديثة الفقهية التي تناولت إشكالية الحوار بشكل خاص.**

ولا تروم الدراسة من خلال هذا المنهج تقمص بعض الإشارات النفسية والاجتماعية ثم تنزيلها دون إدراك لأبعادها، بل تتلمس من خلال تلك المنهجية، إيجاد نوع من التكامل الضروري بين الدراسات الشرعية والإنسانية، من خلال استحضار الوسائل والأدوات الحديثة المعينة في الترقي بالذات الإنسانية وتطوير وسائل التعرف عليها.

وقد راعت نصوص القرآن والسنة النبوية تلك الجوانب النفسية والاجتماعية المتعددة لصدورها عن وحيّ مفارق للزمان والمكان، محيط بالنفس الإنسانية من مختلف جوانبها.

من هنا فإن عملية إغفال الجوانب النفسية والاجتماعية أو تجاوزها في دراسة ظاهرة الحوار، يمكن أن يسوق إلى الفشل في التوصل إلى حلول أمثل لتفعيل هذه الظاهرة والإفادة منها في مناحي الحياة المختلفة. والدراسة محاولة تطبيقية لتأكيد أهمية إحداث مثل هذا التكامل في عصر يتأكد فيه أهمية الجمع بين فقه الواقع والنصوص.

نبذة عن مصادر الدراسة والدراسات السابقة

احتل الحوار مكانة بارزة في الفكر الاسلامي قديما وحديثا، كما احتل الحديث عن المخالف منزلة تضاهيها. وتجلى اهتمام العلماء بالحوار في القديم والحديث من خلال البحث في أهميته وضوابطه وآدابه،مع الاهتمام الواضح بما حفل به التاريخ الاسلامي من حوارات ومناظرات.

وقد تنوعت كتابات العلماء السابقين رحمهم الله لإنتاج سلسلة متواصلة دأبها ترسيخ الحوار بين المسلمين ومخالفيهم بشكل عام و أهل الكتاب بشكل خاص. من هنا فإن الباحث في هذا الموضوع، يجد نفسه أمام ثروة هائلة من الأدبيات المختلفة التي يمكن إدراج الكثير منها تحت الفكر الجدلي والحواري في الإسلام.

وقد أسهمت المواجهة التاريخية التي حدثت بين المسلمين وغيرهم في عصور الفتوحات وما اتسمت به من التسامح والبعد عن الجمود والتعصب في ازدهار وانتعاش الحركة الحوارية أو الجدلية ونشأة ما عُرف فيما بعد بعلم مقارنة الأديان ودراسة الملل والنحل.

وتكللت تلك الحركة الفكرية بظهور عدد من المؤلفات في مراحل تاريخية مبكرة تعود إلى نهاية القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجري. وأدت تلك القفزات المبكرة إلى قيام ردود فعل من قِبل بعض الكُتّاب غير المسلمين من أمثال يوحنا الدمشقي[1] وتيودور أبو قرة وكركيساني اليهودي تمثلت في ظهور عدد من كتاباتهم، في جوّ غلبت عليه الروح العلمية. الأمر الذي أسهم في نشأة حوار كتابي بين المسلمين وغيرهم من أرباب الأديان الأخرى وخاصة النصارى.

ثم توالت المؤلفات في هذا المجال وجاء الكثير منها يحمل عنوان **الردود على النصارى**[2] وهي –كما يوحي عنوانها- تعالج قضايا معينة لا تخرج عن استخراج البشارات

---

[1]- القديس يوحنا الدمشقي(675-750م) ولد في دمشق من آباء ومعلمي الكنيسة. حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان المالية في عهد معاوية. ألّف في اللاهوت والفلسفة والتاريخ ومهد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبا. انظر ترجمته: زوني أيلي الفا، موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج2، ص 601.

[2]- من أمثلة تلك المؤلفات: ما كتبه المردار(226هـ) تحت عنوان الرد على النصارى، أبو الهذيل العلاف (22هـ) الرد على النصارى أيضا، والرد على اليهود والرد على أهل الأديان، علي بن ربان الطبري (240هـ) الرد على النصارى....عمرو بن بحر الجاحظ (

بنبوة مُحَمَّد ﷺ من التوراة والانجيل ومسألة دعوى ألوهية عيسى عليه السلام في صيغة مناقشة لآراء النصارى وأقوالهم في تلك المسائل. كما تعرضت تلك المؤلفات لقضية التحريف الوارد في نصوص الكتابين التوراة والانجيل. وكان من أبرز أهداف تلك الأدبيات ومثيلاتها، الدفاع عن العقيدة الإسلامية والخوف عليها من التشويش والتشكيك، والحفاظ على الهوية الإسلامية. فكان الإصرار على هذين الأمرين عاملاً مهماً فى الحفاظ على خصوصية الحضارة الإسلامية وهويتها.

وكان من نتاج تلك الجهود، تحول عدد من الكتّاب النصارى[3] إلى الإسلام والكتابة لأقوامهم شارحين أسباب ذلك التحول، ومن تلك الكتابات: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب للترجمان[4]. وقد اشتملت تلك الأدبيات عموما إلى جانب المناظرة والجدل، التاريخ والوصف والتحليل العلمي والمقارنة الموضعية والنقد المنهجي كذلك[5].

كما ظهرت مؤلفات أخرى تحوي في طياتها حوارات رفيعة دارت بين المسلمين والمسيحيين، والمسلمين واليهود الذين عاشوا في كنف الاسلام في الأندلس بوجه خاص، ومن أشهرها رسائل القاضي الأندلسي أبو الوليد سليمان بن خلف المالكي الباجي[6]. وكانت تلك الرسائل حواراً وردّاً على راهب دير كلوني (القديس الفرنسي هيو) كبير الرهبان، الذي

255هـ) المختار في الرد على النصارى، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة، القاهرة، 1984م. راجع ابو الفرج محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978م، ج1، ص 246- 255.

[3]- كان نصرانيا ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى وبين عوار مذاهبهم ومدح فيها الاسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق وذكر فيها ما قرأه في التوارة والانجيل من ظهور النبي ﷺ وأنه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه ثم ذكر فيها معائب اليهود والنصارى. وهي رسالة حسنة أجاد فيها وهو من المشاهير في علم رآه وعمله وكان يطبب أهل محلته ومعارفه بغير اجرة ويحمل اليهم الاشربة والأدوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن اليهم ووقف كتبه قبل وفاته وجعلها في مشهد ابي حنيفة رحمه الله توفي في سنة 493. انظر ترجمته في: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ج3، 117.

[4]- عبد الله بن عبد الله الترجمان . وكان من أفاضلهم ولما أسلم أراد ان يبين أباطيل نواميسهم وتناقض أناجيلهم وفساد عقولهم بالنقل والعقل. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج 1، ص 362.

[5]- محمد عبد الله الشرقاوي، بحوث في مقارنة الأديان، دار الفكر العربي، مصر، 2000م، ص 345.

[6]- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي الاندلسي المالكي ولد سنة 403هـ. كان من علماء الاندلس وحفاظها سكن شرق الاندلس ورحل إلى المشرق وأقام بمكة ثم رحل إلى بغداد يقرأ الحديث ويدرس الفقه. له كتاب التجريح والتعديل، شرح المدونة إحكام الفصول في أحكام الأصول، المنتقى المنهاج في ترتيب الحجاج وغيرها. وهو احد ائمة المسلمين وكان قد رجع إلى الاندلس وولي القضاء هناك. انظر ترجمته في: محمد بن أحمد الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413هـ، ج18، 536. إبراهيم بن علي اليعمري، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 120.

أرسل رسالة إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة آنذاك، يدعوه إلى دخول المسيحية. فأرسل الحاكم إلى القاضي الباجي للرد عليه.

وتُعد الرسالتان من أهم الوثائق التي تكشف اهتمام المسلمين بالحوار والجدل المتبادل مع النصارى، المعبرّ عن مديات الاحتكاك الثقافي بينهم. وقد لقيت هاتان الرسالتان عناية بالغة من قِبل المستشرقين المهتمين برصد العلاقات بين الإسلام والغرب بوجه عام كما تمت ترجمتهما إلى أكثر من لغة أوروبية.

ومن أهم ما ورد في رسالة الباجي إلى الراهب، تلك الآداب التي حوتها في ثنايا الحوار المكتوب فقد أظهر الباجي اهتمامه بأمر الراهب واحترامه له وتقديره لمكانته بين قومه. كما أعرض عن مناقشة الأمور المستحيلة التي ذكرها الراهب من إلوهية المسيح وغير ذلك.

ويتضح من الرسالة، أدب الحوار ونهجه التطبيقي من خلال رفق الباجي رحمه الله في محاورته وصبره والتزامه بالموضوعية بأسلوب تطبيقي يمكن الإفادة منه في كتابة أدبيات الحوار إلى حد بعيد[7].

بِيد أن تلك الفترة أعقبتها فترة جمود في الحركة الحوارية الكتابية حتى منتصف القرن الخامس الهجري عندما ظهر ابن حزم الأندلسي[8] بموسوعته الفصل في الملل والأهواء والنحل. وقد عالج فيها مختلف الظواهر الجدلية سواء على صعيد العلاقات بين الفرق الاسلامية أو على صعيد العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الاخرى. ومما تميزت به موسوعته تلك، أنها لم تأت في سياق الردود كما غلب ذلك الطابع على كتابات من قبله. إلا أنها لم تخرج كذلك عن الاهتمام بالعرض التطبيقي دون الاهتمام بالتنظير للحوار والجدل مع المخالفين الذين تعرض لمجادلتهم. وغالب تلك الكتابات ركزّ أصحابها على مسألة التحريف الواقع في كتب اليهود والنصارى وعدم معقولية الاحتكام أو الاحتجاج إليها.

[7]- رسالة راهب فرنسة إلىالمسلمين وجواب الباجي عليها، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1986م.

[8]- علي بن أحمد بن حزم ولد سنة 383هـ بقرطبة. أقبل على العلم فحصل الكثير من العلوم الشرعية وألف فيها كان شافعي المذهب ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، توفي عام 456هـ. له العديد من المؤلفات منها: الإحكام في أصول الاحكام، النبذ في أصول الفقه، الفصل في الملل والأهواء والنحل. أنظر ترجمته: الذهبي، مرجع سابق، ج18، ص 184.

ومن المؤلفات المعروفة التي حوت نماذج لحوارات تطبيقية كتاب عيون المناظرات[9]. وقد شملت مناظرات عديدة منها ما جاء في القرآن الكريم ومنها ما ورد في السنة النبوية. ومنها ماحدث في عصور الخلافة الاسلامية بين العلماء والخلفاء من جهة وعلماء النصارى واليهود من جهة أخرى، إضافة إلى بعض الحوارات الدائرة بين أرباب الفرق الاسلامية آنذاك.

وهكذا يمكننا القول بأن أدبيات الحوار والجدال في تلك الفترة، تناولت قضايا محددة على سبيل العرض التطبيقي وقامت بمعالجتها والرد عليها بأسلوب اتسم بتطبيق ضوابط الحوار ومنهجيته – في الغالب- التي أرست دعائمها عشرات النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية. وكان الاهتمام منصبا على صور الاعتراض على آراء المخالفين وأدلتهم فجاءت كتاباتهم تطبيقية، فتوسعوا في تناول الحوار والجدل كتطبيق لكنهم لم يتناولوه من جوانبه النظرية إلا نادرا.

ومن مصادر الدراسة الهامة كذلك، المؤلفات المدونة في علم المناظرة (آداب البحث)[10]. فقد تضمنت تلك المؤلفات شروط وآداب الجدل التي يذكرها علماء الجدل في باب المناظرة، وتحدد سلوك المتناظرين في مجالس المناظرة. وهي شروط يمكن الإفادة منها كثيرا في مجال الحوار اليوم مع إجراء بعض المحاولات التجديدية لها[11].

ومن أمثلة تلك المؤلفات ما كتبه ابن حزم الظاهري كذلك، فقد عقد فصلا كاملا في كتابه التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية[12]، ذاكرا في كتابه عددا وافرا من آداب البحث والمناظرة الكفيلة بالوصول إلى الحق والخير.

ومن ذلك أيضا ما كتبه الباجي كذلك وعقد له فصلا في كتابه المنهاج في ترتيب الحجاج بعنوان ما يتأدب به المناظِر[13].

---

[9]- أبو علي عمر السكوني، عيون المناظرات، تحقيق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976م.
[10]- ذكر ابن خلدون في المقدمة أن الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بن أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا ومن الاستدلال ما يكون صوابا وما يكون خطأ فاحتاج الى وضع آداب وقواعد يعرف منه حال المستدل والمجيب ولذلك قيل فيه انه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها الى حفظ رأي أو هدمه.
[11]- بدات العناية يالتأليف والتدوين في فن المناظرة مع ظهور المدارس الكلامية.
[12]- كتاب مطبوع بتحقيق: حسان عباس، بيروت، 1959م.

وذهب هؤلاء العلماء جميعا – في تلك الأدبيات– إلى ضرورة التأدب بجملة من الشروط والضوابط التي تشكّل في جملتها نظاما من العلاقات بين المتناظرين[14]. وقد شغلت تلك الآداب والقواعد على اختلاف مسمياتها بين العلماء، حيزا كبيرا من حجم مؤلفاتهم في علم الجدل.

أما الدراسات الحديثة المتعلقة بالمخالف غير المسلم، فقد واصل البعض منها تيار الكتابة الجدلية التطبيقية القديم متناولا مسائل تتعلق بتاريخ كتابة الأناجيل وتعدد نسخها والبحث في مدى مصداقيتها. ومن أمثال تلك الدراسات: كتاب إظهار الحق للعلامة رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي[15]. ويقع الكتاب في جزئين وهو كتاب مناظرة توصيفي تاريخي، شمل المسائل الجوهرية والمواضيع الأساسية والمباحث الهامة بين الإسلام والمسيحية. أظهر فيها الكاتب إبطال مزاعم اليهود والنصارى (من خلال مناظرته العلنية للقس الأنكليزي الشهير فندر) إلى جانب إيراده لما حصل تاريخيا بين علماء المسلمين في الهند والمبشرين من النصارى البروتستانت على وجه الخصوص. فقد حاول هولاء بشتى الوسائل نشر ديانتهم أثناء احتلالهم للهند، حتى وصل الأمر بهم آنذاك إلى جعل الشوارع والأسواق في الهند منابر لتحدي المسلمين في معتقداتهم وتشكيكهم في دينهم ومهاجمة كل ما يمت إلى الإسلام بصلة. فجاءت مناظرة الشيخ للقس فندر والتي جاءت تفاصيلها في هذا الكتاب، ردّا صارما على ذلك التحدي، داحضة الشبهات الباطلة المثارة ضد الإسلام والقرآن وشخصية النبي ﷺ.

والكتاب – بشهادة معاصريه من المسلمين والنصارى– أسهم بشكل واضح في وقف السيل العارم من شبهات المبشرين الذين دأبوا على نشر أفكارهم بين المسلمين الهنود آنذاك، وخاصة القس الشهير فندر. وقد ترجم الكتاب إلى لغات عدة ونال شهرة واسعة حتى أصبح بجدارة مقصدا للباحثين والمحققين في هذا المجال.

---

[13]- الكتاب مطبوع تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الاسلامي،الطبعة الثانية، بيروت، 1987م.

[14]- من أمثلة هذه الدراسات ايضا: ابن وهب أبوالحسين إسحاق بن إبراهيم ، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: احمد مطلوب، خديجة الحديثي، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1384ه/1965م. عبد الملك الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسين محمود، عيسى الحلبي، مصر، 1399ه/1979م.

[15]- رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي، إظهار الحق، تحقيق: عمر الدسوقي، طبعة الشئون الدينية، قطر، 1980م.

وتناولت بعض الكتابات المناظرات الشفاهية التي تمت بين علماء من المسلمين من جهة، وبعض القساوسة من جهة أخرى. ومن أشهرها ما قام به الأستاذ أحمد ديدات[16] رحمه الله العالم المتخصص في تاريخ الأديان المقارن.

إلا أن غالب تلك الأدبيات لم يشكّل إضافة نوعية تختلف عما تناوله العلماء السابقون رحمهم الله من مسائل وقضايا تتعلق بالحوار القائم بين المسلمين والنصارى مثل ألوهية المسيح، ومصداقية التوراة والانجيل، والتناقض في الأناجيل وأمثلة على التحريفات فيها ...

وعليه فقد ظلت تلك الأدبيات تدور في فلك الجدل التطبيقي. وقد اتسمت تلك الأدبيات (خاصة مناظرات الشيخ ديدات) بتعرية أخطاء المسيحين بوضوح وصرامة. وكان لتلك المناظرات أثرها الإيجابي البالغ المتمثل، في إسلام عشرات من المسيحين إضافة إلى بث الحماسة في صفوف المسلمين وازدياد ثقتهم بدينهم.

وثمة أدبيات أخرى ظهرت في أعقاب عام 1965م حين دشنّ الحوار بين المسلمين والمسيحيين مرحلة جديدة تمثلت في تعاون كل من جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله ملك المملكة العربية السعودية آنذاك، والحبر الأكبر البابا بولس السادس بابا الفاتيكان – عبر المستشارين الخاصين لكل منهما – في بدء الحوار بين الجانبين المسلم والكاثوليكي.[17]

---

[16]- من مسلمي جمهورية جنوب أفريقية وأحد ابرز العلماء المسلمين في العصرالحاضرفي مجال مقارنة الأديان. قام بإجراء حوارات عديدة مع المسيحين في أماكن عديدة في العالم. أسس مركزا لإعداد الدعاة باسم مركز الدعوة الاسلامي. وقد طبعت تلك الحوارات وجمعت في كتاب بعنوان مجموعة كتيبات في مقارنة الأديان. انظر ترجمته في: المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، جمع: أحمد حجازي، مكتبة زهران، القاهرة، 1988م.

[17]- جاء ذلك بعد **تصريح عن المجمع الفاتيكاني الثاني خاص بعلاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية**. جاء فيه:

"إن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضا إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض ومكلّم البشر. الذين يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. وإنهم يُجلّون يسوع كنّبي وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون أمه مريم العذراء.... ...وإذا كانت قد نشأت على مرّ القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين فالمجمع المقدس يحضّ الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل ويصونوا ويعززوا معا العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة الناس جميعا". نقلا عن أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، إصدار عالم المعرفة، الكويت، تشرين الثاني 1996م، ص 143-144. وانظر كذلك:

R. Caspar, Islam according to Vatican 11(2), (Roma: 1976). P.2.

وقد تمثلت تلك الأدبيات في الأوراق الصادرة عن الندوات واللقاءات التي قامت بتنظيمها وزارة العدل في المملكة العربية السعودية وغيرها من مؤسسات مع كبار رجال القانون والفكر المسيحي في أوروبا. ومن أبرز الموضوعات المطروحة فيها: العقوبات والحدود في الاسلام، مكانة المرأة في الاسلام، حقوق الإنسان في الشريعة الاسلامية، ضمان حقوق المسيحيين في الدولة الاسلامية، السلام في العقيدة الاسلامية، قضية الميراث في الإسلام، شهادة المرأة في الإسلام، تعدد الزوجات وموضوع الحجاب في الإسلام.[18]

وأسهمت تلك الكتابات في رفع بعض الشبهات المثارة ضد تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتعلق بالمواضيع المطروحة للنقاش[19]. ودونت وقائع تلك الندوات في كتاب وثائقي تحت عنوان ندوات علمية في كل من الفاتيكان، باريس، جنيف، وستراسبورغ.

وتوالت المؤتمرات والندوات في مجال الحوار الاسلامي المسيحي والتي تشكل أوراق أعمالها حصيلة هامة لمثيلات هذه الدراسة، ومنها المؤتمرات المنعقدة في الأزهر. ومن ذلك مؤتمر الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى يوليو 1996م.

ومن **أبرز الدراسات المختصة كذلك، الأدبيات الصادرة عن المنتدى الاسلامي العالمي للحوار**[20]. وتأتي معظم أدبياتها في أوراق تضم بحوث ودراسات متمخضة عن مؤتمرات وندوات ولقاءات، تمّ فيها تناول مختلف القضايا المتعلقة بالحوار وأهمية تعزيز ثقافته ونشرها، والدعوة إلى احترام الحريات الدينية والمقدسات وممارسة الشعائر الدينية. وتعد تلك الكتب والمؤلفات في غاية الأهمية لما تناولته من جوانب تطبيقية في ثقافة الحوار.

بِيدَ أن ثمة أمور ينبغي الإشارة إليها في سياق الحديث عن الأدبيات المعاصرة الخاصة باللقاءات والندوات المنعقدة مع المسيحيين، منها:

---

[18]-ندوات علمية حول الشريعة الاسلامية وحقوق الانسان في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م، ص ص 8، 57، 77، 105.

[19]- حول ذلك راجع: مناظرة بين الإسلام والنصرانية، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض، 1407هـ، ص 10.

[20]- موقع الحوار على الانترنت: www.dialogueonline.org

أولا: أن تلك اللقاءات جرت على مستوى نخبوي بحت وليس على مستوى جماهيري عام. ثانيا: أن الكنيسة عرّضت نفسها وتوجهاتها في الحوار للشبهات المتزايدة، بسبب أعمالها التبشيرية في القرنين الأخيرين في ذات الوقت الذي تشارك وتدعو فيه إلى الحوار. الأمر الذي أدى إلى حذر بعض المسلمين الشديد من تلك اللقاءات باعتراف بعض المفكرين والعلماء المسيحيين أنفسهم[21].

ثالثا: الطابع الغالب على تلك الكتابات هو العرض التطبيقي دون الاهتمام بالتحليل والتنظير إلا قليلا.

والدراسة إذ وقفت على الأدبيات الخاصة بتلك اللقاءات، إنما تروم استقراء واقع الحوار الاسلامي مع المخالفين في محاولة لتقديم اقتراحات وتوصيات – من خلال هذه الرسالة- لوضع استراتيجية للحوار خلال المرحلة القادمة.

وثمة **دراسات معاصرة تناولت بالبحث مسارات جديدة تتعلق بالتنظير لأدب الحوار بين المسلمين ومخالفيهم** من المسلمين وغيرهم. وأكدت تلك الدراسات أهمية و ضرورة قيام حوار تُستكمل فيه الشروط والضوابط التي أرسى دعائمها القرآن الكريم والسنة النبوية. كما أشارت تلك الدراسات إلى محورية الحوار ودوره في الواقع المعاصر. مؤكدة أهمية إحياء ضوابطه وشروطه بين المسلمين من جديد، مشيرة إلى الأبعاد السلبية الوخيمة الناجمة عن غياب الحوار.ومن أمثلة تلك الدرسات: أدب الحوار في الاسلام[22] لفضيلة شيخ الأزهر مُحَمَّد سيد طنطاوي. وقد تناول فضيلته في الكتاب الواقع في 461 صفحة توصيفا دقيقا لآداب الحوار والمناظرة وتطبيقات من القرآن عليها بشكل خاص.

---

[21]- من ذلك التقرير الذي نشره موقع إسلام أون لاين يوم 31 مايو/أيار 2004 نقلا عن صحيفة "فيلت إم زوغ" الألمانية التي نشرت أن الفاتيكان خصص أموالا هائلة مؤخرا لتفعيل نشاط منظمة "رابطة الرهبان لنشر الإنجيل" في مجال وقف انتشار الإسلام حول العالم وتنصير أكبر عدد من المسلمين. وقد حمل هذا التقرير عنوان "مليون ضد محمد" وقال إن المنظمة المذكورة يعمل بها نحو مليون شخص "ليل نهار وفي كل مكان من أجل وقف انتشار الإسلام في العالم بكل قوة، وتشويه صورة النبي محمد ﷺ ونعته بأبشع الصفات". وتؤكد الأوراق والدراسات الناجمة عن تلك اللقاءات محدودية دورها في معالجة القضايا الحوارية كما تؤكد ضرورة اهتمام المسلمين بوضع استراتيجية محددة الأهداف والأبعاد للمشاركة في مثل تلك اللقاءات ضمن خطة عمل مدروسة يقوم بها نخبة من المختصين. راجع الموقع: www.islamonline.com

[22]- أدب الحوار في الإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997م.

وثمة دراسات معاصرة اهتمت اهتماما واضحا في التنظير للخلاف بين المسلمين خاصة، مؤكدة أهمية الالتزام بأدب الخلاف والحوار فيما بينهم. ومن أبرز تلك الدراسات كتاب أدب الاختلاف في الإسلام لفضيلة الشيخ الدكتور طه جابر العلواني[23]. وقد حوى الكتاب الواقع في 168 صفحة تأصيلاً تاريخياً لما يمكن أن يُعرف بفقه الاختلاف معتمدا على الجانب التاريخي، متعرضا بعمق لسمات الاختلاف بين العلماء المسلمين على مدى التاريخ، وما اصطبغت به خلافاتهم من أدب جمّ ومحبة عظيمة واحترام متبادل.

ومن الكتابات المهمة في فقه الاختلاف بين المسلمين أيضا، كتاب الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي[24].

وقد تناول فضيلته في الكتاب الواقع في 176 صفحة، جلّ ما يتعلق بالاختلاف الواقع بين المسلمين مبينا في تمهيد الكتاب أنواع الاختلافات الواقعة بينهم، مؤكدا الأسس التي ينبغي قيام الاختلاف المقبول عليها، من فرضيّة الاتحاد والترابط إلى كراهية الإسلام ونبذه للفرقة والتباغض. والكتاب في منهجه، متسمٌ بالأصالة والالتزام بالنصوص الشرعية الواردة في القرآن والسنة. وقد فتح فضيلته– بهذا الكتاب وغيره– الباب لفهم نصوص السنة وأحاديثها وفق ضوابط وأصول في غاية الدقة، يمكن لها أن تسهم في حلّ معظم ما تعانيه الأمة من جراء سوء فهم الأحاديث وإساءة تنزيلها. كما قدّم فضيلته أبرز آداب الاختلاف التي ينبغي الالتزام بها عند وقوعه بين المسلمين، واضعا في خاتمة الكتاب أسس التعامل مع المخالف بإيجاز غير مخل بالمعاني العظيمة فيها.

وثمة دراسات مختصة بالعلوم النفسية والاجتماعية وقفت الدراسة عليها في سبيل الإحاطة بجوانب موضوع الحوار من زوايا مختلفة لا تقتصر في العرض والمعالجة على الدراسات المتخصصة في الفقه والحديث ونحوهما، بل تمتد لتشمل العلوم الإنسانية[25].

---

[23]- طه جابر العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، جمادى الأولى 1405هـ.

[24]- يوسف القرضاوي، الصحوة الاسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق، 1421هـ/ 2001م.

[25]- من أمثلة هذه الدراسات:

John M. Darely and Russell H. Fazio, *Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce*, American Psychologist, vol. 35, no. 10, October 1980.

يتبين من خلال العرض السابق لكثير مما تناوله العلماء في القديم والحديث في موضوع الحوار مع المخالف، ندرة وجود رسالة جامعة تضم الأسس التي يقوم عليها الخلاف والحوار مع المخالفين مطلقا في المعتقد أو من المسلمين. كما يتضح من عرض الدرسات السابقة قلة الاهتمام بدراسة تؤصل تلك الأسس وتستنبط الآداب والقواعد في الخلاف من السنة النبوية وسلوكيات النبي عليه الصلاة والسلام المندرجة في سيرته ونهجه مع مخالفيه.

كمالم يتم الوقوف كذلك على دراسة تجمع بين ذلك كله وبين الدراسات النفسية والاجتماعية المعاصرة بأسلوب يروم التكامل والشمول بين الطرح الفقهي والحديثي من جهة والاستعانة بطرح الدراسات النفسية والاجتماعية من جهة أخرى. الأمر الذي يؤكد أهمية هذه الدراسة وضرورتها المنهجية والعلمية خاصة في الوقت الحاضر.

تقسيم الدراسة

تنقسم هذه الدراسة إلى ستة أبواب بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة والفهرس.

أما الباب الأول فقد تمّ تخصيصه للبحث في الأسس التي يقوم علهيالحوا رمع المخالف. كما تمّ تقسيمه إلى ثلاثة فصول: يبحث الفصل الأول في أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر، ويركز الفصل الثاني على أساس التعايش السلمي بين البشر. أما الفصل الثالث فقد تم فيه طرح أساس اتباع الحق والعدل مع المخالف.

الباب الثاني تمّ تخصيصه للبحث في أهداف الحوار، وتمّ تقسيمه إلى ستة مباحث:

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين

المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة

Yinger, J. M&Simpson, G. E,. *Techniques for reducing prejudice; Changing the prejudiced person in*: P. Waston (Ed), Psychology and Race, Chicago Aldine Bublishing Company, 1973.
Straughn, R. Wringley, J. eds, *Values & Evaluation in Education*, London, Harper& Row Pub. 1980
Paul F. Secord and Carl W. Backman, *Social Psychology*,New York: McGraw-Hill, 1974
Henri Jajfel, *Individuals and Groups in Social Psychology*, British Journal of Social and Clinical Psychology, vol, 18,1979.
Tajfel, *Social Stereotypes and Social Groups*,Little Brown Co, 1980.

المبحث الثالث: الترقي بالذات

المبحث الرابع: التلاقح الحضاري

المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم

المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات

أما الباب الثالث فقد خصص للبحث في ضوابط الحوار وآدابه. وتم تقسيمه إلى ستة مباحث:

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن

المبحث الثاني: مراعاة حال المَحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية

المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد

المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة
المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه
المبحث السادس: ضوابط مساعدة.

أما الباب الرابع فقد تم تخصيصه للبحث في وسائل الحوار، وتم تقسيمه إلى فصلين: الأول الحوار بالقدوة والسلوك العملي. أما الفصل الثاني فيضم الوسائل المعاصرة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الاسلامية

المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.

المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع. وتم في المبحث الثالث تناول عدة وسائل ونقاط وهي: التنشئة الاجتماعية Socialization، تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية، المناهج الدراسية، المؤسسات الإعلامية، وتفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد.

أما الباب الخامس فقد خُصص للبحث في الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار **وهي**:

أولا: تخفيف حدة التعصب

ثانيا: تخليص المجتمع من الشخصيات السيكوباثية

ثالثا: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين

رابعا: الدعوة إلى الله

خامسا: التلاقح الحضاري.

أما الباب السادس والأخير فتمّ تخصيصه للبحث في الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار وتم تقسيمه إلى تسعة مباحث، يتناول كل مبحث أثرا سلبيا وهي: الإسراف في تقدير الذات، شيوع فكر التعصب، بروز التطرف الفكري، انتشار السلوك العدواني والعنف، فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد، والوقوع في الظلم والبغي وبروز ظاهرة التكفير، انتشار داء الفرقة والنزاع، والتراجع الحضاري.

مصطلحات الدراسة

يعتبر مصطلح الحوار من أبرز المصطلحات المستعملة في الدراسة وأهمها. ومدار الحوار والمحاورة في اللغة حول مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[26]. والحوار المجاوبة والتحاور التجاوب[27]. وحاورته أي راجعته الكلام[28]. ويقال كلمته فما رجع إلى حَوَارا وحِوارا ومُحاورة وحويرا ومحورة اي جوابا وإنه لضعيف الحوار أي المحاورة[29].

---

[26]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج4، ص 218.

[27]- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة ناشرون لبنان، بيروت، 1995م، ج1، ص 67.

[28]- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، ص 156. وانظر كذلك: حسين موسى وآخرون، الإفصاح في فقه اللغة، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، مصر، ج1، 205.

[29]- السيد محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود الطناجي، طبعة وزارة الإعلام، الكويت، 1413هـ/ 1993م، ج11، ص 107.

وعلى هذا ذكر الراغب[30] أن المحاورة والحوار هي المرادة في الكلام[31] ومنه التحاور كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[32].

<u>وثمة ألفاظ تقترب من الحوار إلا أنها تفارقه وتغايره في المعنى وتختلف عنه ومن ذلك الجدل والمناظرة</u>. فالجدل في اللغة: هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها ومنه أُخذ الجدل المنطقي، الذي هو القياس المؤلف من المشهورات أو المسلّمات والغرض منه إلزام الخصم وإفهام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. والمجادلة والجدال المخاصمة والخصام[33].

وقد جادله مجادلة وجدالا أي خاصمه وغلبه، ومنها مقابلة الحجة بالحجة. والمجادلة والمناظرة والمخاصمة[34]. فالجدل والجدال يعني المفاوضة على سبيل المنازعة وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله ومنه الجديل[35].

وقد ذكر الفيومي[36] أن أصل الجدل من جادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب فهذا أصله. وقد استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إذا كان للوقوف على الحق، ومذموم إذا كان فيما عداه[37].

---

[30]- أبو القاسم الحسين بن محمد. صاحب المصنفات كان من أوائل المائة الخامسة له مفردات القرآن وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين وغيرهما. نقل السيوطي عن الفخر الرازي أنه من أئمة السنة توفي سنة نيف وخمسمائة. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج18، ص 121. صديق بن حسن القنوجي، مرجع سابق، ج3، ص 68. وأنظر كذلك: حاجي خليفة،مرجع سابق، ج1، ص 377.

[31]- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م، ص 142.

[32]- سورة المجادلة: 1.

[33]- الزبيدي، مرجع سابق، ج16، ص 194.

[34]- ابن منظور، مرجع سابق، ج11، ص 105. وانظر كذلك مختار الصحاح، مرجع سابق، ج1، ص 41.

[35]- الاصفهاني، مرجع سابق، ص 97.

[36]- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، صاحب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، جمع أصله من نحو سبعين مصنفا ومطولا ومختصرا. توفي سنة 777هـ. انظر ترجمته في:حاجي خليفة، مرجع سابق، ج2، ص 1710.

[37]- الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، بدون، ج1، ص 156.

فالجدل باعتباره منهجا فكريا، يتمثل في تبادل الأطراف المختلفة الآراء المتعددة ويدافع كل منهم عن رأيه ويحاول إثبات ذلك الرأي وإثبات خطأ رأي مخالفه. وغالبا ما يكون كل طرف ممثلا لمذهب معين في المسألة التي يدور حولها الخلاف[38].

أما الجدل باعتباره علما قائما بذاته فهو يعنى بدراسة القوانين والأسس التي ينبغي للمتناظرين في مسائل أصول الفقه أن يلتزموا بها حين المناقشة أو المناظرة. وغايته ردّ الخصم عن رأيه ببيان بطلانه[39].

والحوار والجدل يلتقيان في بعض الأمور ويفترقان في البعض الاخر. فهما يشتركان في مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، ويختلفان في أن الجدل يتسم بطابع الغلبة والخصومة والشدة في حين أن الحوار يتسم باللين والهدوء. ومن الطبيعي أن صاحب الخصومة شخص يهدف الانتصار لرأيه مهما كان ذلك الرأي. ومن أهدافه كذلك إسقاط من يجادله وهزيمته والقضاء عليه إن أمكن. من هنا جاء الأمر القرآني بالإحسان في الجدل لما يتخلله من تلك المعاني.
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[40]. وفي ذلك تأكيد أن محور الجدل الشدة والخصومة. قال تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[41].
فلفظ الجدل جاء في القرآن في معرض الذّم وعلى هذا كان التقييد له بالأحسن.

ومن الألفاظ التي تقارب الحوار مصطلح المناظرة. والمناظرة في اللغة: مأخوذة من النظر وتقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد بها المعرفة الحاصلة بعد الفحص والرويّة، يقال نظرت فلم تنظر أي لم تتأمل ولم تترو.
وقال الزبيدي[42] المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه وهو مجاز. والمناظرة المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته. فالمناظرة تجري بين نظيرين أو متقاربين فلو جرى حوار بين غير متماثلين، لا يسمى في اللغة مناظرة[43].

[38]- مسعود بن موسى فلوسي، الجدل عند الأصوليين، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، 1424هـ/ 2003م، ص 151.
[39]- نجم الدين الطوفي، علم الجذل في علم الجدل، تحقيق: فولفهارت هاينرشيئس، فرانز شتاينر بفيسبادن، ألمانيا، 1987م، ص 4.
[40]- سورة النحل: 125.
[41]- سورةالعنكبوت: 46.

في حين أن الجدال والمجادلة يمكن أن يكون بين نظيرين أو غير نظيرين. فالجدل في اللغة أعمّ من المناظرة على هذا الاعتبار.

أما المناظرة في الاصطلاح فهي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب[44].

وذكر البعض أنها: علم آداب البحث وهو علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المتناظرين. وموضوعه الأدلة من حيث أنها يثبت بها المدعى على الغير..والغرض منه تحصيل ملكة طرق المناظرة لئلا يقع الخبط في البحث فيصبح الصواب خطأ[45].

وعرّفها بعض المعاصرين بأنها: المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره[46].

وعلى هذا يكون علم المناظرة أعمّ من علم الجدل فالجدل يختص بالمعنى الاصطلاحي بعلم أصول الفقه دون غيره، في حين أن المناظرة لا تختص بعلم دون آخر، فهي تتعلق بقواعد الاستدلال وطرق الحجاج والمناظرة بوجه عام.

وثمة نقطة هامة لابد من الإشارة إليها في ثنايا الحديث عن مصطلحات: المحاورة، والمناقشة والمجادلة، ألا وهي صعوبة التفرقة الدقيقة بينها والتطور الدلالي لكل منها، بسبب عدم توفر معجم عربي يهتم بتطور دلالات الكلمات أو المصطلحات. فجميع هذه المصطلحات تقوم على الحوار المتبادل الذي يفترض وجود متحاورين اثنين على الأقل فليس هناك متكلم من طرف واحد ومستمع من طرف واحد فقط. إلا أن المصادر القديمة لا تقدم لنا توضيحا فيما يخص العلاقة بين تلك المصطلحات كما لاتقدم تفسيرا واضحا يمكن أن يميز بين كل مصطلح وغيره أو يؤرخ تطور دلالة المصطلح.

---

[42]- أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، لغوي نحوي أصولي أصله من واسط في العراق ولد في بلجرام في الهند سنة 1145هونشأ في زبيد باليمن ورحل إلى الحجاز وأقام في مصر وتوفي بها عام 1205هـ. من أهم مصنفاته تاج العروس في شرح القاموس، الغريب في مصطلح آثار الحبيب. انظر ترجمته في: القنوجي، مرجع سابق، ج3، ص 27.

[43]- الزبيدي، مرجع سابق، ج3، 575.

[44]- الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الريان، القاهرة، بدون تاريخ، ص 298.

[45]- حاجي خليفة، مرجع سابق، ج1، ص 38.

[46]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1401هـ/1981م، ص 361.

فأصل مصطلح المناقشة – على سبيل المثال– من نقش الشكة أي استخرجها من جسمه. والمناقشة في المفهوم الاصطلاحي: الاستقصاء في الحساب بمعنى المحاسبة والتدقيق في الحساب في كل أمر صغير كان أو كبير.

ولا يذكر ابن منظور[47] في لسان العرب، معنى الكلمة الاصطلاحي كما هو مفهوم اليوم الدائر حول المجادلة أو الحوار في موضوع معين.

من هنا فقد نبّه بعض المعاصرين إلى الخطأ الذي يقع فيه البعض عند استعمال كلمة المحاورة أو الحوار مرادفة لكلمة المناقشة رغم التباين الحاصل بينهما، فلكل مصطلح خصوصيته وحدوده[48].

ويؤكد ابن منظور أن الهدف من المجادلة والمماحكة، الدفاع عن وجهة نظر معينة وإثبات القدرة الذاتية على الجدل وإظهار خطأ رأي الخصم مهما كانت طبيعة ذلك الرأي.

وعلى هذا تحدد مفهوم الجدل بشكل نهائي في القرن الثاني عشر للهجرة بأنه المجادلة هي عند أهل المناظرة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم[49].

وخلاصة القول أن الفارق بين الحوار وما يقاربه من معان أخرى، يكمن في الموقف الحواري ذاته كما يكمن في غاية المتحاورين والأسلوب المتبع في ذلك.

لفظة الحوار في القرآن الكريم

لم ترد لفظة الحوار ومشتقاتها في القرآن الكريم إلا في ثلاثة مواضع:

1-﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[50].

2-﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[51].

47- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الافريقى المصري المتوفى سنة 711هـ. من أشهر مؤلفاته لسان العرب، جمع فيه بين التهذيب والمحكم. انظر ترجمته في: حاجي خليفة، مرجع سابق، ج2، ص 1549.

48- عبد الحليم حفني، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، 1985م، ص 15.

49- التهانوني، كشاف اصطلاحات الفنون، 1966م، ج1، ص 242.

50- سورة الكهف: 34.

51- سورة الكهف: 37.

3- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[52].

إلا أن ذلك الاقتضاب في استعمال اللفظة في القرآن الكريم، لا ينصرف بحال إلى التقليل من أهمية أو محورية الحوار في القرآن الكريم. فقد كانت قضية الحوار حاضرة كنموذج تطبيقي باستمرار في المواقف القرآنية المتعددة وسيتم توضيح ذلك من خلال عرض أنواع ونماذج الحوار في القرآن.

في حين أن كلمة الجدل ومشتقاتها وردت الإشارة إليها في آيات كثيرة، وصلت إلى 28آية. بيد أن معظمها جاء في معرض الذم والنهي. ولعلّ في ذلك تأكيد التناسب بين المعنى اللغوي لكلمة الجدل ومفهوم الجدل في القرآن.

ومما يلاحظ على كلمة الجدل في القرآن أنها لم تأت في معرض الأمر بها أو استحسانها إلا في موضعين، اقترن كلاهما بالأمر بالإحسان في الجدل، مما يؤكد أن الأصل في الجدل هو المعنى السلبي إلا إذا جاء مقروناً بالإحسان كصفة طارئة عليه وليست أصيلة فيه.

ولعل أبرز تلك النصوص القرآنية تلك الآية التي ربطت الجدل بالطبيعة الإنسانية حيث قال تعالى: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾. ففي الآية تأكيد أن صفة الجدل طبيعية فطرية في الإنسان تستحث العقل الذي أودعه الخالق سبحانه فيه للبحث والتساؤل والنقاش المستمر. مع التحفظ على تلك الطبيعة ومحاولة تهذيبها وتشذيب مثالبها للوصول إلى الحالة الإنسانية المعتدلة المتمثلة في الحوار.

المعنى الاصطلاحي للفظة الحوار

يدور معنى الحوار في اللغة حول المراجعة في الكلام والرجوع عن الشيء والى الشيء. وفي ذلك إشارة إلى التلازم الحاصل بين معنى الحوار وما ينبغي أن يتسم به من إمكانية التراجع عن الخطأ إلى الصواب من خلال تأكيد مقصد المراجعة والتراجع عن الرأي إذا اقتضى الأمر ذلك، بغية الوصول إلى الحق الواضح. فتكون مرادّة الكلام في الحوار هينة لينة غير قاسية وغير عنيفة.

[52]-سورة المجادلة:1.

أما في الاصطلاح فقد عرّفه بعض المعاصرين بأنه: مراجعة الكلام بين متحاورين وتقليب وجوهه للوصول إلى معنى ثابت يقطع الخلاف ويرفع النزاع بينهما ويحملهما على التسليم بأحد المعاني الخلافية[53].

والمتأمل في بداية هذا التعريف يلحظ ملائمته لمعنى الحوار. إلا أن التعريف اشتمل على حصر الغاية من الحوار في إقناع الطرف الآخر بالتسليم لمعنى معين، وهو أمر لا يتناسب والغاية من الحوار كما ستبينه الدراسة لاحقا.

فالعديد من الحوارات الواردة في القرآن الكريم بين الأنبياء وأقوامهم – على سبيل المثال– لم تنتهي بتسليم الطرف المتحاور معه بمعنى يقطع النزاع بل على العكس من ذلك، فغالبا ما ينتهي الحوار بالتزام كل طرف بقناعاته الفكرية.

من هنا فهذا التعريف يحمل نوعاً من الخلط بين معنى الحوار في الاصطلاح والمناظرة، التي غايتها بالفعل، الوصول إلى معنى ثابت يقطع الخلاف ويرفع النزاع بينهما ويحملها على التسليم بها.

ولا يعني ذلك، عدم أهمية وضع أهداف بعيدة للحوار تروم إيصال الطرف المتحاور معه إلى الحقيقة المعضدة بالأدلة والبراهين، بل المقصود ألا يكون ذلك هدفا تتوقف عنده أية محاولات أخرى للتوصل إلى الحقيقة ومواصلة الحوار.

كما عرّفه الأستاذ الميداني بأنه: جدال كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الأخر ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الأدلة التي تنير له بعض النقاط التي كانت غامضة عليه[54].

وعرّفه الأستاذ عبد العزيز التويجري بأنه: المراجعة فى الكلام ،وهو التجاوب بما يقتضى ذلك من رحابة الصدر وسماحة النفس ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف، والتجاوب والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقى مع الأفكار والآراء جميعا. وهذا المعنى يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن الحوار أصل من الأصول الثابتة

---

[53]- أحمد إسماعيل أبو شنب، مشكلات الحوار وأثرها على النهوض الثقافي..دراسة نقدية، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية، قطر، العدد الحادي والعشرون، 1424/ 2003م، ص 127.

[54]- الميداني، مرجع سابق، ص 361.

للحضارة العربية الإسلامية، ينبع من رسالة الإسلام وهديه، ومن طبيعة ثقافته وجوهر حضارته[55].

وعلى هذا لا يمكن تصور حوار إلا مع التعدد وإلا كان حوارا مع الذات وحديثا مع النفس. فالحوار وسيلة اتصال واستمرار لسريان الفكر والمعنى بين اثنين أو أكثر مما يدفع إلى استمرار الاتصال بينهم[56].

أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع فكري حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل، ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكرياً، والانتصار عليه.

والعمل على تحقيق هذا الهدف قد يدفع كل واحد من المتجادلين أو على أقل تقدير الواحد منهما، الى أن يعتمد على أي سلاح يمكّنه من النصر والغلبة، حتى ولو كان اعتماداً على ما هو باطل، إذ الغاية في هذا الموقف هي التي تبرر الوسيلة.

من هنا أكّد القرآن الكريم أهمية الالتزام بالقواعد والآداب التي لابد من التمسك بها في الجدل، فقال آمرا نبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[57]. ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[58]

ولم تقف آداب الجدل في القرآن الكريم عند طلب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن فقط، وانما تجاوز ذلك إلى جعل الهدف من الجدل التوصل إلى الحق لا مجرد الجدل.

وخلاصة القول في هذا الأمر أن **للحوار معنى خاص به يختلف عما يقاربه من ألفاظ ومصطلحات حتى وإن كان هناك ثمة استعمال لمصطلحات أخرى عبر التاريخ تقترب من الحوار في بعض المعاني كالمناظرة وغيرها.**

---

[55]- عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور اسلامي، المؤتمر الثامن، يوليو 1996م. http://www.alazhr.org/conf/default.asp

[56]- صموئيل حبيب، فن الحوار، الدار الثقافية، القاهرة، 1994م، ص 11.

[57]- سورةالنحل: 125.

[58]- سورة العنكبوت: 46.

بيد أن هذه الخصوصية في المعنى لمصطلح الحوار، لا ينبغي أن تصرف نظر الباحثين والمفكرين عن أهمية الإفادة مما كُتب من مؤلفات عديدة في موضوع الجدل والمناظرة خاصة فيما يتعلق بآدابهما وشروط المتناظرين ونحو ذلك. فقد تناول العلماء في القديم والحديث هذه المباحث بتفصيل دقيق ينبغي الوقوف عليه من قِبل الباحثين المعاصرين والإفادة منه في ثنايا معالجة موضوع الحوار.

ومن أبرز مصطلحات الدراسة كذلك مصطلح المخالف. وهو مأخوذ من الخلاف والاختلاف وأصل اشتقاقهما لغوياً من كلمة خَلَفَ الثلاثية، التي وردت في أصول معان ثلاثة: أحدها: بمعنى مجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني: مايعني خلاف أمام وقدام، والثالث: ما يأتي بمعنى التغيير.

وفي لسان العرب: الخلاف بمعنى المضادة، وقد خالفه مخالفة، وخلافاً إلى الشيء، عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه[59]. وفي القرآن الكريم قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾60. وتخالف الأمران إذا اختلفا ولم يتفقا، ويأتي خلفه في كذا: أي سلك طريقاً آخر غير طريقه، فبينهما تفاوت وتباين وتناف وتغاير، وعلى هذا فإن **الخلاف يساوي عدم الموافقة إطلاقاً**. والاختلاف افتعال من الخلاف وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه[61].

أما في الاصطلاح، فقال الراغب: الاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعمّ من الضدّ، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدان[62]. وعلى هذا فلا يمكن القول بأن مجرد الاختلاف يعني التضاد والتعارض.

معنى الاختلاف في القرآن الكريم

عند البحث عن اللفظة واستعمالاتها في القرآن الكريم، نجد أنها تتردد بين معنيين اثنين، وهما التنوع و الاضطراب. فمن باب التنوع قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

---

[59]- لسان العرب، مرجع سابق، ج9، ص 90.

[60]- سورة هود: 88.

[61]- محمد عبد الرؤوف المناوي، التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، 1410هـ، ج1، ص 42.

[62]- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص 162.

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾63. وقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها﴾[64].

أما دلالة الاختلاف على الاضطراب فتتمثل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾65. وقريب من هذا المعنى النهي الوارد للأمة عن الاختلاف والتفرقة المؤدية إلى الشقاق، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾66.

إلا أن بعض العلماء ومنهم الإمام ابن تيمية[67] رحمه الله ذهب إلى أن الاختلاف في القرآن الكريم لم يُستعمل إلا في معنى التضاد، حيث يقول:" لفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظّار ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾68. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾69. وقوله : ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾70". [71]

والتفرقة الدقيقة بين اللفظتين أمر له خصوصيته وأهميته في هذه الدراسة. فإذا ذهبنا إلى القول بأن معنى الاختلاف هو التضاد والتعارض حصراً، وصلنا إلى القول بأن كل من يخالف في مسألة ما، فهو معارض وضد لمن يخالفه.

في حين أن العلماء القدامى رحمهم الله استعملوا لفظة المخالف لمن يخالف في العقيدة أو غيرها من الأمور الفقهية أوالاجتهادية ونحو ذلك، فقالوا الكافر المخالف للشرع كاليهودي

63- سورة الروم: 22.
64- سورة فاطر: الآية 27.
65- سورة النساء: 82.
66- سورة البقرة: 176
67- تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني شيخ الإسلام إمام مجتهد محدث مفسر اصولي واعظ ألّف تصانيف عدة منها مجموع الفتاوى، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وغير ذلك كثير. توفي سنة 728هـ. انظر ترجمته: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد خان، مطبعة كجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1972م، ج1، ص 168.
68- سورة النساء: 82.
69- سورة الذاريات: 8-9.
70- سورة البقرة: 253.
71- أحمد عبد الحليم ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي، مكتبة ابن تيمية، السعودية، بدون تاريخ، ج13، ص 19.

والنصراني[72]. كما استعمل الأصوليون والفقهاء وغيرهم لفظة المخالف لمن يختلف معهم في الرأي أو في بعض المسائل الفقهية ونحوها من المسلمين[73].

وعلى هذا فالدراسة تؤكد أهمية استعمال لفظة المخالف دون استعمال مصطلحات جديدة كمصطلح الآخر الذي ازداد استعماله من قِبل عدد من المفكرين المعاصرين في الوقت الحاضر.

حيث أن استعمالنا للفظة الآخر أو الغير يمكن أن يوحي بوجود نمطية فكرية مسبقة تجاه المخالف في العقيدة أو المبادئ أو نحو ذلك. في حين أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فرّقت بين المخالفين ولم تعاملهم على أساس واحد يكرس مبدأ النمطية اتجاه الآخر وإنما بحسب مواقفهم كما سيأتي توضيحه.

وعلى هذا فالدقة الاصطلاحية تقتضي **استعمال لفظة المخالف دون الآخر أو الغير، فلا آخر في قاموس الفكر الاسلامي ولا علاقة نمطية موحدة اتجاه المخالف لمجرد مخالفته للإسلام.**

فالنصوص القرآنية الكريمة، يلحظ أنها حددت استعمال المصطلحات فلم تُدخل جميع المخالفين لعقيدة الإسلام في علاقة نمطية واحدة بل فرّقت بين الحالات فهناك أهل كتاب من نصارى ويهود. وهناك نصوص تحدثت عن كل فئة منهم على حدة كما أن هناك نصوص أخرى تحدثت عن الكفار فقط والمشركين فقط.

ولم تجعل العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم حتى من الكفار والمشركين في سياق واحد بل تختلف تلك العلاقة وفق معايير متعددة كما سيتم ذكره في مواضعها من الدراسة.

---

[72]- ابوعبدالله محمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: احمد البردوني، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة، 1372هـ، ج1، ص 356..وانظر كذلك محمد بن جريرالطبري،تفسير الطبري،دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج12، ص 53.

[73]- أحمد بن علي الرازي الجصاص، احكام القرآن، تحقيق: محمدالصادق قمحاوي، دارالتراث العربي، بيروت، 1405هـ، ج1، ص 200. علي بين سليمان المرداوي، الإنصاف، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص 179.منصوربن يونس البهوتي، الروض المربع، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض 1390هـ، ج1، ص 249. ابن تيمية، المرجع السابق، ج27، ص 338.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ثمة آيات ونصوص عديدة في القرآن الكريم تحدثت عن "فئة"، و"طائفة" و"فريق" و"كثير" وهي مصطلحات تدل بوضوح على عدم وجود نمطية إزاء المخالف منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[74] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[75]. وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[76]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[77]. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[78]. وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[79].

وفي الصفات السلبية المذكورة في القرآن عن المخالفين من اليهود والنصارى، جاءت النصوص في غاية التخصيص والدقة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[80]. وقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[81].

كل هذه النصوص جاءت تأكيدا لنفي النمطية عن العلاقة بالمخالف في المعتقد. فالمخالف ليس جنسا واحدا وإن كثر فيه السوء أحيانا في زمن ما أو بيئة معينة.

[74]- سورة المائدة: 65.
[75]- سورة البقرة: 78.
[76]- سورة آل عمران: 75.
[77]- سورة ال عمران: 113.
[78]- سورة آل عمران: 199.
[79]- سورة الأعراف: 159.
[80]- سورة آل عمران: 78.
[81]- سورة آل عمران: 69.

والقرآن الكريم بهذا النهج يعلّم المسلمين خطورة الوقوع في النظرة النمطية التي تقوم على أساس التعميم والإطلاق والنظر إلى الأمم والشعوب على أنها شريحة واحدة دون تمييز أو تفرقة بين الأفراد والأشخاص، وهو أمر في غاية الإنصاف والعدل الذي باتت تفتقده أكثر الأنظمة العالمية ادعاء للمساواة والعدالة.

وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة خطورة التنميط ودوره في توجيه الإدراك والعمليات المعرفية المنبثقة عنه، فإن تأثيره في توجيه تفاعل الفرد مع الآخرين وسلوكه تجاههم أكثر وضوحاً وأشد خطراً. فكثير ما يعتمد الفرد على صورة النمطية كأطر معرفية توجه سلوكه وتفاعله مع الآخرين فيسلك تجاههم على نحو يتسق مع هذه الصور وينسجم مع محتواها[82] دون تفرقة أو تمييز بينهم.

كما أن أصل التصنيف والتمييز في المجتمع المسلم إلى مسلمين وغير مسلمين، يعود لما يترتب عليه من أدوار ووظائف وحقوق وواجبات لكل فئة في الدولة الاسلامية.

من هنالم تكن نظرة الاسلام مع المختلفين في الدين واحدة فمنهم الكافر. و لفظة الكفر لم تأت في القرآن تعبيراً عن محض مخالفة بل جاءت تعبيراً عن دلالات أخلاقية وقيّمية وموقف اجتماعي أخلاقي قبل كل شيء.

والكفر في اللغة: ستر الشيء ووصف الليل بالكافر لستره الأشياء بالظلام، والزرّاع لستره البذر في الأرض وليس ذلك باسم لهما. وكذا البحر والوادي العظيم والنهر الكبير والسحاب المظلم والزرع. والكفر ضد الإيمان لأن المتصف به يستر الحق والكفر ضد الشكر لأن كافر النعمة يسترها بترك أداء شكرها[83].

فلفظة الكافر في القرآن الكريم لا تنصرف إلى مجرد الذات المغايرة في الرأي أو المخالفة في المعتقد، مهما كانت هذه المغايرة أو المخالفة عميقة. **فليس ثمة ترادف أبداً ما بين مفهوم**

[82] -John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce, American Psychologist, vol. 35, no. 10(October 1980), pp. 867-881.

[83]- ابن منظور، مرجع سابق، ج2، 306. الفيومي، مرجع سابق، ج2، ص 734. الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص 435.

الكافر كما هو في المنظومة القيمية والعقدية وبين مدلول غير المسلم ، وذلك لأن كل كافر لابد وأن يكون غير مسلم ، ولكن العكس غير صحيح.

فالكفر في الاستعمال القرآني هو الجحود في الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكافر هو من امتنع عن الإقرار بهذا الدين جحوداً واستكباراً وإعراضاً أو إهمالاً مع وضوح الدلائل والبراهين أمامه. وليس من امتنع عن هذا الإقرار بدافع الجهل والالتباس ونحوه. والذي يؤكد ذلك المعنى، دلالات السياق القرآني التي جاءت تؤكد أن من يصح وصفه بالكفر، من قام بكتمان الحق وستره وتغطيته.

أما المشرك فالشرك في اللغة: مأخوذ من أشرك فيقال أشركه في أمره أدخله فيه وأشرك بالله جعل له شريكا في ملكه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً والاسم الشرك[84].

أما الصنف الآخر من غير المسلمين فهم أهل الكتاب وهم أصحاب الديانات الذين نزلت فيهم كتب سماوية. فالكتّابي هو كل من يعتقد ديناً سماوياً أي منّزلا كاليهود والنصارى. وقد اتفق العلماء على إطلاق أهل الكتاب على اليهود والنصارى لأن الله تعالى ذكرهم في القرآن الكريم بهذه التسمية[85].

أما أهل الكتب الأخرى مثل صحف إبراهيم والزبور المنزّل على داود عليه السلام فقد اختلف الفقهاء في اعتبارهم من أهل الكتاب. فقال الحنفية والشافعية هم من أهل الكتاب وتشملهم أحكام أهل الكتاب. لأنهم أصحاب كتب منزلة من السماء على الأنبياء ونصّ عليها القرآن الكريم. ويرى الحنابلة أن أهل الكتاب ينحصرون في اليهود والنصارى باعتبار أن تلك الصحف لم تكن شرائع بل مواعظ فقط فليس لها حرمة الأحكام. وهو قول عند الشافعية كذلك[86].

84- ابن منظور، مرجع سابق، ج2، ص 306. القيومي، مرجع سابق، ج1ن ص 423. الأصفهاني، مرجع سابق، ص 259.

85- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مجد الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ج6، ص 259.

86- محمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج4، 244. ابن قدامة المقدسي، المغني، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج9، 333. منصور بن يونس البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: هلال مصيلحي، دا رالفكر، بيروت، 1402هـ، ج3، 109.

والواقع أن المسلمين لم يتعاملوا مع طائفة من هذا الصنف، وعلى هذا يبقى الاصطلاح الشرعي محصورا في أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى دون غيرهم. كما بقي الخلاف بين الفقهاء في تحديد مفهوم أهل الكتاب خلاف نظري فقط.

وذهب العلماء إلى أن هذه الأصناف الأخرى يقاسون على أحكام أهل الكتاب الشرعية إلا فيما يتعلق بذبائحهم والزواج من نسائهم. روي أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ فَقَالَ مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ سنّوا بهم سنة أهل الكتاب[87].

ويستخدم الفقهاء في كثير من الأحيان اصطلاح أهل الذمة وهم المعاهدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم الذي أُعطوا عهداً يأمنون فيه على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ودينهم. وسمّوا ذميّين لأنهم أقاموا مع المسلمين على أساس العهد ولهم ذمة أي عهد وأمان. فهم يتمتعون بالحماية الكافية لأنفسهم وأموالهم ويلتزمون بأحكام الإسلام المتعلقة بالأمن والنظام في ديار المسلمين كالمعاملات ونحوها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إلا فيما يتعلق بدينهم وعقيدتهم فإنهم يقرون عليها[88].

وثمة صنف أخر منهم وهم المستأمنون وهم الحربيون الذين دخلوا ديار المسلمين بعقد أمان مؤقت بغرض الزيارة أو التجارة أو المرور فلهم ما للذميين من حماية وصيانة لأنفسهم وأموالهم[89].

وعقد الذمة هو العقد الذي يتم بين السلطة الاسلامية وغير المسلمين، يكتسب بموجبه هؤلاء حق الأمان الدائم في الدولة الاسلامية ويتولى المسلمون حمايتهم والدفاع عنهم مقابل ضريبة شخصية يدفعونها تسمى الجزية[90].

87- مالك بن أنس الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، بدون تاريخ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس، ج1، ص 278، حديث: 544.

88- بتصرف عن علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م، ج9، 433. الشربيني، مغني المحتاج، ج4، 243. ابن قدامة، مرجع سابق، ج9، 337.

89- للمزيد حول تعاريف الفقهاء لهذه المصطلحات راجع: محمد بن الحسن، السير الكبير، مطبعة مصر، 1957م، ج1، ص 284. البعلي، المطلع على أبواب المقنع، المكتب الاسلامي، بيروت، 1985م، ص 226. الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ج4، ص 576.

ويُعد عقد الذمة هذا من أرقى وسائل الدعوة إلى الإسلام في بلاد المسلمين من خلال استقطاب غير المسلمين وتعريفهم بمبادئ الإسلام وتعاليمه من خلال المعاملة اليومية والاحتكاك المباشر في المجتمع، ولا يراد به تحصيل المال.

وقد تفطن إلى تلك الحكمة الراقية وذلك المقصد التشريعي العظيم بعض الفقهاء. يقول الكاساني[91] في ذلك:" إن أهل الذمة إنما تركوا بالذمة وقبول الجزية لا لرغبة فيما يؤخذ منهم أو طمع في ذلك بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها، فيجدوها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله فيدعوهم ذلك إلى الاسلام فيرغبون فيه، فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام"[92].

وعلى هذا اختلفت أساليب الحوار مع تلك الفئات المخالفة، كما تباينت طرائق الخطاب ومحتوياته ووسائله، وهو أمر ينبغي أن تتوجه الأنظار إليه في طرح الحوار اليوم.

فلا يُعمم أسلوب معين – كما ستقف على ذلك الدراسة- على مختلف المخاطبين دون تمييز أو تفرقة في أهمية السياق الذي ورد فيه الحوار القرآني أو الوارد في السنة النبوية وحال المخاطبين به.

---

[90]- محمد ضياء الحق، أحكام المعاهدات الدولية في الشريعةالاسلامية والقانون الدولي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الامارات العربية المتحدة، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون، يوليو/ تموز 2004م، ص 45.

[91]- أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء علاء الدين الحنفي مصنف البدائع. فى سنة سبع وثمانين وخمس مائة وتولى التدريس بالحلاوية. انظر ترجمته في: أبو عبد القادر بن أبي الوقاء، طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه، كراتشي، بدون تاريخ، ج1، ص 246.

[92]- الكاساني، مرجع سابق، ج9، 4330

الباب الأول: الأسس التي يقوم عليها الحوار مع المخالف

ثمة أسس ينبغي الوقوف عليها واستحضارها عند الحديث عن الحوار مع المخالف مطلقا. وبعض هذه الأسس لا تختلف عند الحديث عن المخالف في المعتقد أو المخالف المسلم، والبعض الآخر ينبغي مراعاته عند الحديث عن المخالف المسلم بوجه خاص كما سيأتي بيانه في هذا الفصل.

فالحوار الذي يشكل قيمة كبرى من القيّم التي جاء بها الإسلام، تناولته نصوص القرآن والسنة كلون من ألوان الخطاب العام التكليفي الذي يتجه إلى وشيجة الإخاء الإنساني. فالبشرية في عمومها أسرة واحدة ترجع في أصل خلقتها ونشأتها إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام أبو البشر. وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في مفتتح سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾.

من هنا جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية التي تمثل المرجعية المطلقة لتحديد إحداثيات الحوار وشروطه وما يتعلق به مكرّسة تلك الحقيقة داعية الإنسانية إلى إحياء الشعور بالتعاطف الأخوي الإنساني، مؤكدة وشائج الترابط النسبي بين أفراد الإنسانية في شتى الأزمنة والعصور بما يدعم ذلك الترابط والتعاون المسوق إلى تبادل المنافع والخير وتحقيق المحبة والوئام للبشرية أجمع.

وعليه فجميع الأسس التي قامت قيّم الحوار عليها مع المخالفين، لم تفرّق بين مسلم وغيره في الجذور، والدراسة سارت على عدم التفرقة والتمييز إلا فيما يتعلق ببعض الخصوصية الناجمة عن الأخوة الإسلامية ومتعلقاتها وما يترتب عليها، فأفردتها في مواضعها.

الباب الأول

الأسس التي يقوم عليها الحوار مع المخالف

الفصل الأول: أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر

أولا: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف

ثانيا: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي

ثالثا: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين

رابعا: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف

الفصل الثاني: أساس التعايش السلمي

أولا: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر

ثانيا: تحقيق الاجتماع والالفة والاعتصام بحبل الله بين المسلمين

الفصل الثالث: أساس اتباع الحق والعدل

أولا: الإنصاف مع المخالف مطلقا

ثانيا: حرمة عرض المسلم

ثالثا: مقتضيات العدل مع المخالف

الفصل الأول: أساس الاعتراف بظاهرة التنوع وفقه الاختلاف بين البشر

أولا: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف

قرر الاسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية، وتعامل معها على هذا الأساس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[93]. فالإنسانية واحدة وقد خُلقت من نفس واحدة. وهذه الوحدة ليست وحدة في الأصل فحسب بل في الهدف كذلك وهو التعارف.

وتقوم هذه الوحدة على الاختلاف والتنوع، وليس على التماثل و التطابق. وإظهار الوحدة في التنوع ودعوة الناس إلى التعارف هو غاية هذا الاختلاف. ذلك أن الاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[94]. واختلاف الألسن واللغات المشار إليه في الآية لا يعني اختلاف اللهجات كوسائل للتخاطب والتفاهم والحوار فحسب، بل ينصرف إلى ما تتضمنه تلك اللغات والاختلاف في اللهجات من معاني وأفكار وتصورات.

فقد خلق الله الناس مختلفين إثنياً واجتماعياً وثقافياً ولغوياً، ولكنهم في الأساس "أمة واحدة" كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[95]. أي أن **اختلافاتهم على تعددها لا تلغي الوحدة الإنسانية فيما بينهم**. من هنا كان الاختلاف الفكري بين بني الإنسان قديما قِدم الإنسان في هذه الأرض، ابتدأ معه حيث ابتدأ ينظر إلى الكون فيشده بعظمته وتأخذه الحيرة في إدراك كنهه وحقيقته[96].

[93]- سورة الحجرات: 13.
[94]- سورة الروم: 22.
[95]- سورة يونس: 19.
[96]- محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص 7.

جاء في أبجد العلوم: "كما أن الموت أمر طبيعي لحياة البشر باعتبار الطبيعة الخاصة والعامة معا، فالخاصة تقتضيه لقيامها بالحرارة والرطوبة والعامة لإيفاء العناية الأزلية مقتضى الطبائع الكلية من العناصر والأفلاك والبسائط تقتضي انحلال المركبات والأوضاع السماوية تنتهي إلى القواطع، فكذلك الاختلاف طبيعي لعقول البشر باعتبار الطبيعة الخاصة والعامة معا وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. أما الخاصة فلوجود القوة الحاكمة منهم ومخالفة ما أحاط مدركة أحدهم لمدركة الآخر. وأما العامة فلأن صانع العالم جلّ مجده لما أراد انتظام النشأتين وتعمير الدارين بإبداء آثار الجمال والجلال فيهما وناط بحسب تلك العناية المساعي والدرجات بالاعتقادات وجب اختلافها فما التطبيق إلا بحسب العلم والفهم لا بإزالة الخصومات من بين الناس"[97].

بل إن البطليوسي[98] رحمه الله عدّ الاختلاف دليلاً وعلامة على وقوع البعث والجزاء فالدنيا لا يمكن أن تخلو من الاختلاف، وهذا دليل على ضرورة البعث، الذي يفصل فيه الله عز وجل بين المختلفين. يقول البطليوسي في ذلك :" إذا كان الاختلاف مركوزا في فطرنا مطبوعا في خلقنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ونقلنا إلى هذه الجبلة، صحّ ضرورة أن لنا حياة غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والأحقاد وهذه هي الحال التي وعدنا الله تعالى بالمصير اليها فقال تعالى: ﴿وَنَزَعنَّا مَاَ فِي صُدُورِهم مِنْ غِلِ إخوَانا عَلى سُرر مُتقَابلين﴾"[99].

فالإنسان بطبيعته السوية ذو استعداد وقابلية للتنوع والتغير المتواصل، الأمر الذي نجم عنه أشكال الحياة وتباين صور فهمها وطبيعة نظرتها إلى الكون والوجود، فالتنّوع والتعدد والاختلاف حياة الإنسانية وهو سرّ ارتقائها واستمراريتها.

ومع حتمية التنوع تكويناً وفطرةً، لابد من التأكيد أن هذا التنوع لا يعني بالضرورة التنافر المطلق أو التضاد المؤدي إلى نفي الطرف الآخر وإلغاء وجوده. وإنما يعني ضرورة الاعتراف

97- القنوجي، مرجع سابق، ج1، ص 404.

98- أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي صاحب التصانيف. له التنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين المسلمين والخلاف الواقع بين الملة الحنفية. مات في رجب سنة إحدى وعشرين وخمس مئة. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج 19، ص 532.

99- عبد الله بن محمد البطليوسي، الإنصاف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ، ج1، ص 27.

والإيمان بالتعدد والتنوع لتحقيق التفاعل بين أشكال متنوعة من الصور والأفكار. فالتباين والاختلاف والتنوع ليست عوامل هدم بل هي في الحقيقة عوامل تحفيز فكري واستنفار ذهني تقوم على ركائزه حركة الحياة الإنسانية المتفاعلة.

ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التفاعل أن تتلاقى الأفكار أوتتنازع وقد تتصارع كذلك، ومن هنا ينشأ الحوار والنقاش والجدال لعرض تلك الأفكار وطرحها. ولا يمكن أن يخلو بشر من الحاجة إلى تلك الأولويات الذهنية في طرح أفكاره والتصريح بتصوراته بقطع النظر عن طبيعة تلك الأفكار أو كيفية عرضه لها [100].

فإثارة الأفكار وتبادلها ومناقشتها موافقة أو مخالفة، أمر مرتكز في الفطرة الإنسانية. من هنا كان البيان والإفصاح عن ذلك كله من أخصّ المواصفات الإنسانية التي تميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. وعلى هذا تظهر تلك النزعة الفطرية في مراحل مبكرة عند الإنسان تصل أحيانا إلى مرحلة الطفولة والصبا.

يقول الإمام نجم الدين الطوفي[101] في ذلك:" نرى العامة بل الصبيان تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي من إيراد الاستفسار.."[102].

<u>فالحوار يتطلب أولاً وقبل كل شيء الاعتراف بحتمية وجود الاختلاف بمعنى التنوع في الحياة الإنسانية المطلقة. الأمر الذي يترتب عليه مبدأ الاعتراف بوجود الآخر وأحقيته في الوجود كما أن للفرد أحقيته في الوجود.</u>

واحترام حقه ليس في تبني رأي أو موقف أو اجتهاد مختلف فحسب، بل احترام حقه في الدفاع عن هذا الرأي أو الموقف، ثم واجبه في تحمل مسؤولية ما هو مقتنع به. وهذا كله يعني احترام الآخر والانفتاح عليه والتكامل معه، وليس تجاهله أو الغاؤه و تذويبه.

---

[100]- زاهر عوض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، بدون تاريخ، ص 27.

[101]- نجم الدين سليمان بن عبد القوى الطوفي الحنبلي. ولد بطوفى في العراق.صنف في علم معرفة جدل القرآن. له العديد من المصنفات منها الإكسير في قواعد التفسير، شرح مختصر الروضة في الأصول ، توفي سنة 710هـ. أنظر ترجمته في: العسقلاني، الدرر الكامنة، مرجع سابق،ج2، 295.

[102]- نجم الدين الطوفي، مرجع سابق، ص 209.

وقد أكد هذه الحقيقة علماء النفس والاجتماع في دراساتهم حول الشخصية الإنسانية أن الإنسان كائن اجتماعي من الضروري أن يرتبط بالآخرين برباط من التقبل حيث لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الآخرين، فهو نتاج التفاعلات الاجتماعية وعليه الانشغال بمثل تلك الأنشطة الإيجابية ليحيا حياة اجتماعية سوية[103].

ثانيا: شواهد الإقرار بالاختلاف والاعتراف بالمخالف في نصوص الوحي

لم يضق الإسلام بالتنوع والاختلاف، بل اعتبره وأقرّ وجوده كحقيقة واقعة بين البشر. وجاء ذلك الأساس في آيات ونصوص قرآنية عدة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[104].

جاء في تفسيرها أي لجعلهم مسلمين كلهم. وقوله: ﴿ ولا يزالون مختلفين﴾ فالاختلاف الذي وصف الله الناس أنهم لا يزالون به هو الاختلاف في الأديان كما قال البعض بمعنى ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ونحو ذلك[105]. وجاء موقف القرآن والسنة من المخالفين في العقيدة منطلقا من مبدأ الاعتراف بهم، لا ك "آخر" بالمعنى الأوربي للكلمة، بل كأهل دين متساوون أمام الله. **فالاعتراف أولاً هو القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها الحوار، إذ لا حوار دون الاعتراف بوجود تنوع وتعدد آراء في مجتمع واحد وعالم واحد.**

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[106].

---

[103]- منيرة أحمد حلمي، ثلاث نظريات في تغير الاتجاهات، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977م، ص 12 وما بعدها.
[104]- سورة هود: 118.
[105]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج12، ص 141. وانظر كذلك أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401هـ، ج2، ص 466.
[106]- سورة البقرة:62.

من هنا جاءت أولى الوثائق الدستورية التي وضعها النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة معبرة عن معالم تعامل الدين الاسلامي مع المخالف في المعتقد، وهي صحيفة المدينة التي حددت أسس العلاقة بين المسلمين واليهود حيث جاء فيها:

" ويهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ..وأن بطانة يهود كأنفسهم إلا من ظلم وأثم. فإنه لا يوتغ(أي يهلك) إلا نفسه وأهل بيته...ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ...ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ..على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ..وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.."[107].

وقد التزم البعض من اليهود بادئ الأمر في الدفاع عن المدينة، وذكرّوا بعضهم البعض بما تضمنته الصحيفة فجاء على لسان مخيريق أحد أحبارهم:" يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا إن اليوم يوم سبت قال: لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء"[108].

وقد نظر الإسلام إلى الوفاء بالعهد على اعتبار أنه فضيلة إنسانية لا تختص بجنس او عقيدة أو جماعة فالعهد مع الكافر كحرمته مع المسلم وهو مع الأعداء كقداسته مع الموالين. فلا يحل عقدة الوفاء بالعهد إلا بسبب موجب من نحو خيانة أو غدر أو ممالاة عدو للإسلام والمسلمين. قال تعالى: ﴿وأَوفُوا بِالعَهدِ إنَّ العَهدَ كَاَنَ مَسئولاً﴾[109]. وقد امتثل المسلمون لهذا الأمر الإلهي فاعتبروا كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء به بمقتضى ذلك العهد والعقد.

---

[107]- محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت، 1990م، ص 15-21.

[108]- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411ه، ج3، ص 89. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون، ج4، ص 36. وقد ذكر الألباني رحمه الله أن هذه المعاهدة ذكرها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد وقد نقلها عنه ابن كثير ولم يزد عليه في تخريجه شيئا على خلاف عادته مما يدل على أنهخا ليست مشهورة عند أهل العلم والمعرفة بالسيرة والأسانيد فلا يحتج بها لأنها بدون إسناد وهي معضلة. أنظر: الألباني، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي وكتابه فقه السيرة، مكتبة الخافقين، دمشق، ص 25-26. إلا أن هذه المعاهدة وكتابة الصحيفة قد ثبتت بأحاديث صحيحة منها ما أورده أبو داود في سننه. وانظر في ذلك: حميد الله، مرجع سابق.

[109]- سورة الإسراء، الآية 34.

كما بلغ الاعتراف بالمخالف في السيرة النبوية، حداً مماثلاً عندما كتب النبي عليه الصلاة والسلام كتابا لوفد نجران الذين قدموا عليه ودخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجده فأراد الناس منعهم فقال رسول الله دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم[110]. فقد كتب لهم عهدا ولكل المتدينين بالنصرانية عبر الزمان والمكان جاء فيه:

" لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله وذمة مُحَمَّد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير..أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وصلواتهم ومواضع الرهبان، ومواطن السياح...وأن أحرس دينهم وملتهم أينما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم ..حتى يكونوا للمسلمين شركاء، فيما لهم وفيما عليهم .."[111].

وقد بلغت هذه الصحيفة في سطورها مثالاً تنظيرياً صدّقته الوقائع والحوادث على مدى التاريخ الإسلامي في الاعتراف بالمخالف في الدين والمعتقد. بل والقبول به وتكريمه وتمكينه من خصوصياته والاندماج معه، مالم تبلغه وثيقة أخرى عبر التاريخ الإنساني مع تميز يُضاف إليها من خلال التنوع والاختلاف المعترف به للمخالف في إطار وحدة الأمة وليس على أنقاض الدين وهو أمر لم تعرفه أروقة الوثائق الوضعية مطلقا[112].

ومعاهدات النبي صلىالله عليه وسلم ومواثيقه مع المخالفين من اليهود والمشركين كما جاء في صلح الحديبية وغيره كما سيأتي ذكره، دليل قاطع على إقراره الاعتراف بهم. وأن الأصل في طبيعة العلاقة معهم أن تقوم على الإنسانية والتعارف.

---

[110]- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشر، 1986م، ج3، ص 629.
[111]- محمد حميد الله ، مرجع سابق، ص 123- 128.
[112]- بتصرف عن محمد عمارة، في فقه الحضارة الاسلامية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2003م، ص 144-145.

فالإسلام خطاب مفتوح للعالم بأسره ينبذ العدوان. ويهدف إلى إيجاد حالة من التعاون على البر والخير بما يعود على المسلمين والبشرية بالخير والنفع. وكانت تلك المعاهدات تنص على التعاون بين الطرفين وحسن الجوار معهم وتحقيق المصالح للمتعاقدين لحماية المجتمعات وتحقيق الأمن والاستقرار وإشاعة السلام والعيش الكريم للإنسان مطلقا.

كما نجد في السيرة النبوية أمثلة حية وأقوالا تؤكد تبني منهج الحوار كطريق أمثل لطرح العقيدة الإسلامية الجديدة منذ بواكير الدعوة إلى الإسلام في مكة.

من هنا كانت محاورات النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين على اختلاف مواقفهم وتوجهاتهم إزاء الدعوة الإسلامية. ولم يتوقف الحوار بين الطرفين في أصعب الفترات وأكثر الفترات تأزما وتعقيدا. ولم يتخل النبي عليه الصلاة والسلام عن سلوك سبيل الحوار في أكثر المواقف قوة وانتصارا.

ومن ذلك مواقفه في فتح مكة التي عكست تبني الإسلام العميق لمبدأ الحوار مطلقا والاعتراف بوجود الآخر المختلف.

فقد روت كتب السيرة في فتح مكة أن بعض كفار قريش كانوا يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظا وكان من جملتهم أبو محذورة[113] وكان من أحسنهم صوتا. فلما رفع صوته بالأذان مستهزئا سمعه رسول الله ﷺ فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدره بيده الشريفة، قال أبو محذورة: فامتلأ قلبي والله إيمانا ويقينا فعلمت أنه رسول الله. فألقى عليه ﷺ الأذان وعلّمه إياه وأمره أن يؤذن لأهل مكة وكان ست عشرة سنة وعقبه بعده يتوراثون الأذان بمكة[114].

وهكذا كان نهج احتواء المخالف واللين معه سلوكاً نبوياً لم يزل ملازماً للنبي عليه الصلاة والسلام في أصعب المواقف وأكثرها إثارة للغضب من قِبل مخالفيه.

[113]- أبو محذورة الجمحي مؤذن المسجد الحرام وصاحب النبي ﷺ أوس بن معير بن لوذان ابن ربيعة بن سعد بن جمح وقيل اسمه سمير بن عمير بن لوذان بن وهب ابن سعد بن جمح وأمه خزاعية. كان من أندى الناس صوتا وأطيبه. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج 3، 117.

[114]- علي بن برهان الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، دار المعرفة، بيروت، 1400هـ، ج3، ص 56.

أما ما يظنه البعض تغيرا في المواقف من المخالف وإعلان البراءة منه والحض على عدم موالاته، فهو أمر لا ينبغي نزعه من سياق الأحداث والظروف التاريخية التي جاءت مقارنة له و تغيّر موقف المخالف ذاته من المسلمين وإعلانه العداء أو الغدر ونقض العهود والمواثيق.

فالنبي عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم. وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه. ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم. ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى وفق منهج لا يحيد عن الحق والإنصاف في التعامل كما سيأتي توضيحه في موضعه.

ولم تتغير المواقف مع المخالف عقيدة إلا ما كان من تغير موقف المخالف نفسه من الدولة الإسلامية لا باعتباره مجرد مخالف. ومن ذلك موقف الروم التي رأت آنذاك أن الإسلام لم يعد مجرد حركة داخل الجزيرة العربية، بل صار دولة تشكل خطرا يهدد مصالح الروم في المنطقة خاصة بعد فتح مكة. فبادرت إلى الاصطدام العسكري معه في غزوة مؤتة(8هـ) فقتل الروم رسول رسول الله ﷺ، الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام بكتابه إلى ملك الروم. فاشتد ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام فبعث البعوث وكانت غزوة مؤتة[115].

فهنا نرى تغيرا في طبيعة المخالف وموقفه أدى إلى تغير طبيعي في التعامل معه. فتغير الموقف إزاء المشركين من قريش الذين نقضوا معاهداتهم معه، **فالموقف من المخالف هنا ليس لمجرد مخالفته وغيريته عن المسلمين وإنما لموقفه العدائي الواضح تجاه الإسلام والمسلمين، وموقف المسلمين منه موقف ترعاه الدولة وتسوسه وليس أفراد المسلمين**.

[115]- الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق، ج3، ص 381.

وعلى هذا فإن جميع الآيات القرآنية التي جاءت في الإذن بالقتال، عللّت ذلك الإذن بإخراج الكافرين للمؤمنين من ديارهم وأهليهم كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[116].وعندما نزل الأمر بالقتال، جاءت مسألة إخراج المؤمنين سببا لقتالهم على اعتبار أنه كفار قريش هم الذي بدأوا العداوة والإخراج. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[117].وهكذا جعل القرآن الكريم الإخراج من الديار والفتنة المتمثلة في مصادرة حرية الناس واضطهادهم لإجل عقيدتهم، وإرغامهم على تغيير دينهم، جماع أسباب الجهاد القتالى في الإسلام.[118]

يقول ابن القيم[119] رحمه الله في ذلك:" ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يُكره أحدا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله وأما من مهادنه فلم يقاتله ما دام مقيما على هدنته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[120]".[121]

ثالثا: ضرورة فقه طبيعة الاختلاف بين المسلمين

عند الحديث عن المخالف المسلم فلا بد من الوقوف على طبيعة الاختلاف بين المسلمين أولا وكيفية فقهه والتعامل معه، ليتسنى من خلال ذلك الفهم وضع الضوابط والشروط الخاصة به.

فالاختلاف مطلقا سنّة من سنن الله في الحياة- كما سبق ذكره- وهو ضرورة كونية اجتماعية لا تستقيم الحياة بدونها. ووقوع الاختلاف بين الناس(سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين) أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادات الناس وأفهامهم وقوى إدراكهم. ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين

---

[116]- سورة الحج: 39.
[117]- سورة البقرة:190.
[118]- محمد عمارة، مرجع سابق، ص 122-123.
[119]- محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي من كبار العلماء. ولد في دمشق عام 691هـ، تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية وتوفي في دمشق عام 751هـ. ترك مصنفات كثيرة منها: اعلام الموقعين عن رب العالمين. وإغاثة اللهفان...انظر ترجمته في: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، 1393هـ، ج1، ص 68.
[120]- سورة التوبة:7.
[121]- محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، بدون، ص 71.

والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية.

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك:" إذا كان الأصل واحداً والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة؛ لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافاً لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله ﷺ، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة"[122].

بِيد أن الكثير من المسلمين - خاصة في العصر الحاضر- لم يقفوا على مفاهيم هذا المصطلح وما يمكن أن يندرج تحته. وعلى هذا أفاض بعضهم في ذمّ الاختلاف مطلقا واعتبروه مدعاة لتفرق الأمة وتشرذمها إلى فرق وجماعات متناحرة. وهو أمر وقع فيه كثير من الخلط واللبس مردّه في الغالب عدم الدقة في استعمال المصطلحات ومعرفة دلالاتها.

فقد يطلق البعض مصطلح الاختلاف ويريد به الاختلاف المذموم بالتحديد ويسوق الأدلة والشواهد على ذمّه والتحذير منه. وقد يطلق البعض مصطلح الاختلاف ويريد به الاختلاف المحمود. فيذكر أقوال الأئمة ومآثرهم وأقوالهم في آثاره الإيجابية وإثرائه للفكر الاسلامي...

وهكذا يقع الالتباس منذ البداية نتيجة لغياب الرؤية الواضحة المحددة لمفهوم الاختلاف والمراد به.

ومن خلال تأمل أقوال العلماء في ذلك يمكننا القول بأن الاختلاف بين المسلمين، منه ما هو محمود مباح ومنه ما هو مذموم منهي عنه. فالمحمود المباح منه ما كان **نتيجة للاجتهاد المنضبط بجميع مستوياته، غير نابع عن هوى أو تعصب، لا يسوق إلى الفرقة والتنازع والتناحر والبغضاء المناقضة لأصل الاجتماع والألفة بين المسلمين.**

ووجه إباحة هذا النوع من الاختلاف، نابع من واقعية الإسلام فالله عزّ وجل قد وهب لعباده عقولا وقدرات متباينة في الفهم والحفظ والاطلاع من شأنها أن تؤدي الى اختلاف في وجهات نظرتهم وفهمهم للأمور ومواقفهم من القضايا المختلفة وهو أمر طبيعي.

---

[122] - ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، 1418هـ/ 1998م، ج2، ص519.

وعلى هذا اتسع الاسلام ليحتوي تلك الاختلافات الناجمة عن تباين العقول والأفهام وتشعب الخواطر والآراء..والقدرات العقلية على تفسير وفهم النصوص وغير ذلك، التي لا تهدد وحدة الأمة بحال طالما أن الآراء متفقة إزاء القواعد الأساسية وهي جملة الأمور القطعية الثبوت القطعية الدلالة وكل معلوم من الدين بالضرورة مما لا يحتمل إلا رأيا واحداً[123].

ومن ذلك المسائل الفرعية التي هي محل اجتهاد ونظر واختلاف، **طالما أن لهذا الاختلاف ضوابطه وحدوده، وقواعده وآدابه الكفيلة بالحفاظ على وحدة الأمة وفكرها واجتماع كلمتها**[124].

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي وقع في سلف الأمة وبين الأئمة المجتهدين. وقد أجمعت جماهير المسلمين على مرّ العصور على قبول تعدد آراء الأئمة المجتهدين، فتعددت مدارس المفسرين والمحدثين والأصوليين والفقهاء، بل تعددت مدارس النحاة والأدباء والمؤرخين وغيرهم. وكل هذا مما يمكن أن نطلق عليه الاختلاف المباح[125].

بل إن هذا النوع من الاختلاف كان مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامي وظاهرة إيجابية أثرت الفكر والحضارة. فهو رياضة للأذهان وتلاقح للأفكار والرؤى وفتح مجالات التفكير للوصول الى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول اليها في المسائل المعروضة أمامها. ومما تجدر الإشارة إليه أن من أهم عوامل إيجابية هذا النوع من الاختلاف، التزام الأطراف المختلفة بأدب الاختلاف والحوار فيما بينها الأمر الذي حال دون تحول تلك الظاهرة الإيجابية إلى سلبيات يئن تحت وطأتها الفكر الإسلامي.

و ما دام هذا النوع ليس منهياً عنه ابتداء – من حيث هو اجتهاد- فإنه لا بد أن يترتب عليه اختلاف في وجهات النظر بين المجتهدين. وإذا كان الاختلاف مترتباً لا محالة على هذا النوع من الاجتهاد، والشأن فيه أنه مشروع، فلا يمكن عقلاً ولا شرعاً أن يكون ما يترتب عليه من تعدد وتنوع في الآراء مذموماً أو منهيا عنه وممقوتاً.

والاجتهاد الذي يترتب عليه مثل هذا الاختلاف المشروع، إنما يقع في الأحكام الشرعية في

---

[123]- بتصرف عن أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج2، ص 308.

[124]- بتصرف عن طه جابرالعلواني، مرجع سابق.

[125]- عبد الله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1988م، ج1، ص 101.

موضعين اثنين:

الأول: في المسائل التي لم يرد نص بشأنها، بل سكت عنها الشارع وتركها ليتوصل المجتهدون إلى حكمها بواسطة أصول الشرع، وقواعده الكلية، متحرِّين المصلحة في ذلك.

الثاني: المسائل التي وردت بشأنها أدلة ظنية، سواء أكانت ظنية الثبوت، أو ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت والدلالة معاً، وهذه يتوصل إلى الحكم فيها عن طريق الموازنة بين هذه الأدلة سنداً ومتناً بواسطة قواعد تفسير النصوص، والتعارض والترجيح المعروفة وغيرها من القواعد المشابهة في علم أصول الفقه.

يقول الجصاص[126] رحمه الله في هذا النوع من الاختلاف:" لو كان جميع الاختلاف مذموما لوجب أن لا يجوز ورود الاختلاف في أحكام الشرع من طريق النص والتوقيف فما جاز مثله في النص جاز في الاجتهاد. قد يختلف المجتهدان في نفقات الزوجات وقيم المختلفات وأروش كثير من الجنايات فلا يلحق واحدا منهما لوم ولا تعنيف، وهذا حكم مسائل الاجتهاد. ولو كان هذا الضرب من الاختلاف مذموما لكان للصحابة في ذلك الحظ الأوفر ولما وجدناهم مختلفين في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متواصلون يسوغ كل واحد منهم لصاحبه مخالفته لوم ولا تعنيف فقد حصل منهم الإتفاق على تسويغ هذا الضرب من الاختلاف"[127].

ويقول الدهلوي[128] رحمه الله في ذلك:" إن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق وتكبيرات العيدين ونكاح المحرم وتشهدّ ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسملة وبآمين والإشفاع والإيتار والإقامة ونحو ذلك إنما هو في ترجيح أحد القولين وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية وإنما كان خلافهم في أولى الأمرين. ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءة وقد عللّوا كثيرا من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون، وأنهم جميعا على الهدى. ولذلك لم يزل

---

[126]- أحمد بن علي أبو بكر الرازي الإمام الكبير الشان المعروف بالجصاص وهو لقب له، مولده سنة خمس وثلاث مائة سكن بغداد وعنه أخذ فقهاؤها. وله من المصنفات أحكام القرآن وشرح مختصر شيخه أبى الحسن الكرخي وشرح مختصر الطحاوي وشرح الجامع لمحمد بن الحسن وشرح الأسماء الحسنى وله كتاب مفيد فى أصول الفقه وله جوابات عن مسائل وردت عليه قال ابن النجار توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة سبعين وثلاث مائة. انظر ترجمته في: عبد القادر بن أبي الوفاء، مرجع سابق، ج1، ص 84-85.

[127]- أبو بكر أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ، ج2، ص 314.

[128]- الشاه ولي الله المحدث الدهلوي من علماء الهند، كانت وفاته في سنة 1176 الهجرية وله مؤلفات جليلة ممتعة يجل تعدادها منها فتح الرحمن في ترجمة القرآن والفوز الكبير في اصول التفسير والمسوى والمصفى في شروح الموطأ والقول الجميل والخير الكثير والانتباه والدر الثمين وكتاب حجة الله البالغة. راجع ترجمته في: القنوجي، أبجد العلوم، ج3، ص241-243

العلماء يجوّزون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ويسلمون قضاء القضاة ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم.."[129].

فالاختلاف الحاصل في تأويل بعض الآيات الظنية الدلالة المنضبط بشروط حددها العلماء في كتبهم من موافقة اللغة والسياق وعدم معارضته للاصول الثابتة في القرآن الكريم والسنة ..أمر متوقع حصوله. ولو شاء الله عز وجل أن ينزّل القرآن الكريم مفسراً متفقاً على تأويله كما اتفق على تنزيله، لفعل سبحانه. فالله سبحانه جعل ذلك كنوع من الاختبار والابتلاء للبشر ليُعرف الحازم من العاجز والجاهل من العالم وعلى هذا بنيت الدنيا.

وقد جاءت نصوص وأقوال عدة، تضع مبادىء وأصولا للاختلاف المحمود ترتقي به في كثير من الأحيان إلى درجة الوجوب العملي. والتجربة الإسلامية على المستويين المعرفي والواقعي تؤكد أن الاختلاف المحمود المنضبط بآداب حسن النية والقصد وبغية التوصل إلى الصواب والبعد عن التناحر والتحزب والتعصب، كان دعامة من دعائم الوجود الإسلامي على مرّ العصور. وما الحضارة الإسلامية المشرقة إلا من نتاج ذلك التعدد والتنوع الراقي.

وما ظهر من كتب ومؤلفات في علم الخلاف الهادف إلى تأييد المذاهب بإيراد الحجج والبراهين لأقوالهم وبيان القواعد والأصول التي اعتمدوا عليها في الاجتهاد والاستنباط وردّ الشبه التي تثار عليه وإيقاعها على المذهب المخالف[130]، يندرج تحت هذا النوع من الاختلاف.

وللعلماء مؤلفات كثيرة في هذا العلم ظهرت منذ القرن الثاني الهجري. ومن ذلك: اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري[131]، اختلاف العلماء لأبي جعفر الطحاوي[132]، تأسيس النظر

---

[129]- الدهلوي، حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج1. ص125.

[130]- محمد الزحيلي، الامام الجويني، دار القلم، دمشق، 1986م، ص 185.

[131]- محمد بن جرير الطبري، من كبار المفسرين والمؤرخين ولد بآمل في طبرستان عام 224هـ واستوطن بغداد واختار لنفسه مذهبا في الفقه وتوفي في بغداد عام 310هـ. من تصانيفه تاريخ الأمم والملوك، جامع البيان في تأويل القرآن. انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء، مرجع سابق، ص 102.

[132]- أحمد بن محمد بن سلامة الحجري الطحاوي. فقيه ومجتهد ومؤرخ ولد سنة 229هـ وتوفي في مصر عام 321هـ. من تصانيفه أحكام القرآن، مشكل الآثار، المختصر في الفقه. انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء، المرجع السابق، ص 148. الذهبي، مرجع سابق، ج15، ص 27.

لأبي زيد الدبوسي[133]، الأساليب في الخلافيات لإمام الحرمين[134]، رحمة الأمة في اختلاف الأئمة للدمشقي[135] وغير ذلك.

فهذا الضرب من الاختلاف لا يزيل الألفة ولا يوجب الوحشة ولا يوجب البراءة ولا يقطع موافقة الإسلام فهو مباح محمود. فالخلاف الذي نهي عنه وحذر منه الهلاك هو التعادي فأما الاختلاف بغير تعاد فقد أقرهم عليه ..فالمحذر منه التباغض والتعادي والتكاذب المؤدي إلى فساد ذات البين وضعف الإسلام وظهور أعدائه على أهله، والمحسّن هو عمل كل أحد بما علم مع عدم المعاداة لمخالفه والطعن عليه وعلى ذلك درج السلف الصالح من أهل البيت والصحابة والتابعين[136].

كما يندرج تحته أيضا، الاختلاف الواقع فى النوازل التى عدمت فيها النصوص فى الفروع وغمضت فيها الأدلة، فيرجع فى معرفة أحكامها إلى الاجتهاد. ويشبه أن يكون إنما غمضت أدلتها وصعب الوصول إلى عين المراد منها، امتحانا من الله سبحانه وتعالى لعباده لتفاضل في درجات العلم ومراتب الكرامة. فقد أراد الله عزّ وجلّ أن يكون في أحكامه المنصوص عليه والمسكوت عنه، وأن يكون في المنصوص عليه المحكمات والمتشابهات والقطعيات والظنيات والصريح والمؤول لتعمل العقول في الاجتهاد والاستنباط فيما يقبل الاجتهاد والاستنباط وتسلّم فيما لا يقبل ذلك، إيمانا بالغيب وتصديقا بالحق وبهذا يتحقق الابتلاء الذي بنى الله عليه خلق الإنسان: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[137]. [138]

---

[133]- عبد الله بن عمر بن عيسى كان فقيها باحثا وكان مضربا للمثل في النظر واستخراج الحجج من أكابر فقهاء الحنفية. وله مناظرات عدة توفي ببخارى عام 430هـ. من تصانيفه: تأسيس النظر، تقويم الأدلة في تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع. أنظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج17، ص 521.

[134]- عبد الملك بن يوسف بن عبد الله الجويني يلقب بإمام الحرمين. ولد عام 419هـ في نيسابور ورحل في طلب العلم كثيرا وتوفي سنة 478هـ. ترك العديد من المؤلفات منها: البرهان في أصول الفقه، الكافية في الجدل، الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد. أنظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج18، 468.

[135]- محمد بن عبد الرحمن بن الحسين، فقيه شافعي من أهل دمشق كان قاضي قضاة المملكة الصفدية. توفي سنة 780هـ. من مؤلفاته: تاريخ صفد، طبقات الشافعية الكبرى. أنظر ترجمته في: كشف الظنون، 836.

[136]- ابن الوزير، إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 375.

[137]- سورة الإنسان: 2.

[138]- بتصرف بسيط عن: يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق، 2001م، ص 42.

وعلى هذا يتأول ما ورد فى بعض الأخبار اختلاف أمتي رحمة[139] فعلى هذا النوع يحمل هذا اللفظ دون النوع الآخر فيكون لفظ الاختلاف هنا لفظا عاما[140].

وقد جاء في تأويل معنى الرحمة المذكورة في هذا الضرب من الاختلاف أن الله قد نفع بإختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأي أنه في سعة ورأى أن خيرا منه قد عمله وعنه أيضا أي ذلك أخذت به لم يكن فى نفسك منه شيء ومثل معناه مروي عن عمر بن عبد العزيز قال ما يسرني أن لي بإختلافهم حمر النعم. قال القاسم لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز ما أحب أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً، كان الناس في ضيق. وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ بقول رجل منهم كان في سعة وقال بمثل ذلك جماعة من العلماء[141].

ويرى العلماء أن الاختلاف المحمود يرجع في الحقيقة إلى وفاق، يقول الشاطبي[142] رحمه الله في ذلك: "فإن الاختلاف في بعض المسائل الفقهية راجع إما إلى دورانها بين طرفين واضحين يتعارضان في أنظار المجتهدين، وإما إلى خفاء بعض الأدلة، أو إلى عدم الاطلاع على الدليل. وهذا الثاني ليس في الحقيقة خلافاً.... فهم في الحقيقة متفقون لا مختلفون. ومن هنا يظهر وجه التحابِّ والتآلف بين المختلفين في مسائل الاجتهاد، لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، فلم يصيروا شيعاً، ولا تفرقوا فرقاً"[143].

وثناء العلماء على هذا النوع من الاختلاف يعود إلى حقيقة اتفاق المختلفين في مراعاتهم قصد الشارع وطلبهم لمراده، واتباعهم الدليل الذي ظهر منهم. بمعنى الاختلاف المنضبط بضوابط وأصول معروفة.

---

[139]- ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم حيث قال:" قال الخطابي وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال اختلاف أمتي رحمة فاستصوب عمر ما قاله قال وقد اعترض على حديث اختلاف أمتي رحمة رجلان أحدهما مغموض عليه في دينه وهو عمرو بن بحر الجاحظ والآخر معروف بالسخف والخلاعة وهو أسحق بن ابراهيم الموصلي فإنه لما وضع كتابه في الأغاني وأمكن في تلك الأباطيل لم يرض بما تزود من اثمها حتى صدر كتابه بذم أصحاب الحديث وزعم أنهم يروون مالا يدرون وقال هو والجاحظ لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذابا ثم زعم أنه إنما كان اختلاف الأمة رحمة في زمن النبي ﷺ خاصة فإذا اختلفوا سألوه فبين لهم والجواب عن هذا الاعتراض الفاسد أنه لا يلزم من كون الشئ رحمة أن يكون ضده عذابا ولا يلتزم هذا ويذكره الا جاهل او متجاهل..". أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1392ه، ج11، ص 92.

[140]- بتصرف يسير عن أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج2، ص 308.

[141]- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت،ج4، ص 125.

[142]- الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي الغرناطي له العديد من المصنفات من أشهرها الاعتصام والموافقات. توفي عام 790ه. انظر ترجمته في: أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامين الرياض، الطبعة الثانية 1412ه/ 1992 م، ص 90.

[143]- المرجع السابق، ج4، ص 221.

فإذا لم تتحقق فيه عناصر الانضباط والالتزام بالآداب التي أدرجها العلماء في مؤلفاتهم –كما سيأتي ذكره في الدراسة لاحقا- يمكن أن يسوق إلى نوع من الاختلاف المذموم بناءا على ما يترتب عليه من نتائج الفرقة والتعصب والتناحر. **فكل اختلاف – أيا كان- لا يلتزم أصحابه بالأداب العامة والمعالم الخاصة به، كما كان يلتزم بها سلف هذه الأمة وصحابة النبي عليه الصلاة والسلام، اندرج تحت الاختلاف المنهي عنه لما يترتب عليه من العداوة والتنافر والفرقة المنهي عنها.**

من هنا فقد وضع الشاطبي رحمه الله ضابطا لمعرفة الاختلاف المحمود من المذموم حيث يقول رحمه الله في ذلك:" وجدنا أصحاب رسول الله ﷺ من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين ولم يفترقوا ولم يصيروا شيعا لأنهم لم يفارقوا الدين وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد الرأي والاستنباط من الكتاب والسنة، فيما لم يجدوا فيه نصا واختلفت في ذلك أقوالهم فصاروا محمودين لأنهم اجتهدوا فيما أمروا به كإختلاف أبي بكر وعمر وزيد في الجد مع الأم وقول عمر وعلي في العالمين الأولاد وخلافهم في الفريضة المشتركة وخلافهم في الطلاق قبل النكاح وفي البيوع وغير ذلك مما اختلفوا فيه وكانوا مع هذا أهل مودة وتناصح أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة. فلما حدثت المرذية التى حذر منها رسول الله ﷺ وظهرت العداوات وتحزب أهلها فصاروا شيعا دلّ على أنه إنما حدث ذلك من المسائل المحدثة التى ألقاها الشيطان على أفواه أوليائه قال **فكل مسألة حدثت فى الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين فى شيء** وأنها التي عنى رسول الله ﷺ بتفسير الآية وهى قوله﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[144] . وقد تقدمت فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها لإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين"[145].

و في شرح هذا النوع من الاختلاف المنهي عنه، جاء في الرسالة:" فإني أجد أهل العلم قديماً وحديثاً مختلفين في بعض أمورهم، فهل يسعهم ذلك؟ قال قلت: فقلت له

[144]- سورة الأنعام: 159.
[145]- الشاطبي، مرجع سابق، ج4، 1 185-186.

الاختلاف من وجهين: أحدهما محرم، ولا أقول ذلك في الآخر. قال: فما الاختلاف المحرم؟ قلت: **كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بيناً لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه**. وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويُدرك قياسا، فذهب المتأول أو القائس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالف غيره لم أقل أنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص. قال فهل في هذا حجة تبين فرقك بين الاختلافين؟ قلت: قال الله في ذمّ التفرق: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[146]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[147]، فذّم الاختلاف فيما جاءتهم به البينات"[148]. **والمراد بذلك النوع من الاختلاف الواقع في نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة. والخلاف المذموم إنما يتصور وجوده في حالتين اثنتين هما:**

الأولى: الخلاف المترتب على مسائل قطعية[149]، لا يجوز الاجتهاد فيها، وهذا بلا شك باطل مردود على صاحبه وقد جاءت النصوص تنهي عنه وتحذّر منه.

الثانية: الخلاف المؤدي إلى الشقاق والنزاع والتدابر والتناحر والفرقة ولو كان ذلك الاختلاف في الأصل في مسائل يجوز فيها الاجتهاد، لما يترتب عليه من عواقب وخيمة. فهذا النوع من الاجتهاد ليس منهياً عنه ابتداء من حيث هو اجتهاد، لأن الاجتهاد في الأصل مشروع، وجاءت النصوص الشرعية دالة على جوازه والإذن به، وإنما المنهي عنه ما يترتب عليه من شقاق وفرقة وشتات وتباغض وتدابر.

146- سورة البينة: 4.

147- سورة آل عمران: 159.

148- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1939م، ج1، ص 560.

149- الدليل القطعي الثبوت: هو القرآن الكريم لثبوته ثبوتاً قطعياً عن طريق التواتر، ومثله الحديث المتواتر الذي يرويه جمع عن جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، والدليل الظني الثبوت: هو السنة التي رويت عن طريق الآحاد. أما الدليل القطعي الدلالة: فهو الذي لا يحتمل إلا معنىً واحداً كقوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) [سورة النور:2]. فقوله: (مائة جلدة) قطعي في دلالته على عدد الجلد حيث حدد بمائة، والمائة لا تحتمل تسعين ولا ثمانين ولا غيرها... أما الدليل الظني الدلالة فعكسه فهو يحتمل أكثر من معنى ولكنه راجح في أحد هذه المعاني دون الأخرى، كقوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) [سورة البقرة:288]، فالقرء الوارد في هذه الآية يطلقه بعض علماء اللغة على الطهر، وبعضهم على الحيض، وبناء على هذا اختلف علماء الشرع، فمنهم من حمله على هذا ومنهم من حمله على ذاك. فمثل هذا لا يمكن أن تكون دلالته لأحد الطرفين قطعية ما دام أنه يحمل أكثر من معنى. هذا والدلالة الظنية تكون في القرآن كما تكون في السنة. انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتب أصول الفقه، فقد بسطت الكلام حول هذا الموضوع وفصّلته.

وهو ذات الاختلاف الذي حذّر منه النبي عليه الصلاة والسلام كثيرا وأصحابه وأشار إلى وقوعه في أهل الكتاب. فقد أخبر النبي ﷺ أن هلاك الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على أنبيائهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّىكَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ فَقَالَ أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ[150].

وفي مسند أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ فَجَلَسْنَا حَجْرَةً إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنْ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ وَيَقُولُ مَهْلًا يَا قَوْمِ بِهَذَا أُهْلِكَتْ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمْ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِه[151].

وغالبا ما يكون هذا النوع من الاختلاف، منبثقا عن هوى النفس، وعلى هذا فهو مذموم بكل أشكاله ومختلف صوره، لأن حظ الهوى فيه غلب الحرص على تحري الحق والهوى لا يأتي بخير فهو مطية الشيطان الى الكفر، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[152]. والهوى مدعاة لكل ظلم وبغي وتجاوز من قِبل الفرد على غيره فكيف إن كان هذا الغير مخالفا له في رأي!.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[153].

150- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون، باب القدر عن رسول الله، حديث رقم 2059.

151- مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم 6415.

152سورة البقرة:87.

153- سورة النساء: 135.

ويمكن ردّ خلاف أهل الملل والنحل ودعاة البدع في دين الله تعالى الى آفة الهوى وعدم وجود الرغبة الصادقة في تحري الحق وطلبه. وعلى هذا ردّ غالب العلماء الآثار السلبية الفادحة التي وقعت في تاريخ الأمة نتيجة لهذا النوع من الاختلاف الناجم عن اتباع هوى النفس والآراء الذاتية دون طلب للحق أو تحري له.

يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك:" الخلاف الذى هو في الحقيقة خلاف ناشئ عن الهوى المضل لا عن تحري قصد الشارع باتباع الأدلة على الجملة والتفصيل وهو الصادر عن أهل الأهواء وإذا دخل الهوى أدى إلى اتباع المتشابه حرصا على الغلبة والظهور بإقامة العذر في الخلاف وأدى إلى الفرقة والتقاطع والعداوة والبغضاء لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها". [154]

ومن أنواع الاختلاف المذموم كذلك الخلاف الناجم عن الخوض في مسائل لا ينبني عليها عمل. وهذا النوع قد حذّر منه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المذكور آنفا. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال ثم خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم قال فقال عبد الله بن عمرو ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه[155].

فالامور المتعلقة بمسائل لا يترتب على الاختلاف فيها عمل، لا ينبغي الانشغال بها أو حتى مجرد الخوض فيها. وهذا أمر من القواعد المعتبرة في الاختلاف، فما أكد القرآن والسنة على الاهتمام به والوقوف عنده، كان اهتمام المسلم به أولى وأجدى. وما وقف القرآن والسنة عن الخوض فيه، كان تركه الأولى والأصلح.

وقد **وقعت ضروب الاختلاف المذموم وصنوفه في فترات عديدة في تاريخ الأمة الإسلامية** (على الرغم من التوجيهات والتحذيرات المتواصلة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية) **بما يستحق أن تتوجه الأنظار لأخذ الدروس والعبر منه.**

---

[154]- الشاطبي، ج4، ص 222.

[155]- أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج1ن ص 34. رقم 85.

فقدكان التنازع والاختلاف(المذموم) أشد شيء على رسول الله ﷺ وكان إذا رأى من الصحابة اختلافا يسيرا في فهم النصوص يظهر في وجهه حتى كأنما فقىء فيه حبّ الرمان ويقول أبهذا أمرتم[156].

وجميع الآيات والنصوص الواردة في ذلك تنصرف إلى الاختلاف المؤدي إلى الفرقة والتناحر. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[157]. وقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[158] وقوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[159] **ونحوه**.

فقد أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله[160]، والأهواء المفترقة وما كان منكم من التفرق والاختلاف. فالاختلاف والأهواء يؤديان إلى التناحر وذهاب قوة المسلمين المشار إليه[161] في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[162].

ويقول الجصاص في تفسيرها: " أمر الله تعالى في هذه الآية بطاعته وطاعة رسوله ونهى بها عن الاختلاف والتنازع وأخبر أن الاختلاف والتنازع يؤدي إلى الفشل وهو ضعف القلب من فزع يلحقه وأمر في آية أخرى بطاعة ألاة الأمر لنفي الاختلاف والتنازع المؤديين إلى الفشل في قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ..فتضمنت هذه الآيات كلها النهي عن الاختلاف والتنازع وأخبر أن ذلك يؤدي إلى الفشل وإلى ذهاب الدولة بقوله وتذهب ريحكم"[163].

---

[156]- ابن القيم الجوزية، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م، ج1، ص 259.
[157]- سورة النساء: 140.
[158]- سورة الأنعام: 153.
[159]- سورة الشورى: 13.
[160]_ تفسير الطبري، مرجع سابق، ج5، ص 330.
[161]- المرجع السابق، ج7، ص 221.
[162]- سورة الأنعام: 65.
[163]- الجصاص، مرجع سابق، ج4، ص 251. تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج4، ص 61.

وعلى هذا كانت رعاية وحدة الأمة وتماسكها من أعظم الأصول التي نبغي مراعاتها بين المسلمين ولا يصح تعريضها لتهديد بسبب اختلاف في رأي أو نحوه.

ويقول ابن تيمية رحمه الله في ذمّ الفرقة:" الفساد الذى وقع فى هذه الأمة بل وفى غيرها هو التفرق والإختلاف فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لإجتهاده الذى يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام"[164].

بيد أن هذه المعاني التي كرّست في الرعيل الأول من جيل الصحابة والتابعين، معاني الحرص على الأخوة والالفة والمودة والبعد عن التنافر والفرقة، لم تستمر في الأجيال اللاحقة لها، التي تفشت فيها أدواء مختلفة جاءت من جراء انتشار وباء الاختلاف المذموم. وهو نوع من الابتلاء والامتحان الذي تعرضت له الأمة عبر التاريخ.

جاء في طبقات الحنابلة توصيفا لوقوع بعض المآسي من جراء الاختلاف في العصور اللاحقة: " انقلب الزمان وتغيرّ الناس جدا وفشت البدع وكثرَ دعاة سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحنة في كل شيء لم يتكلم به رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة. **ودعوا إلى الفرقة وقد نهى الله عز وجل عن الفرقة وكفّر بعضهم بعضا.** وكلٌ دعا إلى رأيه وإلى تكفير من خالفه، فضلّ الجهال والرعاع ومن لا علم له وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا وخوّفوهم عقاب الدنيا فأتبعهم الخلق على خوف في دنياهم ورغبة في دنياهم فصارت السنة وأهل السنة، وظهرت البدعة وفشت وكفروا من حيث لا يعملون من وجوه شتى، ووضعوا القياس وحملوا قدرة الرب وآياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم فما وافق عقولهم قبلوه وما خالف عقولهم ردوه، فصار الإسلام غريبا والسنة غريبة وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم"[165].

وقد جاء في هذا النص معظم الآثار الوخيمة المترتبة على الاختلاف غير المنضبط بشروطه وآدابه وضوابطه، من تشبث أصحاب كل طرف بما هم عليه، واعتقادهم امتلاك الحق دون غيرهم، وعدم الاكتفاء بذلك بل الوقوع في داء الفرقة والنزاع وصولا بفتنة التكفير للمسلمين. وهذه ظواهر، تبزغ في الأمة وتشتد كلما برزت دواعيها واستفحلت أسبابها.

[164] ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج22، ص 358.
[165]- أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، تحقيقك محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج2، ص 29.

ويشكّل الاختلاف المذموم بأنواعه وضروبه المتعددة، خطراً عظيماً على وحدة الأمة واجتماع كلمتها فهو ينخر في كيانها ويهدد وجودها ويقدّمها لقمة سائغة لأعدائها. وقلّما يخلو وجوده أو بعض أنواعه بين البعض من المسلمين، إلا أن خطورته تكمن في صيرورته ظاهرة وتيارا له من أسباب القوة ما تمكّن له الانتشار والسريان في جسد الأمة.

يقول الدكتور طه جابر العلواني في توصيف ظاهرة الاختلاف في العصر الراهن:" إن من أخطر ما أصيبت به هذه الأمة في الآونة الاخيرة مرض «الاختلاف والمخالفة»... الاختلاف في كل شيء، وعلى كل شيء، حتى شمل العقائد والافكار والتصورات والآراء الى جانب الأذواق والتصرفات والسلوك والاخلاق. وتعدى الاختلاف كل ذلك حتى بلغ أساليب الفقه، وفروض العبادات وكأن كل ما لدى هذه الأمة من أوامر ونواه يحثها على الاختلاف أو يدفعها اليه والامر عكس ذلك تماما. فإن كتاب الله وسنة رسوله«ﷺ» ما حرصا على شيء بعد التوحيد حرصهما على تأكيد وحدة الامة، ونبذ الاختلاف بين أبنائها، ومعالجة كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقة بين المسلمين، أو يخدش أخوة المؤمنين. ولعلّ مبادئ الإسلام ما نددت بشيء بعد الإشراك بالله تنديدها باختلاف الامة، وما حضت على أمر بعد الايمان بالله حضها على الوحدة والائتلاف بين المسلمين"[166].

والاختلاف بنوعيه جزء من الاختبار الذي جعله الله سبحانه غاية لخلق الإنسان على الأرض. قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[167].

فالله عز وجل أودع اختلافات عدة في طبائع الناس من اختلاف في القدرات الذهنية والمواهب والطبائع والمدارك ثم منحهم بعد ذلك القدرة على اختيار الأصلح والقيام بعمل الأحسن والأفضل. الأمر الذي نتج عنه الاختلاف في الملل والنحل ومناهج النظر والاستدلال والمعارف والعلوم. ولا ينبغي أن تنصرف حقيقة الابتلاء والاختبار في الاختلاف في خضم وقوع الخلاف، ليتسنى للأطراف المختلفة التدبرّ في العواقب وتذكر ما يؤول إليه.

رابعا: ضرورة فقه الأحاديث المتعلقة بالخلاف

[166]- طه جابر العلواني، مرجع سابق، ص 25.
[167]- سورة الملك: 1.

من أهم الأسس التي ينبغي غرسها وإحيائها في النفوس قبل الشروع بالحوار مع المخالفين من المسلمين، فهم الأحاديث النبوية والآثار المتعلقة بالاختلاف والتفرق وقراءتها مجتمعة لا متفرقة مبتورة عن سياقها. فإساءة الفهم أو بتر هذه الأحاديث من سياقها أو قراءة أحدها دون النظر إلى بقية الأحاديث الواردة في الباب، من أهم أسباب استعمال النصوص في غير مواضعها، بل قد يصبح النص(بسبب قلة الفهم أو انعدامه) من أهم اسباب وقوع مزيد من الخلاف والشقاق بين المسلمين.

ومن ذلك الأحاديث الواردة في تفرق الأمة وجعل بأسها بينها وتسليط بعضها على بعض. وهي أحاديث في جملتها صحيحة مستفيضة رويت عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم. إلا أن تلك الأحاديث لا ينبغي النظر إليها مجتزئة دون قراءة بقية الأحاديث الواردة حول الموضوع ذاته ليتسنى للقارئ فهم الصورة كاملة غير مبتورة. فالأحاديث الواردة في السنة عن هلاك الأمة بعضها ببعض لابد أن تُفهم في ضوء الأحاديث الواردة في السنة عن اجتماع الأمة وأهمية وحدة الكلمة والصفّ. كما ينبغي التنبه إلى ضرورة جمع مختلف الروايات الصحيحة الواردة للحديث ليظهر من خلال الجمع، طبيعة السياق الوارد فيه الحديث. وهو أمر يسهل عملية التوصل إلى الفهم الدقيق كثيرا.

ومن هذه الأحاديث ما جاء في صحيح مسلم في باب عنوانه **هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض**:" عن عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيه".

وفي رواية مسند أحمد :" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ عَنْ أَبِيهِ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : رَاقَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ صَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّهَا حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ جَاءَهُ خَبَّابٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَقَدْ صَلَّيْتَ اللَّيْلَةَ صَلَاةً مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتَ نَحْوَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلْ إِنَّهَا صَلَاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ سَأَلْتُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثَلَاثَ خِصَالٍ فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ لَا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا غَيْرَنَا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ لَا يَلْبِسَنَا شِيَعًا فَمَنَعَنِيهَا"[168].

وفي صحيح مسلم في ذات الباب رواية كذلك عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا[169].

فهذه الأحاديث وغيرها لا ينبغي فهمها وتأويلها على أنها تحمل حكماً عاماً أو قدراً محتوماً على الأمة كما فهمه البعض. ولو كان الحديث بهذا الشكل لنشأ تعارض بينه وبين غيره من نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة الواردة حول جمع الكلمة ووحدة الصف وهذا لا يكون، مما يؤيد أن الحديث وارد في باب التحذير من أمر أخبر بوقوعه النبي عليه الصلاة والسلام عندما تتخلف الأمة عن القيام بواجباتها في الاجتماع والائتلاف وليس تقريرا لحكم عام لا يتبدل ولا يتخلف مهما حدث. فالأمر متروك للأمة بعد هذا التحذير الشديد خاصة وأن الحديث الوارد في مسند أحمد يتبين من سياقه ذلك حين يقول النبي صلىالله عليه وسلم إنها صلاة رغب ورهب.

فلا ينبغي أن يُفهم الحديث على أنه تفرق الأمة أمر مصيري واقع في كل حال وفي كل زمان ولوكان الأمر كذلك لنشأ تعارض واضح مع عشرات النصوص القرآنية والأحاديث الداعية إلى الاعتصام بحبل الله وجمع الكلمة، الناهية بشدة عن التفرق والاختلاف. **فالحديث إخبار لواقع يحدث عندما تتحقق أسبابه ودواعيه التي نهى عنها النبي عليه الصلاةوالسلام في**

168- مسند أحمد، أول مسند البصريين، حديث رقم 20145.

169- صحيح مسلم، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. حديث رقم 5144.

أحاديث أخرى، وبهذا الفهم الشمولي للنصوص يمكن أن يزول الإشكال واللبس الواقع عند البعض[170].

ومن الأحاديث الهامة التي أسيء فهمها كثيرا في باب الاختلاف حديث الفرقة الناجية. فقد بات هذا الحديث سيفاً مشرعاً يستّله أصحاب الفرق والمخالفين في وجه بعضهم البعض كلما لاحت فكرة أو علت كلمة لا توافق ما هم عليه من الرأي[171].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ[172]. وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم.

وقد ذكر الحاكم النيسابوري[173] في المستدرك على الصحيحين:" أن هذا الحديث روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعمرو بن عوف المزني بإسنادين تفرد بأحدهما عبد الرحمن بن زياد الأفريقي والآخر كثير بن عبد الله المزني ولا تقوم بهما الحجة"[174].

وقد ساق الحاكم رواية الحديث على النحو التالي: عن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد عن أبيه عن جده قال ثم كنا قعودا حول رسول الله ﷺ في مسجده فقال لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ولتأخذن مثل أخذهم أن شبرا فشبر وإن ذراعا فذراع وإن باعا فباع حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه إلا أن بني إسرائيل افترقت على موسى على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم وأنها افترقت على عيسى بن مريم على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم ثم أنهم يكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم[175].

فعند جمع روايات حديث الفرقة الناجية تتضح بعض الأمور الهامة منها:

---

[170]- للمزيد من التفاصيل حول هذا الحديث انظر القرضاوي، الصحوة الاسلامية، مرجع سابق، ص 33-34.

[171]- في تفاصيل هذا الحديث انظر: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرَق بين الفِرق، وبيان الفرقة الناجية، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1980م.

[172]- سنن ابن ماجه، باب الفتن، افتراق الأمم، حديث 3983.

[173]- الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع صاحب المستدرك وغيره من الكتب المشهورة ولد في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وطلب العلم في صغره وأول سماعه سنة ثلاثين ورحل في طلب الحديث وسمع الكثير على شيوخ يزيدون على الفين. بلغت تصانيفه قريبا من خمسمائة جزء وقيل ألف جزء وقيل ألف وخمسمائة جزء. انظر ترجمته في: أبو بكر بن أحمد بن محمد، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، 1407 هـ، جج2، ص 193-195.

[174]- محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دا رالكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج1، ص 218.

[175]- الحاكم، المرجع السابق، ج1، ص 219.

- أن الحديث جاء في بعض رواياته في سياق التحذير من اتباع خطى اليهود والنصارى في التفرق والاختلاف والتشتت. فالغاية التي جاء الحديث ليؤكدها أهمية الابتعاد عن الفرقة ونبذ الاختلاف الواقع في الأمم السابقة في أصول العقائد[176].

إلا أن هذا الحديث بات يستشهد به أصحاب كل فرقة ضد الفرق الأخرى لتبيان أنها هي الفرقة الناجية وما عداها في النار. وعليه فإن الغاية التي سيق لأجلها الحديث باتت على الضد من الحاصل اليوم. فلا يعقل أن يكون الحديث سيق لإقرار التفرقة بين المسلمين وقد جاء للتحذير منها.

- أن ثمة علماء تكلموا في الحديث وفي الزيادة الواردة في بعض رواياته ومنهم مُحَمَّد بن إبراهيم الوزير[177] حيث يقول:" وإياك والاغترار ب" كلها هالكة إلا واحدة" فإنها زيادة فاسدة غير صحيحة القاعدة ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة"[178].

كما ذكر الشوكاني[179] رحمه الله أن:" حديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروى من طرق عديدة ..أما زيادة كونها فى النار إلا واحدة فقد ضعّفها جماعة من المحدثين بل قال ابن حزم إنها موضوعة"[180].

والحديث – على افتراض صحة الزيادة فيه- لا ينبغي أن يُفهم بمعزل عن بقية النصوص الواردة في الموضوع. كما لا ينبغي أن يكون أداة مطواع لمن يروم تكفير المسلمين وتفريق كلمتهم وتمزيق شملهم من خلال ترويج أفهام معينة لهذا الحديث. يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك:" ليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا، فإن المنازع قد

---

[176]- جاء في أبجد العلوم عن القحطبي في كتابه الرد على النصارى ذكر عدد هائل من الفرق التي ظهرت بين النصارى في الفترة الواقعة مابين عيسى عليه السلام والنبي محمد ﷺ منهم: الملكية النسطورية اليعقوبية الصامية الكتثانية البهانية الاليانية المارونية السالية الاربوسية المنانية الديصانية المرقيونية الاجرعانية المقداموسية الماقادونية اليماسية الغولية النولية الاربانموسية العطاحرية الهيلانية الباكولية البولفانية المحرانية السوروانية الساورمية العلانشية الاوطاخية البوالنطرية البقالوسية المرمسية الملورية الباقورية الادمية النفسطونية والعنزونية النفسانية الحسبية الديقطانية..انظر: القنوجي، مرجع سابق، ج1، 479.

[177]- محمد بن إبراهيم الوزير بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي الهادوي الامام العلامة والمحدث الأصولي النحوي المتكلم الفقيه. كان فريد العصر ونادرة الدهر خاتمة النقاد وحامل لواء الاسناد وبقية أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد رأسا في المعقول والمنقول إماما في الفروع والاصول. كان مولده في شهر رجب سنة 775. وله مصنفات عديدة ومجموعات مفيدة منها كتاب العواصم في الذب في سنة أبي القاسم أربعة أجزاء وغيره. توفي توفي رحمه الله في الطاعون الذي وقع في اليمن كلاهما في سنة 840. انظر ترجمته في: صديق بن حسن القنوجي، مرجع سابق، ج3، 189-191.

[178]- محمد بن إبراهيم ابن الوزير، العواصم والقواصم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج1، ص 186. ج3، ص 170- 172. وانظر ما ذكره الشيخ القرضاوي حول ذلك في كتابه: الصحوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 36.

[179]- محمد بن علي الشوكاني ولد بصنعاء وتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين والف الهجرية. له كتب ومؤلفات عدة منها: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول يعز نظيره وترصيفه وحسن ترتيبه وتصنيفه وله السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار كان تأليفه في آخر مدته ولم يؤلف بعده شيئا. انظر ترجمته في: القنوجي، ج3، ص 203.

[180]- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، بدون، ج2، ص 59.

يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته ..وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له، لا يجب أن يدخل فيها المتأول والتائب وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك، فهذا أولى، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا وقد لا يكون ناجيا كما يقال من صمت نجا"[181].

وقد أوضح ابن تيمية[182] رحمه الله أنه **لا يُحكم على طائفة معينة بأنها من الفرق الضالة الاثنتين والسبعين التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث وأنه لا سبيل إلى الجزم بأنها واحدة منها،** لأن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الاثنتين والسبعين لابد له من دليل فإن الله حرّم القول بلا علم عموما وحرّم القول عليه بلا علم خصوصا.

يقول في ذلك:" وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات وذكروهم في كتب المقالات لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل فإن الله حرم القول بلا علم عموما وحرم القول عليه بلا علم خصوصا فقال تعالى: قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون وقال تعالى ولاتقف ما ليس لك به علم وأيضا **فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة ويجعل من حالفها أهل البدع وهذا ضلال مبين..**"[183].

---

[181]- ابن تيمية، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، 1404هـ، ج3، ص 179. محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت، ج1، 247.

[182]- شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي. مولده بحران سنة إحدى وستين وستمائة هاجر والده به وباخوته إلى الشام من جور التتر. برع في النحو وأقبل على التفسير إقبالا كليا حتى سبق فيه وهو ابن بضع عشرة سنة فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه. وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة وشرع في الجمع والتأليف. ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق اليها. قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياما لا مزيد عليه وبدعوه وناظروه وكابروه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي. له مؤلفات عدة منها: منهاج السنة، الاستقامة وأمراض القلوب والعقيدة الواسطية..وغيرها كثير جدا توفي بحلب عام 749هـ. ترجم له كثيرون مثل: كتاب الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الاسلام كافر للشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن شمس الدين أبي بكر بن ناصر الدين الشافعي الدمشقي وعليه تقريظ للحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج22، ص 290. ترجم له القنوجي ترجمة مطولة، ج3، ص 13 وما بعدها.

[183]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج3، ص 346.

ويندرج تحت فقه الاختلاف، النظر إلى مقاصد هذا الاختلاف وأهدافه والنتائج المتوقعة منه ومراميه، وهو ما يطلق عليه العلماء مآلات الأفعال.

وهي قاعدة عظيمة ينبغي التنبه إليها في الاختلاف. وقد راعتها النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية أيما مراعاة. فقد جاء في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ قَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ"[184]. وحديث عائشة ﷺ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ"[185].

فالعمل يكون فى الأصل مشروعا لكن ينهى عنه لما يؤول إليه من المفسدة أو ممنوعا لكن يترك النهي عنه لما فى ذلك من المصلحة وكذلك الأدلة الدالة على سد الذرائع كلها فإن غالبها تذرع بفعل جائز إلى جائز[186].

ويترتب على هذا الضابط ألا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهى. وقد فرض العلماء مسائل مما لا يجوز الفتيا بها وإن كانت صحيحة فى نظر الفقه ،كما ذكر عز الدين بن عبد السلام[187] فى مسألة الدور فى الطلاق لما يؤدى إليه من رفع حكم الطلاق بإطلاق وهو مفسدة. ومن ذلك سؤال العوام عن علل مسائل الفقه وحكم التشريعات وإن كان لها علل صحيحة وحكم مستقيمة، ولذلك أنكرت عائشة على من قالت لِمَ تقضى الحائض الصوم ولا تقضى الصلاة وقالت لها أحروية أنت. وقد ضرب عمر ابن الخطاب صبيغا وشرد به لما كان كثير السؤال عن أشياء من علوم القرآن لا يتعلق بها عمل وربما أوقع خيالا وفتنة وإن

---

[184]- رواه مسلم، باب الزكاة، ذكر الخوارج وصفاتهم.

[185]- رواه البخاري، باب العلم، من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصرفهم بعض الناس عنه.

[186]- الشاطبي، ج4، ص 197-198.

[187]- الشيخ عز الدين عبد العزيز عبد السلام الدمشقي السلمي كان شيخا للإسلام عالما ورعا زاهدا، قرأ الفقه على ابن عساكر والأصول على الشيخ الامدي وولي خطابه دمشق. مات في عاشر جمادي الأولى سنة ستين وستمائة. انظر ترجمته في: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 267.

كان صحيحا. مما يدل على أنه ليس كل علم يبث وينشر وإن كان حقا وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلما ما تكلم فيها ولا حدث بها وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك.

والضابط في ذلك كله كما نبّه الشاطبي أن يقوم المجتهد بعرض المسألة على الشريعة فإن صحت فى ميزانها، فعليه الانتقال إلى النظر إلى مآلها وما يترتب عليها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله(بمعنى الواقع المعاش). فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فللإنسان التحدث فيها وفق تلك الضوابط. وإن لم يكن لها هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية[188].

وتأسيساً على هذا ينبغي **تجنب الخوض في المسائل التي لا ينبني عليها عمل**. يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك:" كل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى وأعنى ومعناه عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا والدليل على ذلك استقراء الشريعة فإنا رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملا مكلفا به"[189].

وكثير من الأمور التي يقع الخلاف فيها بين المسلمين، تكون من هذا الباب.

ومن فقه الاختلاف عدم اتباع المتشابهات التى نبّه عليها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[190].

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ إِلَى قَوْلِهِ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنَاهُمْ اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ فهم الذين عناهم الله فاحذروهم[191].

---

[188]- الشاطبي، مرجع سابق، ج4، ص 190-191.
[189]- الموافقات، ج1، ص 45.
[190]- سورة آل عمران:7.
[191]- سنن ابن ماجه، المقدمة، اجتناب البدع والجدل، حديث 46.

والمراد من يأخذ المتشابهات التي تحتمل أكثر من فهم وتحتمل أكثر من تفسير، فيتمسك بها ويترك النصوص المحكمة القاطعة، وهذه من أهم أسباب الشذوذ عن الجماعة والخروج على الجماعة، أن يتبع الإنسان المتشابهات ويترك المحكمات والقاطعات.

يتضح مما سبق من هنا مدى الحاجة إلى فقه الاختلاف الذي بات يعد في العصر الراهن من الضروريات. حيث أن غالب ما يقع بين المسلمين من فرقة ونزاع، يعود في جذوره إلى الخلل العميق الواقع في فهم هذا النوع من الفقه وتطبيقه.

فعلى الرغم من كثرة المصنفات التي تطرقت إلى الاختلاف ومسائله فإن القليل القليل منها الذي قدّم تأصيلاً له وبلور تصوراً شاملاً للموقف منه، إذ اكتفت معظم المصنفات بذكر أسباب الاختلاف وسرد مسائله وبعض آدابه، دون تنظير فلسفي وتأصيل فقهي له[192].

[192]- أحمد التويجري، فقه الاختلاف والمستقبل الاسلامي، ص 3.

الفصل الثاني

أساس التعايش السلمي

من أهم الأسس التي ينبني عليها الحوار مع المخالف مطلقا، ضرورة التعايش السلمي بين أصحاب الديانات المختلفة بوجه عام وبين المسلمين بوجه خاص. فقد أوجد الإسلام وضعاً من التعايش السلمي المبني على الوفاق والوئام والتسامح في التعامل مع المخالف في ظل المجتمع الواحد.

أولا: تأكيد روح التعايش السلمي بين البشر

واعتبر الاسلام البشرية أسرة واحدة تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما أعلنه رسول الإسلام أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: " أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى".

ثم إن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[193].

وشهادة التاريخ الإسلامي بهذا التسامح والتعايش أكبر من أن يحاط بها في هذا السياق، فالإسلام هو أول دين على الإطلاق اشتمل في منظومته على موقف واضح صريح من المخالف يقوم على الاعتراف به وبوجوده وإمكانية التعامل معه وفق ضوابط حدود معينة كما سيأتي ذكره. الأمر الذي حدا بمفكري الغرب أنفسهم بالإشادة بهذا النهج الفذّ مما لمسوا من سماحة مبادئ الإسلام وقيّمه في المساواة والعدالة وعدم غمط الآخرين.

---

[193]- سورة الممتحنة: 8-9.

يقول أليكسي جورافسكي[194]في ذلك:" قابلت- أي المسيحية الشرقية- الدين الجديد الإسلام دون أي مقاومة بل وبالترحاب في كثير من المناطق ومرد ذلك الموقف إلى عدة عوامل، أولا: تسامح الإسلام إزاء القضايا المتعلقة بإقامة طقوس العبادة المسيحية بشرط التعاون السياسي، ثانيا: بسبب أن المسلمين الفاتحين حموا المسيحيين من تعديات واعتداءات ملاحقات أمبراطورية بيزنطة غير المتسامحة مطلقا في ما يخص التيارات المونوفيزية والنسطورية.."[195].

فالمسيحيون واليهود وغيرهم ممن لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعا دون أي عائق أن يمارسوا شعائر دينهم وهذا منتهى التسامح. وفي ذلك كتب بطريك بيت المقدس في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن المسلمين أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف[196].

وروح التسامح في الإسلام مبدأ أصيل ينبثق من مبادئه التي تلغي التعسف والتسلط على المخالفين وتمحو آثار الإحنة على طبقة أو جنس وتكرّس إشاعة الود والتراحم بين بني البشر لتنقية جوّ المجتمع من الشحناء والتناحر العنصري البغيض.

والتسامح في الإسلام يعني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقا، وأن تكون له الحرية في ممارسة شعائر دينه الذي اختاره كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء[197].

وروح التسامح أساس يظهر في حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البرّ والرحمة والإحسان وهي أمور لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونها خاصة في

---

[194]- أليكسي فاسيلفيتش جورافسكي متخصص في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشعوب والقارات والثقافات يعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. أصدر عدة دراسات في قضايا العلاقات الحضارية بين الأديان والشعوب ولا سيما بين ثقافتي الغرب والشرق. انظر ترجمته في خاتمة كتابه الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1996م.

[195]- أليكسي جورافسكي، المرجع السابق، ص 177-178.

[196]- بتصرف يسير عن: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة العاشرة، 2002م، ص 364.

[197]- علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة، الكتاب التاسع والأربعون، 1969م، ص 95.

المجتمع الواحد والأمة الواحدة. وقد مدت تلك الأسس جذورها عمقا في التاريخ الإسلامي وخاصة في العهد النبوي والخلافة الراشدة.

وحددت تعاليم الاسلام مبادئ لهذا التعايش وخطوطا عريضة تتمثل في:

أولا: تقرير استقلال الإنسان في عقيدته وشخصيته ومعيشته مع توجيه الاهتمام إلى جوهر الإنسان وذاته من روح وعقل وفضيلة.

ثانيا: حق المساواة في الإنسانية حيث كانت المجتمعات البشرية قبل الاسلام تعيش على الفوارق الطبقية والعصبية للشرف والعِرق والمفاضلة بين الغني والفقير. فاهتم الاسلام بالقضاء على النظام الطبقي والاستعلاء على المنافسات الشعوبية.

فإنسانية الإنسان وآدميته أمر مقرر فى الشريعة الإسلامية.. والإنسان أعلى المخلوقات مرتبة، كرّمه الله الخالق لآدميته كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلقد كرمنا بني آدم﴾. فالنفس الإنسانية مقدرة لذاتها معظمة لآدميتها بصرف النظر عن انتمائها الدينى أو العرقي أو الجنسي أو اللوني.

ثالثا: حرية الفكر والعقيدة بحيث تحول تلك الحرية دون تسلط فرد أو جماعة، فأطلق الاسلام للفكر العنان ليبحث ويتدبر ثم ألقى المسئولية على عاتقه في اختيار معتقده وليس لأحد أن يحمله على ترك معتقده[198]. ومن ذلك ما جاء عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ

[198]- السيد أحمد المخزنجي، العدل والتسامح الاسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد 67، شوال 1407هـ/ يونيو1987م، ص 24-25.

عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ[199].

وكان أكثرهم على دين اليهودية، ثم إنهم دخلوا الاسلام طواعية من غير إكراه. ومثلهم كثير منهم من أسلم من يهود المدينة وهم كثيرون غير عبد الله بن سلام ذكرتهم كتب السير والمغازي وتحملوا معاداة الأهل والأقارب مع ضعف شوكة المسلمين آنذاك[200].

ولم تشهد السيرة النبوية حادثة واحدة وقع فيها إكراه أحد على ترك دينه أو معتقده وحمله على اعتناق الإسلام. يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك:" لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الاديان طوعا واختيارا. ولم يُكره أحدا قط على الدين وانما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالا لأمر ربه سبحانه حيث يقول:" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" وهذا نفي في معنى النهي أي لا تكرهوا أحدا على الدين. نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الاسلام فلما جاء الاسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الاسلام والصحيح ان الآية على عمومها في حق كل كافر وهذا ظاهر"[201].

وقد جاءت هذه القصة في كتب الحديث، عنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا (أي لا يعيش لها ولد) فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنو النَّضِيرِكَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِفَقَالُوا لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الآية[202].

ففي هذه الواقعة تتجلى القاعدة والأساس الأصيل في مبادئ الإسلام القائم على عدم إكراه أحد على ترك دينه حتى وإن كان في الأصل يمت بصلة بنّوة لمسلم.

[199]- رواه البخاري، المغازي، رقم 4000.
[200]- من هؤلاء على سبيل المثال: زيد بن سعنة، أسد بن سعية القرظي، ثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد ..اتظر في ذلك: هامش كتابة هداية الحيارى، مرجع سابق، ص 73.
[201]- ابن القيم الجوزية، هداية الحيارى، مرجع سابق، ص 72.
[202]- رواه أبو داود، سنن ابي دواد، الجهاد، حديث رقم 2307.

رابعا: الاعتقاد بأن اختلاف البشر في عقائدهم واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[203].

خامسا: أن الله عز وجل يتولى حسابهم على اختيارهم يوم القيامة ويفصل بينهم في هذا الاختلاف. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾204.

سادسا: اعتقاد المسلم بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان. عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَقَالَا إِنَّ رسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ أَلَيْسَتْ نَفْساً[205].

سابعا: إيمان المسلم بأن عدل الله لجميع عباد الله، مسلمين وغير مسلمين، وهو أمر رباني لا ينبغي للمسلم إسقاطه أو إغفاله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾206.

وعلى هذا كان الوفاء بالعهود والاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين المسلمين ومخالفيهم، أمراً ربانياً، ينبغي تنفيذه مهما كانت سجايا المخالف ومهما عرف عنه من عدم الوفاء والإنصاف. وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في سياق النعي على الناقضين عهودهم مع الناس.

ففي الحديث المتفق على صحته:" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ

203- سورة هود: 118.
204- سورة الشورى: 15.
205- رواه البخاري، باب الجنائز، من قام لجنازة يهودي، رقم 1229. رواه مسلم، باب الجنائز، القيام للجنازة، رقم 1596. سنن النسائي، الجنائز، رقم 1895..
206- سورةالمائدة:8.

خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[207].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ[208].

ولم تتغير تلك المواقف والمبادئ الأصيلة إزاء المخالف مطلقا، فهي تشكل منظومة قيّمية لا يمكن تغييرها إلا ما كان من موقف المخالف ذاته بإظهار العداء ونقض العهود والمواثيق.

وقد حرص النبي ﷺ على تحقيق تلك المبادئ، فكان من أوائل أعماله عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة، كتابة صحيفة المدينة–كما أشارت الدراسة سابقا.

وكان اليهود فيها ثلاث طوائف حول المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. ولم يتغير موقفه منهم مطلقا إلا عندما بادروه بالخصومة والغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه. فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وأظهروا البغي والحسد فسار إليهم وحاصرهم خمسة عشر ليلة وهم أول من حارب من اليهود. وتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار وأخرجهم من المدينة.

وكذا الأمر بالنسبة ليهود بني النضير فقد نقضوا العهد وأرادوا قتله عليه الصلاة والسلام لإنه أتاهم مع بعض أصحابه في ديارهم يستعينهم في دية العامريين، فنزل الوحي بذلك وأطلعه على ما هموا به من سوء ونجا الله نبيه ﷺ من كيدهم. ونزلت الآيات فيهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾209.

[207]- رواه مسلم، باب الإيمان، رقم 88.
[208]- رواه البخاري، باب الإجارة، رقم 2109. رواه ابن ماجه، سسن ابن ماجه، الأحكام، رقم 2433.
[209]- سورة المائدة، الآية 13.

وعلى الرغم من خيانتهم الواضحة وخروجهم السافر على قيّم الوفاء واحترام العلاقات الإنسانية، إلا أن الآية القرآنية حضت النبي عليه الصلاة والسلام بالبقاء أنموذجا للفضائل الإنسانية المتمثلة في العفو والصفح. يقول الطبري في تفسيرها:" وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه مُحَّدا ﷺ بالعفو عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل واصفح عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم فالله يحب من أحسن إليه..".

وعليه فقد وضع النص القرآني والسلوك النبوي من خلال هذه الواقعة تشريعا في التعامل مع المخالفين حتى وإن بدرت منهم أقسى الإساءات ليؤكد أصالة التسامح والإحسان في المعاملة في التشريع الإسلامي.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٍأَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا فَجِيءَ بِهَا فَقِيلَ أَلَا نَقْتُلُهَا قَالَ لَا فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[210].

وقد أرشد الله سبحانه نبيه ﷺ والمؤمنين به إلى ما يجب أن يكون من أخلاقهم في إقامة العهد والعدل المطلق الذي يتساوى أمامه الناس جميعا. فجعل المحافظة على العهد واجبة الرعاية ما دام المعاهدون مهما كان أمرهم محافظين عليه. فإن أظهروا نقضه وجب على أهل الإيمان أن يعالنوهم بنبذ عهدهم إليهم وأنهم لم يعودوا سلما لهم بل هم حرب عليهم فليرتادوا لأنفسهم وليستعدوا حتى يتساووا معهم ف يالعلم بفك عروة العهد وهذا اقصى ما يمكن تصوره في مراتب العدل[211].

وعلى هذا أنذرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا من المدينة ولكنهم أبوا ذلك فحاصرهم حتى استسلموا، على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. وأما قريظة فقد نقضوا العهد في غزوة الخندق واشتركوا مع المشركين ضد

---

[210]- رواه البخاري، قبول الهدية من المشركين، حديث رقم 2424. وأنظر حول ذلك: أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني، أخلاق النبي ﷺ وآدابه، تحقيق: صالح الونيات، دار المسلم، الرياض، 1998م، ج1، ص 256.

[211]- حول هذه النقطة انظر: محمد الصادق عرجون، الموسوعة في سماحة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، 1404هـ/ 1404م، ج1، ص 365.

المسلمين، فنازل حصونهم وحصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ورضوا به، فحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال[212].

وقد دونت الأحاديث والروايات في السنة النبوية حوادث الغدر والخصومة التي بادر بها اليهود بمختلف قبائلهم، فكان من الطبيعي أن يواجه ذلك الغدر بما يتلاءم معه. ولم يكن ذلك مطلقا نتيجة لضيق المسلمين بوجود مخالفين لهم في المدينة. فقد تعاهد اليهود مع المشركين رغم وجود العهد الذي يوجب عليهم ألا ينصروا أحدا على المسلمين.

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الْأَوْثَانَ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِنَّكُمْ آوَيْتُمْ صَاحِبَنَا وَإِنَّا نُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقَاتِلُنَّهُ أَوْ لَتُخْرِجُنَّهُ أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهُمْ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَفَرَّقُوا فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فَكَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ بِالْغَدْرِ فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ وَلْيَخْرُجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمَنْصَفِ فَيَسْمَعُوا مِنْكَ فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ فَقَصَّ خَبَرَهُمْ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ غَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ عَهْدًا فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ غَدَا الْغَدُ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ فَعَاهَدُوهُ

[212]- زاد المعاد، ج3، ص 124 وما بعدها.

فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ وَغَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ فَجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبِهَا[213].

كما جاء في الحديث عن بني قريظة والنضير، ما ذكره ابْنِ عُمَرَ أَنَّ يَهُودَ النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجْلَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّنَهُمْ وَأَسْلَمُوا وَأَجْلَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ وَكُلَّ يَهُودِيٍّ كَانَ بِالْمَدِينَةِ[214].

وقد أنارت معاملة المسلمين لمخالفيهم وحفاظهم على عهودهم ومواثيقهم صفحات التاريخ الإسلامي برمته. فها هو واحد من أصحاب رسول الله ﷺ بعد مرور أعوام على وفاة النبي عليه الصلاة والسلام يتصدى لمعاوية بن ابي سفيان ﵁ حين أراد أن سير في أرض المسلمين بجيوش الغسلام في مة العهد الذي كان بينه وبين الروم حتى إذا انقضت المدة كان قريبا من عدوهم فيتمكن منهم دون أن يكون قد نقض لهم عهدا أو دخل لهم ارضا. فرآه أحد الصحابة ابن عنبسة ﵁، فأنكر عليه لما أدرك من الهدي النبوي من شدة الحفاظ على العهود وعدم المساس بها واعتبر ذلك التصرف تحايلا على العهد المبروم مع الروم، وهو أمر حذر منه النبي ﷺ في الحديث. عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ قَالَ كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدَرَ فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ[215].

---

[213]- رواه أبو داود، الخراج والامارة والفيء، رقم 2610.

[214]- رواه البخاري، المغازي، حديث بني النظير، رقم 3724. ورواه مسلم، الجهاد والسير، رقم 3312. رواه أبو داود في السنن، باب الخراج والأمارة والفيء، رقم 2611. مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، رقم 6079.

[215]- رواه أبو داود، سنن أبي داود، باب الجهاد، رقم 2378.

وحرص النبي عليه الصلاة والسلام الشديد على الوفاء بالعهود والمواثيق نابع من سمو قيم الوحي المؤكدة لمبدأ التعايش السلمي وحسن الجوار مع المخالفين في المجتمع الإسلامي والتسامح معهم.

وبلغ مبدأ التعايش السلمي مبلغا عظيما إلى حدّ ترك حرية الاختيار للمخالفين في اعتقاد ما يريدون بعد تبليغ الدعوة لهم، وتأكيد مبدأ عدم الإكراه على الاعتقاد أو الدخول في الإسلام قسرا. فالإسلام منذ لحظة ظهوره لم تكن وسيلته إلى الدعوة القهر والإكراه وحمل الناس بالعنف بكل أنواعه على اعتناقه، لأنه لم يضق ذرعا باختلاف الناس في المعتقد.

وكان التسامح والتعايش شعارا واقعيا يعيشه المسلمون وغيرهم في رحاب الأمة الواحدة والمجتمع الواحد، امتثالا لنصوص الوحي وأوامره.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ.لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[216] . معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما بناه على التمكن والاختيار، لأن الله تعالى لما بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر وقال بعد ذلك أنه لم يبق إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء. إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان"[217].

ويقول ابن تيمية في ذلك:" **لا نُكره أحدا على الدين، والقتال لمن حاربنا** فإن أسلم عصم ماله ودمه، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحدا على الإسلام لا ممتنعا ولا مقدورا عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا لكن من أسلم قُبل منه ظاهر الإسلام"[218].

كل ذلك يثبت أن حرية العقيدة كانت من أبرز ما أوجبه القرآن والسنة. بل إن الفتوحات الاسلامية ذاتها،كانت تهدف إلى تحطيم سلطات حكومات متعصبة وقفت دون حريات

216- سورة الغاشية: 21-22.

217- محمد فتح الله الزيادي، انتشار الإسلام، دار قتيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1415هـ/1995م، ص 35.

218- ابن تيمية، مجموعة الرسائل، رسالة القتال، ص 123.

شعوبها في اعتناق الدين الذي تريد فكانت تلك الحكومات تجبر شعوبها على اعتناق دين الملك.

بِيد أن هذا التسامح والتعايش الذي أسسته النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وسار عليه المسلمون على مدى التاريخ، شابه بعض السلوكيات الشاذة من قِبل بعضهم في سياق تاريخي وظروف اجتماعية وسياسية معينة. فلا تُفهم تلك الشوائب الفكرية على أنها فكر أصيل منبثق من تعاليم الاسلام أو قيّمه.

فقد كان **واقع المسلمين على مدى قرون من الزمن، قائما على تلك الأسس التي أرست دعائمها نصوص القرآن والسنة. إلا أن تلك الشوائب كانت من قبيل أخطاء وممارسات فردية لا تمثل قطعيا حكم القرآن أو السنة.**

وقد نشأت بعض تلك السلوكيات نتيجة ميول ودوافع شخصية سرعان ما كان ينبّه عليها علماء الأمة كلما أطلّت برأسها. ومن ذلك ما حدث من الوالي العباسي صالح بن علي عندما أجلى قوما من أهل الذمة من جبل لبنان لذنب ارتكبه بعض أفرادهم، فاعترض الأوزاعي[219] رحمه الله بشدة وطالب بعودتهم إلى ديارهم، وكتب إليه يقول:

" ..وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت وردت بعضهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة؟؟ حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى فيهم: ألا تزر وازرة وزر أخرى. فإنهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة"[220]. وهكذا فإن أحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله صلى اللهعليه وسلم حيث قال:" أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[221].

---

[219]- أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو وكان أصله من سبي السند نزل في الأوزاع فغلب عليه ذلك وكان فقيه أهل الشام وكانت صنعته الكتابة ولد سنة 88هـ له كتب في السنن والفقه والمسائل. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج7، 107.

[220]- البلاذري، فتوح البلدان، 222. وراجع كلك: أمين محمد القضاة، معاملة غير المسلمين في الإسلام، بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن، ص 585.

[221]- سنن أبي داود، باب الخراج والإمارة والفيء، حديث رقم 2654.

وثمة ظروف تاريخية سياسية أخرى، ولدّت ردود فعل مختلفة لدى البعض من المسلمين. الأمر الذي نجم عنه وقوع إساءات من قِبل بعض المسلمين اتجاه أهل الذمة في المجتمع. فقد شهد التاريخ بعض الحوادث التي وقع فيها ظلم وتعدي من قِبل بعض الذميّين على المسلمين.

ومن تلك الوقائع التاريخية ما حدث في عهد أبي جعفر المنصور. فإنه لما حجّ اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكّن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرماتهم. فقال مخاطبا المنصور: يا أمير المؤمنين سلطّت الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم وجاروا عليهم واتخذوك سلما لشهواتهم وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا يوم القيامة، فأمر المنصور بعزلهم[222].

وهذه الواقعة وغيرها مما حدث أثناء حكم بعض الخلفاء والأمراء، كانت بسبب إساءة تعامل أهل الذمة أنفسهم وما وقع منهم من ظلمٍ وتعدٍ على المسلمين في ديارهم. الأمر الذي أدى إلى نقمة الناس وغضبهم.

وقد عبّر العالم الألماني المنصف آدم متز عن تلك الحالة موضحّا استبداد بعض النصارى بقوله:" لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"[223].

ويُرجع المؤرخ اللبناني جورج قرم ظهور تلك التوترات في العالم الاسلامي آنذاك إلعوامل ثلاثة هي:

أولا:مزاح الخلفاء الشخصي فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميّون، وقعا في عهد المتوكل العباسي(206- 247هـ) الذي كان يميل بطبعه إلى العنف والقسوة والتعصب مع مجموع الرعية وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (375-411هـ) الذي كان مغاليا في الشدة معهم.

222- ابن القيم الجوزية، احكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر العاروري، دار رمادي للنشر، الدمام، 1418هـ/1997م، ج1، ص 461.

223- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت، 1967م، ج1، ص 105.

ثانيا: الظلم الذي كان يمارسه بعض الذميّين المعتلين لمناصب إدارية عالية فلا يعسر إدراك صلتها المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار الاسلامية.

ثالثا: وهذا العامل يرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الاسلامية وقيام الحكام الأجانب بإغراء الأقليات الدينية غير المسلمة بالتعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. فنهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية التي تعاونت مع الغازي. ولم يحجم الحكام الأجانب من الانجليز والفرنسيين عن استخدام الأقليات غير المسلمة في مصر وسوريا، الأمر الذي أثار قلاقل خطيرة بين النصارى والمسلمين[224].

إن فهم تلك الظرفية التاريخية والأوضاع الاجتماعية واستحضارها قبل إصدار حكم تعسفي ضد سماحة الإسلام وقيّمه إزاء المخالف، يسهم اليوم في إدراكنا لموقف بعض فقهاءنا رحمهم الله المتوجس إزاء التعامل مع الذميين عموما. فقد عاصر هؤلاء الفقهاء تلك الحوادث وعاينوا الظلم الواقع من تكبر بعض الذمّيين وإساءتهم للمسلمين، والمجتهد ابن بيئته وعصره.

ومن أبرز العلماء الذين عاينوا تلك الأحداث، ابن القيم رحمه الله، الذي يقول واصفا حالة تكبر واستعلاء الذمييّن في عصره:" وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يُصدّرون(يعني أهل الذمة) في المجالس ويُقام لهم وتُقبّل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند والأموال السلطانية.."[225]. وقد عقّب الأستاذ صبحي الصالح محقق كتابه شرح الشروط العمرية وكتاب أحكام أهل الذمة للإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله، بقول يستقرأ من خلاله الحالة التاريخية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك. تلك الحالة التي دفعت بابن القيم رحمه الله وهو العالم الجليل المنصف إلى التمسك ببعض السلوكيات التي لم تخل من الشدة نوعا ما، إزاء أهل الذمة في عصره[226]. وما ذاك إلا اجتهادا منه رحمه الله في مراعاة مصلحة البلاد والعباد

---

[224]- جروج قرم، تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت، 1979م، ص 211-224.

[225]- المرجع السابق، ج3، ص 1323.

[226]- من ذلك ما ذكره على سبيل المثال معتمدا على الشروط العمرية ، بأن أهل الذمة ممنوعون من ركوب السروج وتكون أرجلهم إلى جانب واحد، وتكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين....انظر كتاب شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ص 90، 101.

وتغير الأحوال والأزمنة والأمكنة واحتياطا للإسلام والمسلمين ونظرا في المصلحة العامة لهم. يقول الأستاذ صبحي الصالح حول ذلك:

" ابن القيم كان يعيش في عصر كثرت فيه ضروب التحدي من أهل الذمة للمسلمين وكان من العسير أن ينسى أهل دمشق ولو امتد الزمان ما فعله النصارى يوم غزا المغول مدينتهم سنة 658هـ فقد أراقوا الخمر على ملابس المسلمين وعلى مساجدهم وأرغموا أصحاب الحوانيت على الوقوف لهم ولصلبانهم وراحوا يهتفون اليوم انتصر دين المسيح"[227]. فظهر شيء من الغلو في عرض بعض المسائل المذكورة في كتبه- رحمه الله- مشبّعة بروح العصر الذي عاش فيه المصنف متأثرة بالتشدد الديني الذي كان يسوده. إلا أنها لا تغض من قيمة مؤلفاته في الموضوع بحال"[228].

وواقع الأمر أن الائمة والعلماء رحمهم الله كانوا في فتاويهم ومواقفهم مع السنة، لم يخالفوها في شيء وإنما اختلفت أنظارهم في الاحتياط للإسلام والمسلمين والنظر لمصلحة الأمة، وفقا لما أداهم إليه اجتهادهم في فهم النصوص والحوادث، وكل مثاب مأجور بإذن الله. وتأثر العلماء والمجتهدين رحمهم الله بالأحوال السائدة في عصورهم والظرفية التاريخية والاجتماعية، أمر لا مندوحة عنه إلا أنه محض اجتهاد بشري محكوم عليه بالنسبية لا الإطلاق. أما نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية هي المطلقة الحاكمة على جميع الاجتهادات[229].

ولم تكن تلك الفترات المحدودة في عمر التاريخ تيارا عاما في التاريخ الاسلامي، فها هو شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يسعى بإطلاق سراح أسرى المسلمين من التتار ويصرَّ كذلك على إطلاق سراح المأسورين من أهل الذمة قائلاً لمسؤول التتر: "بل جميع من معك

---

[227]- هامش كتاب احكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ج2، ص 771.

[228]- بتصرف يسير شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، المقدمة. ويرى الأستاذ صبحي الصالح أن شهرة تلك الشروط المنسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تغني إسنادها بحال وهو ما اعتمده الإمام ابن القيم رحمه الله حيث يقول:" شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها". راجع المقدمة. صفحة ز. وهو في كل ما ذهب إليه رحمه الله كان مجتهدا مراعيا للحالة السائدة في عصره فلا ينبغي أن تعزل تلك الأحكام الاجتهادية وتؤخذ على عناتها دون النظر إلى طبيعة الظرفية التاريخية المقارنة لها كما لا ينبغي أن تقرأ دون الإلمام والوقوف أولا وآخرا على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

[229]- في تفاصيل تلك النقطة انظر: رقية طه العلواني، أثر العرف في فهم النصوص، دار الفكر، دمشق، 2003م. ص10. والكتاب برمته يبين مديات تأثير الأعراف على الأحكام الفقهية.

من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمَتنا، فإنا نفكُّهم ولا ندعُ أسيراً لا من أهل الملَّة ولا من أهل الذمة"[230].

وتأسيسا على هذا كله لم تنطبع فتاوى العلماء وأحكامهم في أي حال من الأحوال بالعدوانية أو الملاحقة فروح التواصل ومبدأ النفتاح بقي قائما بسبب المكون العقدي الذي غالب كل الظروف[231].

وتبقى أحكام الإسلام وقيّمه ومبادئه تُؤخذ من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية بقطع النظر عن طبيعة الظرفية التاريخية التي تمرّ بها المجتمعات المختلفة التي تظهر وتبرز فيها بعض التأويلات والآراء الفقهية التي تمثل في نهاية الأمر جهدا بشريا يحاول التوصل إلى فهم النص، وإمكانية الصواب والخطأ فيه واردة مشروعة.

كما أن سلف الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان هم أهدى هذه الأمة سبيلا، وأصحها إفهاما، وأقومها طريقا، وأفقهها لروح الإسلام، وأحرصها على اتباعه. فلا يُعدل إلى أقوال غيرهم أو من بعدهم، فهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون. **كل ذلك ينبغي أن يتناول في كليته على أساس أن الإسلام رسالة جامعة لها مقاصدها البعيدة السامية ولها اعتباراتها للأوضاع البشرية التاريخية.**

والتاريخ الاسلامي لا يخرج عن اجتهادات بشرية في تنزيل القيم على الواقع وفي تحويلها إلى سلوك واقعي فلا تعتبر تلك الفترات التاريخية أو غيرها أنها الدين أو أنها تمثيل مطلق لقيّمه ومبادئه. فالتاريخ وعاء الحياة الاسلامية العملية واستجابتها وتفاعلها مع تلك القيم الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وتبقى قراءتنا للتاريخ اليوم مدلفا لأخذ العبرة والدرس والتعلم من السلبيات والإصابات لمعرفة ما يمكن تجنبه وما ينبغي الوقوف عنده، فقد تقترب من الصواب وحينا تخالفه وهكذا. **فالظروف التي دفعت ببعض المسلمين إلى تغير معاملتهم لأهل الكتاب في ظل ظروف**

[230]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص 618.

[231]- أحميدة النيفر، المعيار والهوية والحوار قراءة في التجربة التاريخية للغرب الاسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الرابع عشر، دبي، الامارات العربية المتحدة، سبتمبر 1996م، ص 65.

معينة وأحداث تاريخية محددة لا ينبغي أن تبقى حاكمة على تاريخ أمة يمتد عمرها إلى قرون.

وفي عصرنا الحاضر يضاف إلى هذا كله، انتشار بعض المقولات التي اعتبرها البعض على أنها وحي ينبغي الاستدلال به والوقوف عنده، وليس الأمر كذلك. فقد شاع لدى البعض الاستدلال بقول:" بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده".

والحديث – كما يرى العلماء - لا يصح سنداً ومتناً، بل ويخالف صريح القرآن الذي لم يذكر في آية واحدة أن الرسول ﷺ بعث بالسيف. بل أكد في آيات عديدة أنه بعث بالهدى ودين الحق والرحمة للعالمين وللمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[232]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[233]، ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[234]ونحو ذلك كثير في القرآن.

فالإسلام كما تقدم لا يشهر السيف إلا في وجه من صدّ عن سبيله وقاومه بالقوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[235].

وعلى هذا تراكمت عوامل عدة في الإساءة إلى صورة التسامح الإسلامي الناصعة، الأمر الذي ظهر في كتابات بعض المؤلفين الغربيين ممن وصموا الاسلام بأنه دين التعصب وعدم التعايش والتسامح، وهو قول مردود على ألسنة المنصفين من كُتّاب الغرب وعلماءهم. يقول المؤرخ سميث في كتابه الإسلام في التاريخ الحديث:

" من الآراء غير الصحيحة التي نصادفها بين حين وآخر الرأي الذي مؤداه أن الإسلام دين التعصب وعدم التسامح وهما سمتان متلازمتان أبدا له. واعتراضنا على مثل هذه الدعوى أن التعصب يمكن أن يبرز في مرحلة تاريخية معينة وفي أي دين، بل ليس في الأديان فقط وإنما

---

[232]- سورة الأنبياء: 107.
[233]- سورة النحل: 89.
[234]- سورة التوبة، 128.
[235]- سورة البقرة: 190.

في النظريات والعقائد والحركات السياسية والاجتماعية المختلفة. وفي الوضع الذي نناقشه حالة الإسلام فإن متابعة النواحي التاريخية والاجتماعية والعقائدية(القرآن والسنة) للإسلام، لا تبيح لأي باحث ومراقب موضوعي الحديث عن التعصب الاسلامي. قد نجد بعض المسببات والدوافع النفسية والحالات الاجتماعية الطارئة بين الحين والآخر أو في بلد ما، ولكن ذلك لا يعطي الحق في التعميم إطلاقا"[236].

كما ظهر ذلك الفهم الضيق في ممارسات بعض المسلمين في العصر الراهن الذين ينظرون إلى بعض الآراء الفقهية على أنها تمثل الدين كله. فيسقطون النظر إلى عشرات النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ويقرأون ذلك كله من خلال رأي فقهي لواحد من العلماء رحمهم الله أو اجتهاد شخصي محكوم بأمور متعددة، فيقعون في فخ القراءة العضين التي حذر منها القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾[237].

وعلى الباحث المسلم اليوم وفي كل عصر قراءة التاريخ بنظرة عميقة وفهم ثاقب، للخروج من ذلك بالعبر وتجنب مواطن الزلل والخطأ فيه. فلا يلجأ إلى تغليب معاني بعض النصوص على نصوص أخرى لأنها لا تتناسب مع ما يروم الوصول إليه من أحكام مسبقة جاهزة، فهو مدلف ومزلق خطير. كما لا ينبغي الاستشهاد ببعض الآيات ونزعها من سياقها وقراءتها مجتزأة ليبرر سلوك العنف والقوة إزاء من لا يريد.

وتبقى نصوص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة الواردة في السنة النبوية هي الحاكمة على الآراء البشرية النسبية المحكومة بظرفية الزمان والمكان واختلاف العادات والأعراف والأحوال.

وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام جعل التسامح والتعايش سلوكا وفعلا في حياته. وهذا هو النهج الذي ينبغي الرجوع إليه وفقهه كلماا جنحت السبل أو زاغت الأفكار والتصورات.

[236]- W. C. Smith. Islam in Modern History,(London, 1963), p.98.

[237]- سورة الحجر، 91.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يزور مرضى غير المسلمين ويكرمهم ويحسن إليهم ويأخذ منهم ويعطيهم. وروى ابن حجر العسقلاني عن سعيد بن المسيب[238] أن النبي ﷺ تصدق على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم[239].

وروى البخاري عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَسْلِمْ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ[240].

وعلى هذا استدل بهذا الحديث بعض الفقهاء فقالوا عيادة الكافر فعل حسن[241]، وذهبوا إلى جواز ذلك[242].

وعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ[243].

فهذا النوع من التعامل يحمل في طياته أسمى معاني التعايش والتسامح الذي تؤكده حسن المعاشرة واللطف في المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية والبر والرحمة والإحسان التي حظي بها أهل الذمة في كنف الرعاية النبوية السامقة[244].

238- أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. توفي عام 94هـ. انظر ترجمته: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، مرجع سابق، ص 25.

239- ابن حجر العسقلاني، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 266. وقال عنه مراسيل يشد بعضها بعضا. وانظره كذلك في: محمد بن عبد الواحد السيواسي،شرح فتح القدير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، بدون، ج2، ص 267.

240- رواه البخاري. الجنائز، حديث رقم 1268. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987م، ج1، ص 445.

241- ابن حزم، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج5، ص 173.

242- انظر أحمد بن محمد الطحاوي، حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح، مكتبةالبابي الحلبي، الطبعة الثالثة، مصر، 1318هـ، ج1، ص 367. محمد الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، دار الفكر، بيروت، بدون، ج1، ص 330. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، المبدع، المكتب الاسلامي، بيروت، 1400هـ، ج13، ص 419. وانظر: عبد الله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1408هـ/1988م، ج1، ص 273.

243- سنن الترمذي. وقال عنه حديث حسن غريب. البر والصلة عن رسول الله ﷺ.1866.

244- للمزيد راجع: يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الاسلامي، مكتبة وهبة، مصر، 1977م، ص 47 وما بعدها.

وعلى هذا فالتسامح والتعايش مع المخالف لا يكون عبر شعارت تنظيرية بل ينبغي أن يتحول إلى سلوكيات تطبيقية في الحياة الواقعية، كما كان عليه الحال في عهد النبي عليه الصلاة والسلام. فمن خلال تلك المجالات المنفتحة والسلوكيات الراقية المهذبة، ينمو الحوار السلوكي والقولي ليخرج المخالف والشخص ذاته من القوقعة الاجتماعية التي يحياها مع الآخرين. وهذا الأسلوب تعبير حضاري راسخ عن إمكانية الإنسان في مدّ جسوره مع الآخرين وتعاونه معهم في إطار يظهر انفتاحية المسلم ووعيه وسعة أفقه وبُعد نظره. فكلما زاد تعاونه مع الغير، ارتفع حسه الإنساني وتعاظمت طاقاته الذاتية وتسامت قيمه الأخلاقية وأصبح أكثر قدرة على العطاء البنّاء.

وقد قدّم النبي عليه الصلاة والسلام من خلال مواقف - يضيق المقام بذكر جميعها أو سرد معظمها- تطبيقا لهذا النهج، ونموذجا سلوكيا لتحفيز الروح الجماعية بين المسلمين ومن خالفهم في المجتمع الواحد في التعاون على الخير والبر، والتي تعد من أهم مقومات التعايش السلمي بين الناس على اختلاف نماذجهم وعقائدهم، ومن أنجح وسائله كذلك.

فالتعاون مع كل من يريد تحقيق أمر هو خير بمقياس الدين، بغض النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم، براً أو فاجراً، منافقاً أم صادقاً، حاكماً أو محكوماً. وقد عبر عن هذا المبدأ الإمام ابن القيم بما لا مزيد عليه، قال رحمه الله في بيانه للفوائد الفقهية المستفادة من صلح الحديبية، في كتابه زاد المعاد: "ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرم الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مم سوى ذلك، فكل من التمس على محبوب لله تعالى مرضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق"[245].

ومن ذلك ما ذكرته كتب التاريخ أيضا من حلف الفضول الذي شارك فيه النبي عليه الصلاة والسلام. فقد تحالفت قريش على أن لا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم

[245]- ابن القيم، زاد المعاد، مرجع سابق،ج3، ص 303.

إلى نصرته الا انجدوه حتى يردوا إليه مظلمته أو يبلغوا في ذلك عذرا وعلى ان لا يتركوا لاحد عند أحد فضلا الا اخذوه وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر[246].

وقد أشار إلى ذلك بعد قدومه المدينة بسنوات فعن عبد الرحمن بن عوف ﵁ عن النبي ﷺ قال: شهدت حلف المطيبين من عمومتي وأنا غلام فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه. وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ أَوْفُوا بِحِلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ يَعْنِي الْإِسْلَامَ إِلَّا شِدَّةً وَلَا تُحْدِثُوا حِلْفًا فِي الْإِسْلَامِ[247].

فالمعاملات والعهود التي يراد بها تحقيق العدل الاجتماعي بين الناس وتستهدف الخير والمعروف والإنصاف قيّم ينبغي التعاون فيها. وعلى هذا أكدها النبي ﷺ في المجتمع وحض عليها.

والنبي عليه الصلاة والسلام بذلك النهج، استأصل جذور كل التوجهات التعصبية ليقي المجتمع والدولة الاسلامية من مخاطر التعصب الناجم في كثير من الأحيان عن الحواجز النفسية بين الناس. تلك الحواجز المانعة من التعايش المقوّضة للتعارف الإنساني.

يقول **آدم متز** واصفا حالة التعايش السلمي بين المسلمين ومخالفيهم في العقيدة:" كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون وكان الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الامر نوعا من التسامح الذي لميكنمعروفا في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذاالتسامح نشوء علم مفارنة الأديان اي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم ..."[248].

ويقول في موضع آخر:" إن تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى ، كان سببا في نشأة علم لم يكن قط من مظاهر العصور

[246]- أخبار مكة، ج5، ص 192.
[247]- رواه الإمام أحمد، مسند احمد، السير عن رسول الله، ما جاء في الحلف، رقم 1511.
[248]- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرين نقله إلىالعربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، 1957م، ج1، ص 57.

الوسطى في الغرب وهو علم مقارنة الأديان أو مقارنة الملل. وإن أكبر فرق بين الامبراطورية الإسلامية وأوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين..يتمتعون بنوع من التسامح لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى. ومظهر عذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم"[249].

وتبقى شهادة التاريخ أكبر من أن يحاط بها في كلمات. فالإسلام هو أول دين على الاطلاق يشتمل في منظومته على موقف واضح صريح من الآخر المختلف ويكفي أنه لم يثبت وعلى مرّ التاريخ الاسلامي حدوث حملات إبادة جماعية بسبب الدين أو المعتقد[250].

يقول السير توماس أرنولد صاحب مؤلف الدعوة إلى الإسلام:" إنه من الحق أن نقول أن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلا لها في اوروبا قبل الأزمنة الحديثة.. وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح"[251].

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه:" لعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم حتى إن الملك الفارس كيروس نفسه قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون مخربين. فيما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد اسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة على تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددا ضئيلا من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة"[252].

---

[249]- المرجع السابق، ج1، ص 288.

[250]- عبد الواحد العلمي، حرية الاعتقاد في الإسلام ..دلالات وإشكالات، رؤى، السنة الثالثة، العدد 14، شتاء 2002م، ص 20.

[251]- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، 1970م، ص 729-730.

[252]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 358.

ويأتي علماء النفس الاجتماعيين في العصر الحديث مؤكدين الحقيقة التي سبق السلوك النبوي إليها منذ قرون، أهمية الاتصال المباشر Direct Contactبين الجماعات المختلفة لمواجهة التوجهات التعصبية والوقاية منها والتعايش السلمي بين الأفراد.

كما أكدوا أن الاتصال المباشر والفعّال بين الجماعات يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية والاعتقادات الخاطئة، وأن التقارب Proximity والتفاعل يزيدان من المود والتآلف كما يحدثان في ظروف الحياة الطبيعية.

ومن التطبيقات الحديثة لذلك: لقاءات الطلبة مختلفي الجنسيات والأديان في بعض الدول، لقاءات أعضاء المؤسسات المختلفة من تعليمية وترفيهية وإعلامية وصحية الذين ينتمون إلى ديانات وملل مختلفة في دورات ومؤتمرات ونحو ذلك في إطار عملهم وميدانهم الخاص.

وهناك الكثير من البحوث والدراسات التي أوضحت أن الاتصال المباشر بين الجماعات يقلل من مقدار التنافر والإقصاء للآخر وتجنبه وصياغة قوالب نمطية للتعامل معه. كما تبين أن المناطق التي يوجد بها مساكن عامة مشتركة يعيش فيها جماعات مختلفة عرقيا أو دينيا، تقل لدى قاطنيها مشاعر الخصومة والكراهية مقارنة بالمناطق الآخرى المنفصلة[253].

ويرى الباحثون أن التواجد في مكان أو حيز جغرافي واحد غير كاف لإيجاد روح التعايش السلمي بين الجماعات المختلفة. بل لابد من إيجاد جوّ تفاعل اجتماعي وثيق مثل التداخل في أماكن العمل لتحقيق تفاعل وثيق بين أفراد المهنة الواحدة من مختلف الديانات والملل وهو أمر صاغته السيرة النبوية في تعاملها مع المخالفين في المجتمع الواحد بشكل خاص.

إضافة إلى إيجاد عمل مشترك يتم من خلاله تعاون مشترك في إنجاز عمل محدد. ومن ذلك المشاركة في القضايا العامة التي تهم مختلف الجماعات كالمحافظة على البيئة والاهتمام بها، سبل التخلص من المشاكل المتعلقة بالتدخين والمخدرات...الخ ذلك من موضوعات تشترك في

[253]- Yinger, J. M&Simpson, G. E(1973). Techniques for reducing prejudice; Changing the prejudiced person in: P. Waston (Ed), Psychology and Race, Chicago Aldine Bublishing Company, pp. 96-145.

الاهتمام بها أمم العالم بأسرها. ومن ثم إيجاد مداخل لإنشاء حوارات بين أرباب تلك المهن والاهتمامات خاصة وأن الجامع بينهم واحد.

ثانيا: تحقيق الاجتماع والالفة والاعتصام بحبل الله بين المسلمين

يضاف إلى أساس التعايش السلمي والتسامح بين الناس عموما، خصوصية ينبغي الوقوف عندها في ثنايا الحديث عن الحوار مع المخالفين المسلمين، ألا وهي التأكيد على مبدأ الاجتماع.

والاجتماع لغة: من جمع الشيء أي ألّف متفرقه وأصل المعنى الضم. قال ابن فارس: الجيم والميم والعين، أصل واحد يدل على تضام الشيء يقال جمعت الشيء جمعا وتجمع القوم اجتمعوا من هنا وهنا واجتمع القوم: انضموا وهو ضد تفرقوا. وأجمع القوم اتفقوا وأجمع الرأي والأمر عزم عليه[254].

ولا يختلف معنى الاجتماع في الشرع عن معناه في اللغة، وهو أن يلتقي المسلمون وينضم بعضهم إلى بعض ولا يتفرقوا. أما الامر الذي يجتمعون حوله فهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[255].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[256]:" إن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة. وروي عن عبد الله بن مسعود ﷺ في الآية الكريمة أن حبل الله هو الجماعة. ولا تفرقوا يعنى في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم.

ويجوز أن يكون معناه ولا تفرّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة وكونوا في دين الله إخوانا فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر. ودلّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[257].

254- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج9، 47.

255- لجنة من المختصين بإشراف: صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1418ه/ 1998م، ج2، ص 42.

256- سورة آل عمران: 103.

257- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، مكتبة الشعب، الطبعة الثانية، 1372ه، ج4، ص 159.

ويرى القرطبي رحمه الله أن هذه الآية أوضحت **السبب الأساس في اجتماع الكلمة ووحدة الصف ألا وهو التمسك التام بالقرآن والسنة والرجوع إليهما عند حدوث أي اختلاف فهما صمام الأمان الذي به تدفع الفرقة والتقاطع**[258].

والألفة بين القلوب المؤمنة هي أول ثمرة من ثمار الإيمان، قال تعالى ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[259]. فالألفة الحاصلة بين القلوب كفيلة بإذكاء المحبة وغرس الثقة بين المسلمين والتجاوز عن الهفوات والعثرات.

وقد ركزت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على هذه الأخوة الإيمانية واعتبرتها الأساس القوي المتين الذي تقوم عليه الرابطة بين المسلمين.

من هنا كان عقد الإخاء بين المسلمين من أوائل الأعمال التي قام بها النبي عليه الصلاة والسلام حال وصوله المدينة. فكانت قاعدة الأخوة والمحبة بين المؤمنين من أهم سبل إقامة الدولة الاسلامية وتثبيتها. وقد ظهرت تلك الأخوة العميقة وأثمرت في زمن لم تعرف فيه البشرية طعم التعايش السلمي، خاصة أنها جاءت بعد فترات حروب طاحنة قضت على معاني الألفة والمحبة بين الناس.

وعلى هذا كانت تلك الأخوة محطّ إعجاب العديد من المفكرين الغربيين، يقول الكاتب الروسي (تولستوي) في ذلك: "مما لا ريب فيه أن النبي محمّداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلامة وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة.. ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام".

بل إن القرآن الكريم جعل تلك الأخوة ممتدة لتصل بالإنسان إلى الدعاء لأخوته المؤمنين الذين لم يرهم ولم يلتق معهم في حياته. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾260.

258- بتصرف عن: القرطبي، مرجع سابق، ج4، ص 164.

259- سورة الأنفال: 63.

260- سورة الحشر: الآية 10.

بل إن النصوص القرآنية بلغت مبلغا عظيما حين قررت أن تلك الاخوة لا تزول حتى إن وقع من المؤمن جريمة القتل، يقول الله تعالى في ذكر العفو عن القاتل من قبل أولياء المقتول: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[261]. قال في تفسير الجلالين: "وفي ذكر أخيه تعطُّفٌ داعٍ إلى العفو، وإيذانٌ بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان، وكما أن المؤمنين قد يتصرفون تصرفات تتنافى مع ما تقتضيه أخوة الإيمان من تعاون، فإن أصحاب القلوب المتنافرة قد يتعاونون على فعل الشر، فاجتماعهم ليس اجتماع قلوب، وإنما هو اجتماع أجساد".﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾[262].

يقول ابن تيمية رحمه الله في بيان أهمية أصل الاجتماع:" هذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به فى كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم فى مواطن عامة وخاصة"[263].

وقد أدرك الصحابة أهمية هذا الأصل وضرورته في تقوية عرى إيمان الفرد والجماعة، فتمسكوا بتلك الوحدة. فكانوا يتناظرون فى المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة وربما اختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية ولكن الألفة والعصمة وأخوة الدين لا تختلف في قلوبهم[264]. بل قد تصدر من بعضهم عبارات تنّم عن تخطئة أحدهم للآخر إلا أن ذلك لا يعني بحال مفارقة ذلك الأصل العظيم.

فقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة فى رؤية النبي ﷺ ربه وقالت: من زعم أن مُحَمَّدا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية. وجمهور الأمة على قول ابن عباس مع أنهم لا يبدّعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضى الله عنها. كما كثر الاختلاف بينهم في مسائل تتعلق بالأحكام كثيرا، فلم تغير شيئا من صدق اخوتهم ومحبتهم، امتثالا منهم لأمر الله ورسوله ﷺ كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

[261]- سورة البقرة: 174.
[262]- سورة الحشر:14.
[263]- ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، ج22، ص 360.
[264]- ابن تيمية، ج24، ص 172.

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ "[265]. وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ إِنَّمَا يَعْنِي الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَقَوْلُهُ الْحَالِقَةُ يَقُولُ إِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ "[266].

فوحدة المسلمين هي الأصل الأصيل، والركن المتين الذي إن تحقق، فإن الخلاف مهما عظم شأنه، وعلت درجته، وتعاظمت مكانته، يبقى أمرا طارئا يمكن معالجته ضمن ذلك الأصل العظيم.

فالإسلام جاء ليقيم جماعة، وينشئ أمة يرتبط أفرادها برباط الاخوة والتحاب. فكانت دعوته لتوحيد الكلمة تلازم الدعوة إلى توحيد الله عز وجل. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[267]. بل الله سبحانه وتعالى سمَّى الإيمان وِحْدَة وسمّى التفرقة كفراً فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. [268]

فالله سبحانه هنا يحذر المؤمنين قائلاً لهم: إن تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب يردّوكم بعد وحدتكم متفرقين، ولذا جاء بعد ذلك الاستفهام الإنكاري، فيكون المعنى: وكيف تتفرقون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله[269].

و يؤيد هذا التأويل ويؤكده سبب نزول هاتين الآيتين والآيات التي قبلها وبعدها. فقد نزلت في شأن الأوس والخزرج عندما كادوا يقتتلون بسبب فتنة ومكر من عدو الله اليهودي شاس بن قيس عندما ذكّرهم بيوم بُعاث، إلا أن الله عصمهم من هذا الشر قبل وقوعه بإدراك الرسول ﷺ لهم ووعظه إياهم وإصلاحه ذات بينهم[270].

ويؤكد هذا المعنى أن النبي ﷺ أيضاً سمَّى التفرقة كفراً. فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَرْتَدُّوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.[271].

---

[265]- رواه الترمذي وقال عنه حديث صحيح غريب. سنن الترمذي، صفة القيامة، رقم 2432.
[266]_ ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج24، ص 173--174.
[267]- سورة المؤمنون:52.
[268]--سورة آل عمران: 100– 101.
[269]- انظر الصحوة الاسلامية للقرضاوي ص22.
[270]- تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج1، ص 390.
[271]- رواه البخاري في الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا ترجعوا بعدي كفارا)) 32/13 ، حديث رقم 7078، ومسلم في الفتن في باب: ((إذا تواجه المسلمان بسيفهما)) 11/18.

ومثله قوله ﷺ:" إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ.[272]

كما اعتبر القرآن التفرق والشقاق سلوكاً لمنهج الضالين والمنحرفين من الأمم التي سبقتنا، فقال محذراً لنا منه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[273]. وقال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[274]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾[275].

و جاءت السنة في أكثر من حديث تؤكد معاني الأخوة والمحبة بين المسلمين وأهميتها ومن ذلك:

ما رواه النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "[276]. و قوله صلى الله عليه وسلم: "عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ..)"[277]. و عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم"[278].

بل إن النبي ﷺ اعتبر الخروج على كلمة المسلمين وتمزيق عرى الأخوة بينهم من أغلظ الأمور الناقضة للإسلام والإيمان. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ

---

[272]- رواه البخاري في الإيمان باب: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) 115/11، حديث رقم 31، ومسلم في الفتن باب: (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما) 339/10.

[273]- سورة آل عمران: 105.

[274] - سورة الروم: 32،31

[275]- سورة النساء: 115

[276]-رواه مسلم في البر والصلة باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، 17/10.

[277]- رواه البخاري في الأدب باب: تعاون المسلمين بعضهم بعضاً، 551/10 حديث رقم 6026 ومسلم في البر والصلة باب: تراحم المسلمين..، 17/10.

[278]-رواه أبو داود في الديات باب: إيقاد المسلم بالكافر، 179/4، حديث رقم 2683.

يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ[279]. وفي رواية أخرى عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إن من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه))[280].

فاية محاولة للخروج عن الجماعة وتفريق الشمل، تعد من المخاطر والأعمال المحبطة لإيمان الشخص. عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ..عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ[281].

والوحدة الواجبة على الأمة المسلمة الأصيلة في فكرها ومبادئها، لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والأعراف والمواريث الثقافية المتعددة الموجودة بين أفراد الأمة المسلمة. فهو تنوع في إطار الوحدة الجامعة، وهو أشبه بتنوع المواهب والميول والأفكار والتخصصات داخل الأسرة الواحدة. فلا يعني التوحد، أن يكون الناس على رأي واحد فهو أمر مخالف للطبيعة البشرية. كما لا يعني أن يختلفوا لمجرد الاختلاف أو أن يؤدي اختلافهم في المسائل مدعاة للشقاق والنزاع والعداوة المنهي عنها بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المتضافرة. قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [282]وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[283]..

[279] -رواه مسلم في الإمارة باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن 139/12.
[280]- رواه أحمد في المسند 202/4.
[281]- رواه الترمذي في الفتن باب: ما جاء في لزوم الجماعة، 404/4 و405 حديث رقم 2165 والنسائي في عشرة النساء.
[282] - سورة الأنفال: 46.
[283]- سورة الأنعام: 159.

والقاعدة التي ذهب إليها العلماء أن الأصل في علاقة المسلمين مع بعضهم البعض الألفة والمودة والمحبة والاجتماع لا التفرق، وعلى هذا ذهب الإمام ابن تيمية أنه **من السائغ أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب وإجتماع الكلمة خوفا من التنفير عما يصلح** كما ترك النبي عليه الصلاة والسلام بناء البيت على قواعد إبراهيم لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية وخشي تنفيرهم بذلك ورأى أن **مصلحة الإجتماع والإئتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم**[284].

واتضح ذلك النهج النبوي في سلوكه عليه الصلاة والسلام فكان يربي أصحابه على وحدة الصف وترك الأمور التي يمكن أن تؤدي إلى وقوع الفرقة والنزاع. فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً قَدْ سَمِعْتُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِلَافَهَا فَأَخَذْتُهُ فَجِئْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَرَاهِيَةَ قَالَ كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ لَا تَخْتَلِفُوا أَكْبَرُ عِلْمِي قَالَ مِسْعَرٌ قَدْ ذَكَرَ فِيهِ لَا تَخْتَلِفُوا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمْ[285].

أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا قَالَ فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ[286].

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا النهج فساروا عليه في اجتهاداتهم ونظرتهم للأمور والمسائل التي يمكن حدوث الاختلاف فيها. فرأوا تجنب الخلاف فيها هو الأولى خشية وقوع الفرقة والتنافر بين المسلمين.

ومن ذلك ما ورد عن أبي قلابة أن رجلين رأيا الهلال وهما في سفر فتعجلا حتى قدما المدينة ضحى فأخبرا عمر بن الخطاب بذلك فقال عمر لأحدهما اصائم أنت؟ قال: نعم قال:لم؟ قال: لأني كرهت أن يكون الناس صياما وأنا مفطر فكرهت الخلاف عليهم فقال للآخر

[284]- ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، مرجع سابق، ج22: 436-437.
[285]- مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود، حديث رقم 4134.
[286]- صحيح مسلم، باب العلم، حديث رقم: 4818.

فأنت قال أصبحت مفطرا قال لم قال لأني رأيت الهلال فكرهت أن أصوم فقال للذي أفطر لولا هذا يعني الذي صام لرددنا شهادتك ولأوجعنا رأسك ثم أمر الناس فأفطروا وخرج[287].

وفي الصحيح عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صَلَّى بِنَا عُثْمَانُ بِمِنًى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فَقِيلَ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَاسْتَرْجَعَ ثُمَّ قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ فَلَيْتَ حَظِّي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ رَكْعَتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ[288]. ثم إن عبد الله بن مسعود ﷺ صلى أربعا فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا فقال: الخلاف شر[289].

وقال عمر ﷺ:" لا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافا. ولما سمع أبي ابن كعب وابن مسعود يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين صعد المنبر وقال رجلان من أصحاب النبي ﷺ اختلفا فعن أي فتياكم يصدر المسلمون لا أسمع اثنين اختلفا بعد مقامي هذا إلا صنعت وصنعت"[290].

287- أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، نحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الاسلامين بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ، ج4، ص 165. رقم 7338.

288- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987م، ج1، ص 368. رقم 1034. صحيح مسلم، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم 1122

289- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ/ 1994م، ج3، ص 143. رقم 5219.

290- محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، اعلام الموقعين، مرجع سابق، ج1، ص 260.

الفصل الثالث

أساس اتباع الحق والعدل

أولا: الإنصاف مع المخالف مطلقا

الإنصاف هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله[291]. وكذلك الإنصاف في الخدمة وهو أن يعطي صاحبه ما عليه بإزاء ما يأخذ من النفع[292].

وللإنصاف أنواع عديدة منها أن ينصف المرء الناس فيقوم بإنصاف الغير من نفسه أو ممن يحب، حتى لو كان هذا الغير مخالفا له في الرأي أو في الدين أو في المذهب أو غير ذلك مما يقتضي التحامل أو يكون مظنة الجور.

يقول ابن القيم في ذلك:" أن تؤدي حقوقهم وألا تطالبهم بما ليس لك وألا تحملهم فوق وسعهم وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به وأن تعفيهم مما تحب أن يعفوك منه وأن تحكم لهم أو عليهم بما تحكم لنفسك أو عليها"[293].

وقد كان من دلائل سماحة الإسلام وعظمة مبادئه أن أقر مبدأ إنصاف العدو وتبرئة ساحته مع مخالفته في الدين. كما جاء في سبب نزول الآية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[294]. التي نزلت في أن طعمة بن أبيرق سرق درعا في جراب فيه دقيق لقتادة بن النعمان وخبأها عند يهودي فحلف طعمة مالي بها

---

[291]- محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1410هـ، 64.

[292]- المفردات، ص 754.

[293]- الفوائد، ص 49.

[294]- سورة النساء: 105.

من علم فأتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي فقال اليهودي: دفعها إلى طعمة فلما همّ رسول الله ﷺ بالقضاء في المسألة نزلت الآيات الكريمة تبرئ ساحة اليهودي وتنصفه[295].

فقد أقر القرآن هذا المبدأ وعززته السنة الفعلية للنبي عليه الصلاة والسلام فما كان لينصر مسلما على يهودي لمجرد أنه مسلم. **فالاختلاف في الدين بل والعداوة لا تمنع المسلم من إقامة العدل والإنصاف وتحقيقه وهذا أدب رفيع لا ينبغي أن تخلو ساحة الحوار منه مطلقا.**

وجاء نص القرآن الكريم صراحة آمرا المسلمين بالبر والقسط والعدل مع المسالمين من غير المسلمين قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[296]. يقول الطبري في تفسير هذه الآية:" **أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم** إن الله عز وجل عمّ بقوله: ﴿الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضا دون بعض. ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ لأن بر المؤمن لأهل الحرب ممن بينهم وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينهم وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الاسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.."[297].

أما النهي فموجه لأولئك الذين يؤمنون بعدم إمكانية التعايش وضرورة إقصاء من يخالفهم حتى تتحقق لهم الهيمنة والسيادة وهم في الآية كفار قريش. فقد أرادوا القضاء على الدعوة الجديدة في مكة وحالوا دون إيصالها لغيرهم، وقاموا بإخراج المؤمنين بها من ديارهم وأموالهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[298].

---

[295]- رواه الترمذي في حديث طويل وقال عنه حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحراني، باب تفسير القرآن عن رسول الله، رقم 2962.

[296]- سورة الممتحنة:8.

[297]- الطبري، تفسير الطبري، ج28، ص 66.

[298]- سورة الممتحنة:9.

وإن تضافر النصوص القرآنية على ذكر السمات الايجابية التي يتسم بها بعض المخالفين من يهود ونصارى، أكبر دليل على إنصاف الإسلام وعدالته. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[299]. وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾[300].

وقد يدفع الهوى الإنسان لظلم مخالفيه قولا أوفعلا بل والتشهير بهم ليصرف الغير عنهم. إلا أن نصوص الوحي قرآنا وسنة اجتثت ذلك التوجه واعتبرته ظلما لا يبرره مسوغ. والناظر في النصوص القرآنية التي عرضت آراء الكفار وأقوالهم وافتراءاتهم على الله عز وجل وعلى نبيه صلىالله عليه وسلم وغيره من أنبياء الله، يلحظ خلوها المطلق من التعرض لشخوص الكفار بالهمز أو اللمز أو التعريض المباشر لهم. بينما يتوجه الحوار القرآني إلى الأفكار ومناقشة الأقوال دون الخوض في الأشخاص. وهو أدب رفيع تجلت آثاره في السنة النبوية قولا وفعلا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[301].

والعدل والإنصاف منهجٌ دقيق يُمثّل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد، المخالف والموافق دون تمييز بين مسلم أو غير مسلم بل ينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كلّ أحد. فمبدأ الظلم محرم بكل حال، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً، ولو كان كافراً[302].

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُم وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي فَقَالُوا بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا ".[303].

---

[299]- سورةالأعراف:159
[300]- سورة النساء: 135.
[301]- سورة المائدة: 8.
[302]- ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، 1403هـ، ج2، ص247 – 247.
[303]- مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله، رقم 14425.

والتشهير بالمخالف والنيل من شخصه والتعرض له والتجريح به من قبيل الظلم فهو منهي عنه. وهو أمر يعود في جذوره إلى النفس الإنسانية التي ترى في النيل ممن يخالفها إرضاءً للذات وانتصارا لها.

ونصوص الوحي تقوم على الدعوة إلى الفضائل بالحسنى والبعد عن اتهام الآخرين، وعلى هذا ورد النهي عن جملة من الأمور التي يمكن أن تسوق إلى الوقوع في الآخرين.

ومرّد النيل من المخالفين اتباع الهوى الإنساني. فالهوى من النوازع الخفية التي تتسلل إلى قلب المرء تدريجياً حتى تسيطر عليه من حيث لا يشعر، وهو باب عريض من أبواب الضلال فلا يولّد في أحكام المرء إلا الجور والظلم. ولهذا أوصى الله عز وجل نبيه داود ـ عليه السلام ـ بالحذر من الهوى، فقال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[304].

ومما يدخل في دائرة العدل والإنصاف مع المخالف عدم التعرض لشخصه أو النيل منه بالتجريح ونحوه، ونشر ثقافة تتبنى النهج القرآني والأدب النبوي في الحديث عن الآخرين. حيث يكون التوجه فيه لمناقشة القول مهما عظم، والابتعاد عن التوجه صوب الشخص. وقد ساق القرآن الكريم العديد من الأمثلة في ذكر أقوال المشركين والكفار وافتراءاتهم على الله عز وجل دون الوقوف عند شخوصهم مطلقا وفي ذلك تأكيد لهذا النهج وحضّ عليه. وعلى هذا جاء القرآن الكريم عارضا لاقوال المشركين والمنكرين لوجود الله وقدرته سبحانه دون إشارة ولو عابرة إلى شخص أحد منهم أو مجرد الوقوف عن تفاصيلها. قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ وفي هذا تأكيد كذلك لمناقضة هذا النهج لمبدأ العدل والإنصاف...

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إن ساءه أمر، قال: ما بال أقوام يفعلون كذا...أما ما يحدث من توجيه النقد لشخص المخالف والنيل منه، وإسقاط أوصاف معينة عليه ونشرها عنه دون التثبت والتروي والورع فيما يقول الإنسان عن غيره، فهو أمر مناقض لأصول الإسلام وقواعده. قال تعالى: ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ويخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾.

---

[304]- سورة ص:21

لقد كان النهج النبوي واضحا فلم يحابي فكرة على حساب أخرى، ولم يضيق على اتجاه ليوسع لاتجاه آخر، ولم يغمط حق أحد من مخالفيه لمراعاة الذات، ولم يناصر دعوته على غيرها لمجرد العصبية أو بدافع هوى. بل فتح آفاق الحوار مع المخالفين بأسلوب كان العدل رائده والإنصاف ديدنه.

ثانيا: حرمة عرض المسلم

اعتبر النبي ﷺ من الصفات الأساسية للمسلم عدم إيذائه المسلمين باليد أو اللسان.

عن ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الزُّبَيْرِ يَقُولُ سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[305]

وقد تضافرت نصوص الوحي تأكيدا لهذا الأدب بل الأمر الإلهي. وعلى هذا جاء النهي عن كل ما يمكن أن يؤدي إلى الحط من قدر المسلم مهما بلغت درجة المخالفة له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"[306].

وفي الأحاديث تحريم للاعتداء على المسلم في دمه وماله وعرضه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ التَّقْوَى هَا هُنَا بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"[307].

وهذا يتضمن تجنب التشهير بالمخالف المسلم خاصة، ويكتفى بتبيان الأوصاف والأفكار عوضا عن التركيز على الأشخاص والطعن بهم ومحاولة التشهير بهم. عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ "يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ قَالَ

---

[305]- رواه مسلم، باب الإيمان، رقم 58.

[306]- رواه مسلم، البر والصلة والآداب، رقم 4690.

[307]- رواه الترمذي، البر والصلة عن رسول الله، رقم 1850.

وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ"[308].

فهذه الرابطة المتينة من الأخوة والمحبة بين المسلمين، التي كرستها نصوص الوحي بصورةمباشرة وغير مباشرة، تؤكد أهمية هذا الأساس الذي لاينبغي تفويته بحال كما لا ينبغي تعريضه للتصدع أو الخلل وإن وقع بينهم قتال أو نزاع.

فقد قال القرآن الكريم في المقتتلين من المسلمين مع بعضهم: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. فلم ينزع عنهم لباس الإيمان وربقة الأخوة وعراها وإن وقع منهم قتال وحصل بينهم نزاع وفي هذا تأكيد لمعاني الأخوة وأهمية الحفاظ عليها مطلقا.

وبجملة هذه النصوص وغيرها اجتث الإسلام دافع الهوى والنزعة إلى النيل من الآخرين باعتبار مناقضته لصريح إيمان المسلم ولما يترتب عليه من إيقاع الأذى وإن كان لفظا والضرر باسره مرفوع في الشريعة. وبقيت الفكرة تدور حول التوجه نحو الأفكار والسلوكيات غير الصحيحة والتنبيه عليها دون الإشارة إلى فاعلها وهو أدب جم يتلاءم مع الشريعة الإسلامية وأحكامها.

بل إن النهج النبوي جعل الحفاظ على عرض المسلم وعدم إهانته والدفاع عنه في حال غيابه من أعظم القربات وحذر من خلاف ذلك. فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولَانِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ"[309].

---

[308]- رواه الترمذي وقال عنه غريب، البر والصلة عن رسو ل الله صلى الله عليه وسلمن رقم 1955.

[309]- سنن ابي داود، باب الادب، حديث رقم 4240.

وقد فَقِه صحابة النبي عليه الصلاة والسلام هذه المعاني الجليلة، فظهرت في تعاملهم مع عامة الناس. ومن ذلك ما روي عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قُرَّةَ قَالَ كَانَ حُذَيْفَةُ بِالْمَدَائِنِ فَكَانَ يَذْكُرُ أَشْيَاءَ قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي الْغَضَبِ فَيَنْطَلِقُ نَاسٌ مِمَّنْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ حُذَيْفَةَ فَيَأْتُونَ سَلْمَانَ فَيَذْكُرُونَ لَهُ قَوْلَ حُذَيْفَةَ فَيَقُولُ سَلْمَانُ حُذَيْفَةُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ فَيَرْجِعُونَ إِلَى حُذَيْفَةَ فَيَقُولُونَ لَهُ قَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَكَ لِسَلْمَانَ فَمَا صَدَّقَكَ وَلَا كَذَّبَكَ فَأَتَى حُذَيْفَةُ سَلْمَانَ وَهُوَ فِي مَبْقَلَةٍ فَقَالَ يَا سَلْمَانُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُصَدِّقَنِي بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَلْمَانُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَغْضَبُ فَيَقُولُ فِي الْغَضَبِ لِنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَرْضَى فَيَقُولُ فِي الرِّضَا لِنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَمَا تَنْتَهِي حَتَّى تُوَرِّثَ رِجَالًا حُبَّ رِجَالٍ وَرِجَالًا بُغْضَ رِجَالٍ وَحَتَّى تُوقِعَ اخْتِلَافًا وَفُرْقَةً وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ فَقَالَ أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فِي غَضَبِي فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ صَلَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ أَوْ لَأَكْتُبَنَّ إِلَى عُمَرَ"[310].

وهو موقف ينّم عن فهم عميق لنصوص الوحي وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في الأدب والتعامل مع الناس والحفاظ على الألفة والمودة بين المسلمين. كما يشير إلى ضرورة النظر في مآل الفعل والقول الصادر عن الإنسان. فلا يكتفى بالنظر في صحة القول والتأكد منه، بل يستحضر مآل وعاقبة إشاعة ذلك القول وما يترتب عليه.

وقد يقع البعض في الخوض في مخالفيهم والنيل منهم تحت رداء ضرورة تعريف الناس بالمبتدعين واجتنابهم. والبدع مأمور باجتنابها واجتناب أهلها والتحذير منها وقد نبه النبي عليه الصلاة والسلام على البدع بالتفصيل وأشار إلى خواص عامة فيهم وخاصة ولم يصرح بالتعيين غالبا، لقطع العذر ولا ذكر فيهم علامة قاطعة لا تلتبس[311]. يقول الشاطبي في هذا السياق: " والغالب في هذه الفرق (أي الفرق الإسلامية) أن يشار إلى أوصافهم ليحذر منها ويبقى الأمر فى تعيينهم مرجى كما فهمنا من الشريعة ولعل عدم تعيينهم هو الأولى الذى ينبغي أن يلتزم ليكون سترا على الأمة كما سترت عليهم قبائحهم فلم يفضحوا فى الدنيا بها فى الحكم الغالب العام وأمرنا بالستر على المذنبين ما لم يبد لنا صفحة الخلاف ليس كما ذكر عن بنى إسرائيل أنهم كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح وعلى بابه معصيته مكتوبة وكذلك فى

[310]- سنن أبي داود، السنة، رقم 4040.
[311]- الشاطبي، الموافقات، ج4، 183-184.

شأن قرابينهم فإنهم كانوا إذا قربوها اختلفا النار المقبول منها المقبول وفي ذلك افتضاح المذنب إلى ما أشبه ذلك فكثير من هذه الأشياء خصت بها هذه الأمة. وقد قالت طائفة إن من الحكمة في تأخير هذه الأمة عن سائر الأمم أن تكون ذنوبهم مستورة عن غيرهم فلا يطلع عليها كما اطلعوا هم على ذنوب غيرهم ممن سلف. وللستر حكمة أيضا وهي أنها لو أظهرت مع أن أصحابها من الأمة لكان في ذلك داع إلى الفرقة والوحشة وعدم الألفة التي أمر الله بها ورسوله حيث قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ﴾ وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[312] وقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[313] وفي الحديث: لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البين وأخبر أن فساد ذات البين هى الحالقة وأنها تحلق الدين والشريعة طافحة بهذا المعنى"[314].

فالخطأ في الاجتهاد لا يستدعي التفسيق ولا التكفير مهما كان ذلك الخطأ. وقد وردت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ببيان ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[315].

ويبقى الدافع وراء النيل من الآخرين والتشهير بهم، داء أساسه الميل مع الهوى والسير وفق تبعاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وصاحب الهوى يعميه الهوى ويُصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وأنَّه الحق وهو الدين، فإذا قدّر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثني عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعاً، أو لغرض من الدنيا، معه حق وباطل، وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل، وسنة وبدعة"[316].

[312]- الأنفال: 8.
[313]- سوة الروم:32.
[314]- الشاطبي، الموافقات، ج4، ص 181.
[315]- سورة الأحزاب: 5.
[316]- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، 1406هـ، ج5، ص 256.

ويرى علماء النفس أن الهوى ميل طبيعي لإرضاء النزعات الشخصية مما يجعل المرء يتعجل الوصول إلى نتيجة قد ترضيه وتريحه ولو أنها زائفة أو مؤقتة. الأمر الذي يدفع به إلى البحث عن كل ما يتماشى مع ميوله الشخصية فيبرزها في الإطار الذي يرضيه ويفسرها بالأسلوب الذي يدعم ما يراه بغض النظر عن كل ما يمكن أن يناقض ذلك[317]. بل إن الهوى الذاتي قد يدفع بالإنسان إلى التعسف في التفسير وانتزاع المعنى من السياق ثم دمجه في تصور مناقض للأصل المأخوذ منه. يقول ابن تيمية في هذا السياق:" يجمع الآثار ويتأولها فى كثير من المواضع بتأويلات يبين فسادها لتوافق القول الذى ينصره"[318].

ثالثا: مقتضيات العدل مع المخالف

جاءت معالجة القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال حض النفوس على اتباع العدل وتدريبها على الإنصاف حتى يصبح سجية للنفس الإنسانية، مما يسهّل خلاصها من نوازع الهوى وبواعثه المسوقة إلى الظلم والتجاوز.

بل إن نصوص الوحي ذهبت إلى أبعد من ذلك حين أكدت مقتضيات العدل مع المخالفين، ومن أبرزها: أهمية ذكر محامد المخالف ومحاسنه وعدم غمطه حقه في ذلك، فذكر القرآن الكريم محاسن بعض اليهود والنصارى.

ومن ذلك موقف النبي عليه الصلاة والسلام حين أمر المسلمين بالهجرة الحبشة وذكره لمحاسن النجاشي وعدله وصدقه حين قال لهم:" إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"[319]. والنجاشي كان نصرانيا آنذاك، وخرج المسلمون إلى الحبشة المسيحية دون أن يخطر ببال أحدهم أن يتساءل عن مشروعية اللجوء إلى نصراني والإحتماء به. ولم يجد الرسول ﷺ فى ذلك شيئا من الحساسية التى قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقا تحول دون التعامل مع النجاشى بدعوى أنه غير مسلم فكيف نلجأ إليه ونطلب الحماية منه.

---

[317]- Straughn, R. Wringley, J. eds, Values & Evaluation in Education, London, Harper& Row Pub. 1980.p. 85.

[318]- ابن تيمية، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج24، ص 154.

[319]- أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1997م،ج1، ص 240

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم تلك المعاني وتشربوا بها، فلم يغمطوا مخالفيهم حقهم من الثناء لمجرد العصبية أو المخالفة في المعتقد. ومن ذلك ما قَالَه الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ وكان عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فقال الْمُسْتَوْرِدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوك"[320].

ومن مقتضيات العدل والإنصاف مع المخالفين قبول الحق منهم ومن غيرهم. فالحق ضالة المؤمن، يَقْبله من كل من قاله كائناً من كان. وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في قبول الحق من مخالفيه. ومن ذلك ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ قُتَيْلَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ".[321]

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[322].

ففي الحديثين تأكيد لقبول الحق بغض النظر عمن قال به فالحق يعرف بذاته لا يعرف بمن قاله. فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يقف مطلقا عند الشخص الصادر عنه الكلام، بل ذهب إلى ذات الكلام. فإذا ما ثبت صدقه، قبل به بل وسار عليه. وفي هذا يقول ابن تيمية: "والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلمٍ، وأمرنا بالعدل

[320]- رواه مسلم، الفتن وأشراط الساعة، رقم 5158.
[321]- أخرجه النسائي، سنن النسائين الأيمان والنذور، رقم 3713. أخرجه: أحمد 43/45، رقم 27093، والحاكم 297/4، وصححه ووافقه الذهبي.

[322]- صحيح البخاري. 1283. الجنائز. ما جاء في عذاب القبر.

والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني ـ فضلاً عن الرافضي ـ قولاً فيه حَقٌّ أن نتركه أو نَرّ ّ ُده كله، بل لا نرد إلا ما فيه الباطل دون ما فيه من الحق[323].

بل إن النهج النبوي ذهب إلى أبعد من ذلك في مسألة قبول الحق من قائله دون النظر فيمن قال به في قصة أبي هريرة ﷺ مع الشيطان. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ"[324].
فالنبي عليه الصلاة والسلام بين لأبي هريرة أن ما قاله الشيطان له في فضل آية الكرسي حق وصدق على الرغم من كذب الشيطان وزوره. فصدور الكلام من الشيطان لا يمنع من قبوله منه إن كان حقا وصدقا. فالحديث أصل في مبدأ قبول الحق من المخالفين والعمل به مهما كانت درجة مخالفتهم مع عدم غمط الآخرين حقهم في الإشارة إلى صدقهم فيه.
ومن فقه هذا الحديث وفوائده -كما قال ابن حجر رحمه الله-: إن الحكمة قد يتلقّاها الفاجرُ فلا ينتفع بها، وتؤخذُ عنه فينتفع بها، وإن الكافرَ قد يصدق ببعض ما يصدق به المؤمن ولا يكون بذلك مؤمناً، وبأن الكذّاب قد يصدُقُ[325].
يقول ابن القيم في سياق وقوع البعض في ردّ الحق الصادر من مخالفيهم:" الاختلاف المذموم كثيرا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغيا ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم فهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[326] فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه ورد الباطل مع من

[323]- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ، مرجع سابق، ج2، ص342.
[324]- رواه البخاري، فضائل القرآن، رقم 4624.
[325]- العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق،ج4، ص 616.
[326]- سورة البقرة: 213.

كان ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلا وأقومهم قيلا وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة"[327]

ويقول رحمه الله في موضع آخر: "والله تعالى يحب الإنصاف، بل هو أفضل حِلية تحلّى بها الرجل، خصوصاً من نَصَّب نفسه حكماً بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله ـ تعالى ـ لرسوله: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[328]. فورثة الرسول ﷺ منصبهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه؛ بل يكون الحق مطلوبه يسير بسيره، وينْزِل بنزوله، يَدِين العدل والإنصاف، ويُحكِم الحجة، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهو العلم الذي قد شمّر إليه، ومطلوبه الذي يحوم بطلبه عليه، ولا يثني عنانه عنه عذل عاذل، ولا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يعيده عنه قول قائل"[329].

فلا ينبغي أن يتخلى المسلم في حواره عن هذا المبدأ الأصيل، كما لا ينبغي له طمس نواحي القوة والإيجابية في كلام محاوريه وعليه التجرد من هوى النفس في إنصاف الذات وظلم الغير. وعلى هذا فأهل كل مقالة أو أصحاب كل اتجاه يصفون ما يقولونه ويذهبون إليه بأحسن ما يقدرون عليه من الالفاظ، كما يصفون مقالة مخالفيهم بأقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ. فالمقولة قد تطرح بشكلين كلاهما يحمل وجها من الصحة، إلا أن كل واحد منهما يعبر عن أمر يناقض الآخر.

يقول ابن القيم في سياق الحديث عن أفضل الطرق للتوصل إلى الحق:" فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم اعط النظر حقه **ناظرا بعين الانصاف ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظرا تاما بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه وممن يسيء ظنه به** كنظر الشزر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا الا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق"[330]. وعليه ينبغي للمحاور أن يتحرى الدقة والإنصاف ويسير مع الحق أينما حلت ركائبه سواء أكان له أم عليه.

327- ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة، مرجع سابق،ج2، ص 511-512.
328- سورة الشورى: 15.
329- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، مرجع سابق،ج 3، ص 94.
330- ابن القيم، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 141.

وقبول الحق الذي جاء به المخالف، لا يعني موافقته في كل شيء، ولا الرضى عنه فيما يخطئ فيه، وهذا ميزان دقيق ينبغي التنبه إلى خطورة وقوع الخلل فيه. وعلى هذا جاءت مقولة الإمام الشافعي في غاية التعبير عن ذلك:"ما ناظرت أحداً إلا قلتُ: اللهمّ أجرِ الحقّ على قلبه ولسانه، فإن كان الحقُّ معي اتبعني، وإن كان الحقُّ معه اتبعته".

فالحقيقة المطلقة من علم الله سبحانه أما الحقائق التي يتوصل إليها البشر فهي نسبية فلا ينبغي القطع إلا بما نصت عليه الأدلة القطعية الثبوت والدلالة. وكل ما عدا ذلك فهو مبني علىالبحث والاجتهاد وترجيح الدليل.

ومن الأداب المترتبة على هذا الأساس الأصيل في الحوار مع المخالف، التثبت قبل إصدار الحكم على كلام المخالف مع حمل الكلام على ظاهره وعدم التعرض للنوايا والبواطن. والإسلام دين يقوم على البناء على ظواهر الآخرين لا التتبع لما يخفون أو البحث في خفايا نفوسهم ونياتهم.

فعنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ قَالَ أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ قَالَ. فَقَالَ سَعْدٌ وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ- يَعْنِي أُسَامَةَ- قَالَ قَالَ رَجُلٌ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَقَالَ سَعْدٌ قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونُ فِتْنَةٌ "[331].

ويندرج تحت هذا الضابط إحسان الظن بالمسلمين المخالفين على وجه الخصوص والتماس الأعذار لهم. وهو الأمر الذي حمل سلف الأمة إلى الاعتذار لأهل الصلاح والفضل عما وقعوا فيه من بدع عن اجتهاد منهم. يقول ابن تيمية في سياق الاعتذار لبعض أهل الفضل ممن شهدوا سماع الصوفية ورقصهم متأولين:" والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من

[331]- رواه مسلم، الإيمان، تحريم قتل الكافر، رقم 140.

أهل الصدق والاخلاص والصلاح غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد وهذا سبيل صالحي هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم"[332].

ويدخل تحت هذا أن يرجع المحاور إلى ما يقوله الطرف الآخر مباشرة دون معرفة أقواله وآرائه من طرق أخرى تخالفه، فيجب أن تكون قراءته لاي مذهب أو فكر او اتجاه من مصادره الأصلية التي قال بها أصحاب هذا المبدأ أو ذاك، وليس مما يقوله الأخرون عنهم.

ويقتضي ذلك عدم الاعتماد على المنقولات، ولا يكتفى ذي ذك تحري الصدق من الناقل بل لابد من وجود سلامة الفهم والبصيرة. يقول ابن تيمية: "كثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم، وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم"[333].

وقد يتوهم البعض أن الإنصاف مع المخالف وحسن التعامل معه بالعدل والاعتراف به إنما هو نوع من الموالاة المنهي عنها في القرآن الكريم. فقد قال تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾[334].

والقرآن الكريم يزخر بالنصوص الناهية عن موالاة غير المسلمين، إلا أن هذا الأمر محاط بضوابط تحول دون تحوله إلى عداوة دينية أو فتنة طائفية. فلا يدخل في مفهوم الموالاة المنهي عنها المشاركة في الوطن أو الجوار في ارض أو المشاركة في عمل ونحوه. وإنما المراد بالموالاة التي نهت عنها النصوص القرآنية، توليهم بوصفهم جماعة تعادي المسلمين وتحادّ الله ورسوله. من هنا جاءت الآيات" من دون المؤمنين" فالمنهي عنه في هذا السياق هو تحيز المؤمن إلى أعداء الدين. يقول الطبري في تفسير هذه الآية:" لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلّونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء..يعني فقد برئ الله وبرئ منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر"[335].

---

[332]- ابن تيمية، الاستقامة، مرجع سابق، ج1، 297.
[333]- منهاج السنة النبوية 303/6.
[334]- سورة آل عمران:28.
[335]- الطبري، ج6، 313.

وكذا المودة المنهي عنها إنما هي مودة المحادين المعادين لله ورسوله وللمؤمنين وليس مجرد المخالفين لهم في الدين أو المعتقد ولو كانوا مسالمين.

وهكذا فإن الأمر لا يبدو كما يصوره البعض رفع راية العدوان في وجه غير المسلمين مطلقا لمجرد أنهم مخالفين في الدين.

الباب الثاني: أهداف الحوار

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين

المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة

المبحث الثالث: الترقي بالذات

المبحث الرابع: التلاقح الحضاري

المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم

المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات

الباب الثاني

أهداف الحوار

الحوار الناجح هو ذاك الذي يروم السير وفق منهجية محددة المعالم والأطر، واضحةالأهداف والأسس. ونجاح الحوار مرهون بتحقيقه أهدافا مشتركة وثمارا ملموسة لجميع الأطراف المتحاورة. فلا يؤتي الحوار آثارا إيجابية إذا ما ضاقت الأهداف لصالح طرف واحد من أطراف الحوار دون الآخرين. وليس ثمة تعارض في تحقيق الحوار أهداف جميع من شارك فيه من خلال مجانبة الفردية والأنانية واحتكار المصالح. وعليه فإن أهداف الحوار الأساسية لا تكمن فيما يروم المسلمون تحقيقه فحسب، بل فيما يسعون لتقديمه للآخرين. فكل طرف ينظر من زاوية أهدافه واحتياجاته وهو أمر مشروع إذا ما توافق مع أهداف بقية المتحاورين.

وعليه فإن الهدف من الحوار وإشاعة ثقافته لا يكمن في إلغاء قناعات الأطراف الأخرى المتحاورة والتوصل بها إلى قناعة فكرية واحدة من خلال الحوار، بل يكمن الهدف الأساس في التوصل بجميع الأطراف المتحاورة إلى الحقائق المعضدة بالأدلة والبراهين المنطقية المقبولى لدى جميع الأطراف المنصفة.

ولابد قبل الشروع في أي حوار من استحضار النتائج والتأمل في عواقبها والنظر في مآلاتها وإجراء الموازنة بين ذلك كله، ومن ثم الإقدام عليه. ومن الضروري أن ينطلق الحوار من موقع القوة والثقة بالنفس والقناعة المقرونة بالحكمة والعقل مع وضوح في الأهداف والأساليب والنتائج المتوخاة منه.

ومن أبرز أهداف الحوار:

المبحث الأول: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين

يروم الحوار الناجح إظهار الحقائق دون حمل الآخرين عليها بالقسر الفكري أو ممارسة الفرض والإكراه على مائدة الحوار. فقد كرست نصوص القرآن والسنة نفي شرعية الإكراه في الدين مطلقا فكرا أو اعتقادا، فالناس ليسوا موضع إكراه.

وليس الحوار في القرآن والسنة النبوية مدلفا لتشريع الإكراه أو الاستلاب الفكري، مما يؤكد أن غاية الحوار فيما لم تكن بغية سلب الطرف الآخر لقناعاته الفكرية بقدر ما تروم إيصال الحقائق والكشف عنها وتحقيق الأمانة في التبليغ والدعوة.

فالإسلام دين يستوعب مبدأ التنوع العقائدي دون أن يكون لهذا التنوع أي مساس بالحقوق السياسية والاقتصادية والإنسانية لأصحابها. بل جميع هذه الحقوق مكفولة بمقتضى روح الدين وجوهره الثابت.

وعلى الرغم من خاتمية الدعوة الإسلامية إلا أنها خاطبت العقل والفطرة السليمة غير المعاندة مع تأكيد قضية الاقتناع بعد إلقاء البيّنة، والإدراك، وليس فيه أدنى توجه نحو الإكراه والغصب.

تقول في ذلك المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة:" لعل من أهم انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم حتى إن الملك الفارس كيروس قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين. فيما يدّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد اسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة على تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب القديمة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددا ضئيلا من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب"[336].

وقد أرست النصوص القرآنية هذا المبدأ الأصيل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ

[336]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 357، 358.

اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[337]. وقوله تعالى﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[338]

كما عززت تلك المبادئ المواقف المتعددة للنبي عليه الصلاة والسلام إزاء مخالفيه، بل من أشهر في وجهه العداء والخصومة ليعطي بذلك منهجا سلوكيا في التعامل الإسلامي الأصيل.
ففي يوم فتح مكة رغم العذاب والعنت الذي لاقاه وأصحابه من أهلها إلا أنه ﷺ عفا عنهم.. وقد قال لأهلها:
(ما تظنون إني فاعل بكم؟
قالوا أخ كريم وابن أخ كريم.. فقال النبي عليه الصلاة والسلام حينها قولته المشهورة: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين.. فاذهبوا فانتم الطلقاء).
وذكرت كتب السير أن فضالة بن عمير بن الملوح[339] أراد قتل النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة قال نعم فضالة يا رسول الله قال ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء كنت أذكر الله قال فضحك النبي ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه فكان فضالة يقول والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب الي منه[340].
إلى غيرها من الشواهد الوفيرة التي تتعامل مع اللين والرفق والرحمة في مخاطبة الآخرين.. ولم يحاول يوماً أن يصادر عقل مخالفيه أو يقمع أصواتهم لوجهة نظر . أو رأي مخالف.
وهذا ما حدا **بأوجبست كونت** رائد المدرسة الوضعية أن يقول عن الإسلام (لم يصادر الإسلام العقل وإنما أعطى له قدرة على التحرر والتفكير والتبصر والقدرة على الإبداع الفني والجمالي والعمراني، ولا يمكن لدين أن يفعل هذا إلا إذا كان ديناً يستحق أن يُدرس بعمق.
وتمتد هذه التعاليم النبوية إلى جيل الصحابة ليجعلها النبي عليه الصلاة والسلام أساسا أصيلا لتعامل المسلم مع مخالفيه في العقيدة.

[337]- سورة آل عمران:20.
[338]- سورة المائدة: 92.
[339]- فضالة بن عمير بن الملوح الليثي. انظر ترجمته في: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992م، ج5، 372.
[340]- ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج4، 308.

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ يَهُودِيٌّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ قَالَ فَرَفَع رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَدَهُ فَصَكَّ بِهَا وَجْهَهُ قَالَ تَقُولُ هَذَا وَفِينَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَرَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللَّهُ وَمَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ"[341] .

فإذا لم يكن ثمة حقيقة ظاهرة مدعمة بدليل، فلا مجال لفرضها أو التشدق بها مطلقا مع المخالف.

وهكذا فإن من أبرز أهداف الحوار تأكيد أن الغاية الأساس منه ليست الوصول بالطرف الآخر إلى قناعة المحاوِر وإلغاء قناعة الطرف الأول الفكرية وإنما هي إظهار الحق المدعم بالبراهين والأدلة.

وليس من لوازم كل حوار الوصول إلى اتفاق ما، لكن من اللازم والضروري أن لا يكون الحوار مدخلاً إلى الصراع والنزاع، وإنما إلى مزيد من الحوار ومحاولات اللقاء والتعايش. فبالتأني والصبر قد تتكشف الحقائق، وبالعصبية والعنف يزداد كل طرف تمسكاً بمنطلقاته الفكرية والسلوكية ورفضاً لما عند الآخر من أفكار وسلوك، وهذا بدوره يؤدي إلى مزيد من العزلة والتقوقع، فمزيد من التوجس والخوف، ثم إلى مزيد من الصراع والنزاع.

ولعلّ موقف المسلمين المهاجرين إلى الحبشة من النجاشي، من المواقف الواضحة في ذلك. فقد خرج المسلمون وهم في ضيق وشدة إلى أرض الحبشة وما لبثوا أن جاءت رسل قريش تتبعهم.

وعلى الرغم من شدة حاجتهم إلى الملجأ، إلا أن ذلك لم يكن مانعا عن قول الحق أمام النجاشي حين بدت دواعيه في الأسئلة المطروحة عليهم من قِبله حول دين الإسلام واعتقاداتهم. وظهر ذلك جليا في الحوار التالي الذي دار بينهم وبين النجاشي.

[341]- رواه الترمذي وقال عنه حسن صحيح، تفسير القرآن عن رسول الله صلىالله عليه وسلم، رقم 3168.

روى ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي موسى قال أمرنا رسول الله أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي فبلغ ذلك قريشا، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وجمعوا للنجاشي هدية وقدما علىالنجاشي فأتياه بالهدية فقبلها وسجدا له.

ثم قال عمرو بن العاص إن ناسا من أرضنا رغبوا عن ديننا وهم في أرضك قال لهم النجاشي في أرضي قالا نعم فبعث إلينا، فقال لنا جعفر لا يتكلم منكم أحد أنا خطيبكم اليوم. فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس. وقد قال له عمرو وعمارة إنهم لا يسجدون لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان اسجدوا للملك فقال جعفر: لا نسجد إلا لله عز وجل فلما انتهينا الى النجاشي قال ما منعك أن تسجد قال لا نسجد إلا لله فقال له النجاشي وما ذاك قال: إن الله بعث فينا رسولا وهو الرسول الذي بشرّ به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من بعده اسمه احمد فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر فأعجب النجاشي قوله. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم فقال النجاشي لجعفر ما يقول صاحبكم في ابن مريم قال يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربها بشر ولم يفرضها ولد. فتناول النجاشي عودا من الأرض فرفعه فقال يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيدون هؤلاء على ما نقول في ابن مريم ولا وزن هذه مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده فانا أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل نعليه امكثوا في أرضي ما شئتم وأمر لنا بطعام وكسوة وقال ردوا على هذين هديتهما[342].

ولعل هذا الهدف أقرب إلى التحقيق وأدعى إلى التعايش على أساس هذه المشتركات، وخاصة بين الأديان: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا

[342]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص 70

مُسْلِمُونَ﴾[343]. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[344]..

ولا يعني قبول الإسلام بوجود أصحاب الأديان الأخرى والملل المخالفة، اقراره للكفر مطلقا، بل يعني إيقاعه المسئولية الشخصية لكل فرد عن اختياره كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[345].

فليس ثمة سبيل ناجح لدعوة الناس إلا عن طريق الحوار الهادئ الحرّ والله عز وجل هو الذي يتولى الفصل بين العباد يوم القيامة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[346]. فالحرية الممنوحة للإنسان حرية تتضمن مسئوليته الكاملة عن اختياره بعد عرض الحقائق المدعمة بالبراهين والأدلة أمامه.

وقد رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن يعاقب أحدا على اختيار دينه على الإسلام، كتابياً كان أو مشركاً.

ومن ذلك أن سهيل بن عمرو[347] حين فتح المسلمون مكة أرسل ابنه عبد الله إلى النبي ﷺ يطلب له جواراً فلما التقى عبد الله بالنبي عليه الصلاة والسلام فقال: تؤّمن أبي يا رسول الله؟ قال نعم: هو آمن بأمان الله فليظهر لعمري أن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام.. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره فكان يقبل ويدبر وهو آمن دون أن يسلم بل وخرج بعد ذلك في جيش النبي ﷺ إلى حنين وهو على شركه حتى أسلم بعد ذلك في الجعرانه[348].

[343]- سورة آل عمران:64.
[344]- سورة العنكبوت:46.
[345]- سورة الكهف: 29.
[346]- سورة الحج: 17.
[347]- سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر. ويكنى أبا يزيد. وكانت له صحبة، رحل إلى الشام للغزو في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقول: سمعت رسول الله يقول مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمله عمره في أهله قال سهيل بن عمرو فأنا أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة أبدا فلم يزل بالشام حتى مات بها في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. أنظر ترجمته في: محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ، ج7، ص 404.
[348]- أبوعبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفىعبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج3، ص 317. السيرة الحلبية، ج3، ص 56.

وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين قرر احترام حرية الآخر في الاختيار حتى ولو كان ذلك الاختيار خطأ. وجاءت الآيات القرآنية مكرسة لهذا المبدأ مقررة له. قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ.قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[349].. فوصف اختيار النبي عليه الصلاة والسلام للحق وهو على حق بأنه اجرام (في نظرهم). ووصف اختيارهم للباطل وهم على باطل بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله. وفي هذا أعظم أدب للتحاور مع المخالف. إضافة إلى ما تحمله الآية من تقرير لاحترام حرية الاختيار و ليس احتراماً للخطأ كما قد يتوهم البعض.

المبحث الثاني: التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة

من أبرز أهداف الحوار، تحقيق الأمر الإلهي القاضي بتعزيز روابط التفاهم والتعايش والتعارف بين شعوب العالم وأممه. ذلك الأمر الذي أكدته النصوص القرآنية كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[350]. فالتعارف رسالة الإسلام الكبرى وغايته العظمى التي لا ينبغي تغييبها في ظل الأزمات الخانقة التي يمرّ بهاالعالم. وثقافة الحوار من أهم وسائل التعارف والتعايش خاصة في ظل الظروف العصيبة.

والعالم بأسره يعيش اليوم مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الأزمة. فالأزمات لم تعد محصورة على جانب واحد من ميادين الحياة بل امتدت لتشمل جُلّ ميادينها إن لم نقل كلها. **فالعالم** يعاني من سلسلة متواصلة من الأزمات الأخلاقية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية..التي لا سبيل للخروج منها إلا بتكاتف جهود الجميع على اختلاف توجهاتهم وتعدد أجناسهم واهتماماتهم.

يقول مراد هوفمان في سياق الحديث عن معاناة العالم اليوم:" لقد غدت الجماهير العريضة نتيجة ممارستها الواقعية للذاتية وللنسبية تعيش نوعا من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد، متمثلا في عبادة آلهة جديدة هي السلطة والثراء والجمال والشهرة والجنس. لقد رضي هؤلاء

[349]- سورة سبأ: 25-26.
[350]- سورة الحجرات:13.

الملحدون بالممارسة الاطمئنان والركون إلىالعلوم الطبيعية عوضا عن الدين الذي أقصته وهجرته"[351].

ولا يمكن لمثل هذا التعاون أن يتم إلا في أجواء الحوار وأروقة التفاهم السلمي بين الشعوب والهيئات والمؤسسات والحكومات. وعليه فإن من أبرز أهداف الحوار، الانتقال إلى مرحلة التفاهم القائم على احترام وجهات النظر وتبادلها بغية التوصل إلى الخلاص من مرحلة الأزمة.

وثمة مشاكل وصراعات باتت تهدد أمن العالم كله لا يستطيع إنكارها أو التغاضي عنها أحد كالحروب وآثارها، التفسخ الأسري، الفقر، الجهل، التدهور الأخلاقي، فقدان الأمن والاستقرار ....كل هذه الأزمات وغيرها مما يضيق المقام بذكره، يمكن أن تشكل نقاط التقاء وقواسم اهتمامات مشتركة بين جميع أطراف الحوار. إضافة إلى أن التوصل إلى حلول جذرية لمعالجتها، أمر يهمّ جميع الأطراف بلا استثناء. فالعالم يتوق إلى السلام والأمن والاستقرار في ظل أوضاعه المتردية حاليا.

وثمة دعاوى بالغة الخطورة باتت تهدد كيان الأسرة والمجتمع العالمي على حدّ سواء يمكن أن يهدف الحوار إلى معالجتها ومواجهة أخطارها مثل دعاوى الإباحية في السلوك وسفك الدماء واستباحة الأموال وتغذية النزعة الاستهلاكية المادية في الإنسان.وزلزلة الثوابت الفطرية التي أرادها الله لصلاح الحياة الإنسانية.

وقد عبرّ الأمير تشارلز قبل أعوام مضت عن طبيعة القلق المتزايد في الغرب بشأن تلك الأوضاع حيث قال:" إن المادية المعاصرة أحدثت خللاً مروعاً في حياة الفرد والمجتمع لأنها مادية فقدت عنصر التوازن الضروري لحياة سوية متناسقة متكاملة. ولقد بدأنا نحن أبناء العالم الغربي نشعر بأننا قد فقدنا الإحساس الكلي بالكون والبيئة وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخلق. ويمكن لنا نحن أبناء الغرب من أجل إعادة اكتشاف الفهم الأصيل لوجودنا ومهمتنا أن نلتمس العون على ذلك من التراث الإسلامي المشبع بالنظرة الكلية الأصيلة إلى الكون والإنسان، كما يمكن الاستفادة من هذا التراث في تحسين نظرتنا نحو الأفضل في الخلافة

[351]- مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياضن الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2001م، ص 35.

العلمية للإنسان..ولا شك أن انفصال العم والتكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية قد بلغ حداً مروعاً مفزعاً..(إلى أن يقول): إن رسالة الإسلام مهمة للغرب فهي أكثر تكاملا وتوحيدا للعالم .."[352].

فالشباب اليوم في العالم يبرزون للعيان من خلال نوعية مشاكلهم ونزعاتهم المرضية وإقدامهم المروع على المخدرات وعُقَدهم المركبة، حاجتهم الماسة إلى الشعور بالسكينة والأمان ومقاومتهم لسطوة المادية وعبادتها في شتى الميادين. الأمر الذي لابد أن يقض مضاجع المهتمين ويدفع بهم إلى مائدة الحوار حول ذلك كله.

ويندرج تحت هذا الهدف كذلك أهداف أخرى كمناصرة قضايا العدل ونصرة الشعوب المستضعفة. فالإسلام يقاوم الظلم، ويناصر المظلومين، من أي شعب، ومن أي جنس، ومن أي دين. والمسلم مدعوًا للوقوف في صف الحق والعدل والخير والحرية، ويعتبر نفسه طرفًا أصيلاً في أية مواجهة ضد الظلم أينما كانت.

وهو أمر حضّ عليه النبي عليه الصلاة والسلام حين أشاد بحلف الفضول، الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية، وكان حلفا لنصرة المظلومين، والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشراف القوم وسراتهم. وقد روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال" :لو دعيت إلى مثله في الإسلام أجبت".

كما يهدف الحوار الحاصل بين المسلمين أنفسهم، التفاهم حول المشاركة في الحياة داخل العالم الإسلامي الكبير وحمل همومه والسعي في تخليصه منها، والإسهام في تقدمه ونمائه والرضا بما يحققه أبناؤه له من نجاحات في أي مجال، والعمل يدا واحدة على تخليصه من نقائصه وزيادة كمالاته. ولئن كان هذا الهدف يروم وحدة المسلمين في العالم، فإنه دواعيه ومقتضياته في داخل الوطن الأصغر الذي يعيش فيه شعب واحد، أولى وأشد.

والعيش المشترك في الوطن الواحد، يعني قبول الطرفين بفكرة اتساع الدنيا للجميع، وضرورة التعاون على استثمار خيراتها وإعمارها هو الغاية الجامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

---

[352]- راجع نص المحاضرة في: جريدة الشرق الأوسط، العدد 6598، لندن، تاريخ 12/21/ 1996م.

المبحث الثالث: الترقي بالذات

فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لسلوك عدواني اتجاه الآخر المختلف مطلقا، أيا كانت درجات ذلك الاختلاف. وبذلك تصبح الذات لا ترى إلا قناعاتها ومن ثم تعمل على التخلص من كل ما هو يخالف تلك القناعات وتلغيه.

فالحوار نوع من مشروع إصلاح الذات وتخليصها من سموم الثقافة العدوانية التي ما هي إلا مرحلة متقدمة من تغييب الآخر وإلغائه لمجرد مخالفته للذات في الأيدلوجية أو الموقف ونحو ذلك.

والحوار خطوة ضرورية لتخليص الأفراد والمجتمع من طوفان الاستبداد الفكري القائم على احتكار الحقيقة وتعرية الآخر منها، على الرغم من أن المسلم لا ينبغي له ادعاء الإحاطة بكنه الحقيقة.

وقد أدرك علماؤنا السابقون – رحمهم الله– هذا المغزى الدقيق في الحوار. وعلى هذا اعتبروا وجود المخالف بل وجود العدو ضرورة لمعرفة الذات وتخليصها من عيوبها وخفاياها التي غالبا ما تنكشف عند احتكاكها بالآخر المخالف. فالتواصل مع الآخر عن طريق الحوار والتبادل المعرفي مرآة حقيقية تنكشف من خلالها مصداقية الأفكار والرؤى وسلامة التصورات أو خللها.

من هنا كان الحوار مع الآخر من أهم وسائل إعادة العلاقة بين الذات والغير على أسس القبول والتعددية والاعتراف الضمني بمشروعية الاختلاف ونسبية الحقيقة وإمكانية التصويب الفكري.

وقد أوضحت الدراسات الاجتماعية والبحوث في ميدان الإدراك الاجتماعي خطورة غياب الحوار بين الأفراد الذين يعيشون في مجتمع واحد في تكوين وإصدار أحكام مسبقة على الآخرين يتم من خلالها ظهور صور نمطية جامدة. ويتم من خلال عملية التنميط تلك تصور الفرد لجميع أعضاء الفئة أو الجماعة بطريقة متشابهة متغاضيا عن الفروقات الفردية

الموجودة بينها بوحكم هذه العملية المعرفية يقوم الفرد بحشر جميع أفراد هذه الفئة أو الجماعة في صورة نمطية جتمدة بناءً على معرفته البسيطة أو السطحية لبعض أفرادها أو تجربة عابرة مع بعض أفرادها ويحدث هذا غالبا عندما يتعذر الاتصال والحوار والتفاعل بين الفرد والآخرين من تلك المجموعة.

كما يحدث أولا من خلال تحديد الفرد أو جماعة ما لفئة من الأفراد (مبدأ التصنيف)ثم قيامه بعزو (Attribute) مجموعة من الخصائص والسمات إلى هؤلاء الأفراد ثم في النهاية التعميم فيعزو تلك الخصائص إلى أي شخص ينتمي إلى هذه المجموعة[353]. وقد يشترك عدد من أفراد المجتمع بهذا التصور وتنتشر فيه حتى تصبح ظاهرة مؤثرة في إدراكهم وسلوكهم تجاه تلك الجماعة المنمطة(Stereotyped). ويرى أصحاب الاتجاه الاجتماعي عامة والعالم تاجفل بصفة خاصة أن تكوين هذه العملية يتأثر كثيرا بثقافة المجتمع وقيمه ومعاييره وبالتصورات المتبادلة بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع[354].

من هنا فقد حمل القرآن الكريم على عملية التنميط حملة واسعة فلا تكاد تجد آية أو نصا قرآنيا يتحدث عن أهل الكتاب مثلا إلا وخص بكلمة فئة أو طائفة أو كثير أو قليل، مؤكدا في ذلك كله على عدم شرعية التنميط في العلاقات الإنسانية. وهو أمر تعززه علاقات التعارف والتعايش السلمي بين الناس ليدرك الفرد في مجتمعه أن الناس ليسوا سواءً (حسب اللفظة القرآنية). والحوار والانفتاح علىالمخالف والتعامل معه، من أهم وسائل تخليص الفرد والمجتمع من النمطية والأحكام المسبقة.

إن مثل هذا التحليل والفهم لطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الجماعات في المجتمع هو الذي يمكن أن يساعدنا علىمعرفة أسباب لجوء الجماعة الداخلية إلى التنميط السلبي للجماعة الخارجية(المخالفين في الدين) وإضفاء عدد من السمات السلبية عليها مما يساعد في مرحلة لاحقة في تبرير اضطهادها أو استغلالها وقد يسّوغ لها معاملتها التمييزية والتعصبية

---

[353] - Paul F. Secord and Carl W. Backman, Social Psychology (New York: McGraw-Hill). 1974, p. 15.
[354] - Henri Jajfel, Individuals and Groups in Social Psychology, British Journal of Social and Clinical Psychology, vol, 18(1979), pp. 183-190.

ضدها[355]. وستقف الدراسة لاحقا على خطورة التنميط بين أبناء الدين الواحد أي بين المسلمين أنفسهم.

من هنا تتأكد فريضة الحوار بين المسلمين ومخالفيهم في المجتمعات المختلفة، سواء أكانت تلك التي يشكل المسلمون فيها أغلبية أو أقلية. فالحوار وسيلة وقائية لعدد هائل من الأمراض والأوبئة الاجتماعية التي ربما لا يدرك الأفراد خطورتها إلا عند وصولها حدّ الخطر والإنذار، وقد تصبح مستعصية على العلاج آنذاك.

المبحث الرابع: التلاقح الحضاري

من أهم أهداف الحوار تحسين علاقة الإنسان بالإنسان بل الدول بالدول. ذاك أن تلك العلاقات إن قامت على أساس الحوار واعتمدت المنطق الذي يقوم على العقل كتب لها النجاح. من هنا كان الإسلام أول الأديان التي دعت إلى الحوار بين أصحاب الديانات والحضارات الأخرى. كما أن اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة قد تم على أساس وطيد، ربما لم يتم التوصل إليه من قبل الكثيرين إلا في مرحلة متأخرة.

فالعالم في نظر الاسلام أقرب ما يكون إلى منتدى عالمي لحضارت متميزة تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى ومن ثم فلا بد ان يكون بينها مشترك حضاري عام كما لابد أن تكون لكل منها مميزات حضارية تحفظ لها هويتها[356].

والحوار ضرورة حتمية لا تستغني عنها أي حضارة في سبيل تطوير ذاتها. فمن المعروف أن عملية التلاقح الحضاري، تتم من خلال الاقتباس والنقل والتبادل المعرفي وهذه أمور متداولة بين الشعوب قاطبة. فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ولم توجد حضارة أبدعت ولم تنقل عن غيرها فالنقل والتلاقح والتفاعل والأخذ والعطاء الثقافي ليس وباء وإنما ضرورة حضارية وظاهرة صحية[357].

---

[355] - Tajfel, Social Stereotypes and Social Groups(Little Brown Co) 1980. pp.123.

[356]- محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر، 1988م، ص 8. وانظر كذلك: أحمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، رجب 1414هـ، ص 122.

[357]- بتصرف: محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص 152.

ولم يكن المسلمون في يوم من الأيام معزولين عن غيرهم من أصحاب الثقافات العريقة. فقد اختلطت الثقافات وتزاوجت في حركة ثابتة مستمرة مما أدى إلى عمليات تصفية للأفكار والمعارف وتقدمها تبعا لذلك الاختلاط والتزاوج الثقافي.

في مثل تلك الأجواء ظهر الإسلام وترعرع فلم ينتشر في فراغ حضاري فقد كانت الأمم والشعوب التي دخلت فيه، ذات حضارات شتى ومشارب فكرية عدة. فاختلطت الثقافات وتمازجت الأفكار وكان الحوار وثقافته سيدا الموقف، ووسيلتا التبادل الحضاري الفكري. وعلى هذا فقد عرف المسلمون حضارة الهند وحكمة فارس وفلسفة اليونان واختلط المسملون بأقوام شتى تنوعت عقائدهم وتشعبت أراؤهم والتقوا بمئات المفكرين والمثقفين من أمم شتى فشاع الحوار الثقافي الذي كان مدعاة للتفاعل الحضاري والذي هو من أهم سمات الحضارة الأسلامية.

بيد أن هناك ضابط لا ينبغي تجاهله في أثناء إجراء هذا الحوار، يقوم على ضرورة التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، لا غضاضة في الانفتاح عليه وتقبله، والسعي في تحصيله، وبين ما هو خاص بالأمة ذاتها. فلا يفهم من الحوار والتلاقح الحضاري أنهما أدوات لتذويب الثقافة والهوية الحضارية لأمتنا.

فلقد اختلط الأوروبيون بمن هم أرقى منهم، فاستفادوا من الحضارة الاسلامية مما أسهم في النهضة الأوروبية الحديثة. إلا أنها استفادت فيما هو مشترك إنساني عام ولم تأخذ من الحضارة الاسلامية خصوصيتها الإسلامية. يقول في ذلك المؤرخ ستانودو كب Stanwood Cobb:" قليلون من هم على علم بما أسهم به العالم الاسلامي من جهود متميزة في تقدم الإنسانية حتى في عصرنا المستنير في حين أن هذه الحضارة لم تكن تقود العالم في مجالات العلم طيلة خمسة قرون فحسب، وإنما استوعبت كل طاقة الإنسانية في السعي المنظم وراء المعرفة خلال تلك الفترة"[358].

[358]- ستانوود كب، المسلمون في تاريخ الحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية/ 1405هـ/ 1985م، ص 21.

فلقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الاسلامية المتمثلة في التوحيد مما صبغ الحضارة الغربية بطابعها المادي البحت. ومن أبرز الأدلة على ذلك أن أوروبا عندما أخذت من فلسفة ابن رشد إنما أخذت عنه شروحه على أرسطو حكيم اليونان. أما ما يتعلق به كفيلسوف مسلم فقد رفضته أوروبا ولم تأخذ منه شيئا. يقول الفريد جيوم في ذلك:" إن علينا أن نضع حدا فاصلا بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو"[359].

وعلى هذا ينبغي تعزيز مبدأ شرعية الاختلاف الحضارى والخصوصية الذاتية للأمم والحضارات، مع التأكيد على أن الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية لا يعنى الانغلاق وتجاهل الحضارات الأخرى وإدعاء التميز عليها، ورفض نتاجها الإنسانى. فالتاريخ الحضارى فى مجمله ثمرة الجهد الهائل والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ.
وتأسيسا على هذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية وإنسانية منفتحة، قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التى احتكت بها. فلا تعارض بين الحفاظ على الهوية وبين الأخذ والاقتباس من الحضارات الأخرى[360].
ولعل الظرفية التاريخية التي يعيشها المسلمون على وجه العموم اليوم، تعد رغم صعوبتها من أكثر الظروف ملائمة لمراجعة الحوار مع الغرب في محاولة لنشر عالمية الاسلام وقدرته الاستيعابية لأحداث العالم وتداعياته وانفتاح المسلمين على كل الحضارات والمبادئ البناءة وقابليتهم للتعلم والحوار المتبادل.

ومما لا شك فيه أن الحوار من أهم وسائل التفاعل الحضاري بين الأمم ولا ينصرف الحوار إلى الشفاهي فحسب، فقد حاور ابن رشد توما الاكويني (1225-1274م) وغيره من الفلاسفة الغربيين بعد مئات السنين من خلال كتاباته وأطروحاته.

إضافة إلى أن حوار المسلمين اليوم يمكن أن ينصرف إلى الإفادة من الحضارات المعاصرة وربطها بالواقع مع الحفاظ على الثوابت الاسلامية المميزة لهوية الأمة. وكلما ازدادت فرص

[359]- ألفريد جيوم، الفلسفة وعلم الكلام، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام، ص 394.
[360]- بتصرف عن: علي فهد الزميع، منهج التواصل بين حضارات العالم، بحث مقدم للمؤتمر الثامن. مرجع سابق، ص 3.

الالتقاء والتفاعل والتحاور الحضاري، كلما زادت فرص النمو والنهضة والنقلة الحضارية المنشودة للأمة. ويبقى الرهان قائما على نقل التقنيات الأوروبية لدعم القيم الاسلامية المحلية.

كما أن ميزان القوى فى العصر الحالي قد مال لصالح الغرب.. ولهذا فهو يسعى إلى نشر ثقافته، ونمطه الحضارى على العالم بادعاء أنه السبيل لتحقيق حياة أفضل للبشرية من وجهة نظره..

ولهذا يلاحظ أن هناك تيارات تدعو إلى فرض نمط الحضارة الغربية باستخدام كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية، وهو ما ظهر فى مناسبات ومحافل دولية مختلفة مثل: مؤتمر السكان بالقاهرة 1994 م، ومؤتمر المرأة فى بكين 1995 م.

ومن شأن هذه الدعوات أن تغذى مظاهر الصراع الحضارى بين البشر، وتدخله فى حلقات جديدة أكثر عنفا وضراوة.. ومن ناحية أخرى فإن هناك تيارات تدعو إلى التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابى بينها لإبراز العناصر التى تعزز تقدم البشرية، ويجب على جميع القوى المستنيرة فى العالم، دعم هذه التيارات التى تدعو إلى احترام مختلف الحضارات. وهنا يبرز الحوار من أهم وسائل العودة إلى التفاعل الحضاري والخروج من أزمة الاغتراب والانغلاق.

المبحث الخامس: تصحيح المفاهيم

من أهم أهداف الحوار في العصر الحاضر تصحيح المفاهيم المشوهة والأفكار المنحرفة التي لن يُكتب لها الاندحار إلا في أروقة الحوار الحرّ. فالأفكار المنحرفة والتصورات الشاذة لا يمكن لها أن تنمو وتنتشر في غير الأجواء المغلقة ذات الطابع الإنكفائي.

وثمة صور ومفاهيم مشوهة قامت وتكرست بين العالم الغربي من جهة والمسلمين من جهة أخرى. فكلا الطرفين بات اليوم يحمل صورا قد تغاير في كثير من الأحيان واقع الأمر. ولا يمكن لتلك الصور أن تتغير دون إقامة حوار مثمر بناء، لا يروم التغيير لمجرد الرغبة فيه، بل حرصا من جميع الأطراف على التوصل إلى الصورة الحقة لكل منهما لدى الآخر.

فالصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، باتت صورة شبه نمطية في تصور الآخر. ولعلّ ذلك يعود إلى عوامل تاريخية وسياسية متضافرة. فقد أثبتت الدراسات الحديثة والبيانات المستخلصة من استطلاعات الرأي العام ومن الدراسات التحليلية لمضامينها أن الآراء الغربية على وجه العموم سلبية تماما عن العرب والمسلمين عموما.

وأن جذور التغرض عميقة ومتأصلة، أسهمت في تأصلها عوامل متعددة منها: النشر السيء في الصحف والقوالب الذهنية السلبية، جملة الأحداث الراهنة التي أساءت إلى المسلمين بشكل لا نكاد نجد له مثيلا في هذاالقرن..وغير ذلك من عوامل لا تزال تسهم بوضوح في إحباط أية محاولات لنشوء علاقات حوارية. يقول خوان غويتسلو في ذلك:" إننا خاضعون لعملية غسل دماغ كامل ضد العرب والمسلمين"[361].

وتقول المستشرقة آن ماري شيميل:" إن الخطر الاسلامي الذي يتناقله الغرب كمسلمات يقينية غير قابلة للمناقشة بناءٌ عدائيٌ ضد الإسلام، ترسب في النفوس بفعل وسائل الإعلام وكتابات بعض المستشرقين المتعصبين"[362].

وهكذا فإن العالمين كليهما: المشرق المسلم، والغرب المسيحي يقفان اليوم أمام كومة كومة من الحطام والخوف المتسلل إلى الطرفين من بعضهما البعض. ولن يتم التغيير لهذا الوضع إلا في أحضان أجواء من التسامح والفهم المتبادل وتقبل وجهة نظر الآخر واحترامها وإزالة العقبات والحواجز التي يمكن أن تعرقل السير نحو الحوار الهادف.

فالحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات يساهم في درجة كبيرة في التقارب بين الشعوب والأمم، وازالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم ومن الأفكار المسبقة المختزنة في ذاكرة الشعوب عبر قنوات فكرية تراكمية تقوم في أغلب الأحيان على أسس غير صحيحة.

من هنا يصبح الحوار اليوم جهدا فاعلا وضرورة حتمية لابد من تنميتها والإقدام عليها وتوسيع وسائلها لتجلية المواقف وكشف الأخطاء والتصورات الناجمة عن الانغلاق

---

[361]- ميخائيل سليمان، صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987م، ص 225 وما بعدها.

[362]- راجع الحوار الذي أجرته معها: جريدة العالم الإسلامي الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، تاريخ 18-24 نوفمبر، 1996م، ص 5.

الفكري وتوضيح صورة الإسلام الجلية. وليس من وسيلة في العصر الحاضر أجدى وأنجع من الحوار المتكامل القادر على التغلب على التحدي الأيديولوجي الذي بات يحاصر الاسلام والمسلمين، من خلال توليد افكار جديدة وتوضيح معانيها.

وهنا تبرز أهمية دور المسلمين بشكل خاص في تبيين الحقائق وتوضيح المفاهيم الخاطئة وكشف الحجب الكثيفة والتراكمات البغيضة التي كرست صورا أبعد ما تكون عن سماحة الاسلام وسمو تعاليمه، مع تجنب الأطروحات التى تدفع الشعوب نحو صدامات جديدة تستخدم فيها شتى أساليب القوة وعدم احترام الإرث الحضارى للبشر.

وعلى هذا فإن الحاجة ملحة إلى التركيز على إبراز الخاصية الإنسانية فى الإسلام وتعاليمه، والمنطلقات الإنسانية المستمدة من شريعته التي ينبغي أن تشكل نسيجا للعلاقات والروابط الداخلية والخارجية للمسلمين. ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لإعادة الكشف عن الحقائق الأصلية الخاصة بمنظومة القيم الإنسانية المتكاملة التى تميز الإسلام، والتركيز على إبراز تلّك القيم الإنسانية الأساسية والجوهرية فى الخطاب الحواري.إلى جانب أهمية ترسيخ الوعى بأبعاد الطابع الإنسانى للثقافة الإسلامية وما يترتب عليه من أثار إيجابية ثقافيا، وتربويا، وسلوكيا.

والواقع بكل إفرازاته يفرض على المسلمين اليوم أكثر من أي وقت مضى تصحيح الصورة المشوهة التي ألصقت بهم وبدينهم. تلك الصورة التي باتت تشكل أشيه ما يكون بخطة استراتيجية تحدد تعامل الآخرين مع الاسلام والمسلمين. ولابد من التنبة إلى أهمية مواجهة ومحاورة الاطروحات القاضية بذلك[363].

ويشكل الحوار اليوم وفق الأهداف والأسس الرصينة، واجباً دينياً إنسانياً وشرطاً مؤكداً للتعايش السلمي بين البشر، ومدّ أسباب التواصل مع الأمم والشعوب الأخرى. خاصة وأن

[363]- من ذلك ما كتبه صموئيل هنتينغتون أستاذ العلوم السياسية نشرتها مجلة "فورن أفيرز" الأمريكية سنة 1993م بعنوان !صدام الحضارات وهى مقالة تحذر شعوبا من شعوب بسبب من ثقافاتها ويرى كاتبها أن ثقافات بعينها- وفى طليعتها ثقافة الإسلام وحضارته- هى مصدر الخطر وعامل التهديد لثقافة الغرب وحضارته، بل هى العدو الواجب محاربته والقضاء عليه. وقد نالت هذه المقالة منذ نشرها شهرة مدوية. .Huntington Samuel P., Foreign Affairs, summer, 1993.

الأمة اليوم تعيش تحديات حقيقية تتطلب من الجميع التفكير العميق والتخطيط المتواصل للخروج من هذه التحديات بنجاح واقتدار. بيد أن تلك الأهداف معقودة على المنهجية السليمة في رسم ثقافة الحوار وتعزيزها.

فالحوار قوة وسلاح من أسلحة السجال الثقافي والمعركة الحضارية، وهو وسيلة ناجحة من وسائل الدفاع عن المصالح العليا للأمة، وشرح قضاياها، و إبراز اهتماماتها، وتبليغ رسالتها، إسماع صوتها، و إظهار حقيقتها، وكسب الأنصار لها، وجلب المنافع إليها ودرء المفاسد عنها[364].

ومن ذلك الأمور التي يهدف الحوار إلى معالجتها، ما يظهر بين المسلمين المخالفين من جهل بجوهر الدين ومقاصده، والاعتماد أحياناً على نصوص غير صحيحة، والأخذ أحياناً بنصوص جاءت على سبيل المجاز، وتأويلها من قِبل البعض على سبيل الحقيقة. الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى غبش في المصطلحات والمفاهيم وابتناء أحكام جائرة عليها دون التريث في فهمها.

وأسلوب الحوار وحده الكفيل بتجلية ذلك الخلط واللبس وتحديد المصطلحات والمفاهيم بدقة وعمق. ومن تلك المصطلّحات: مصطلح الجهاد وتغيير المنكر وتطبيق الشريعة والولاء والبراء وغير ذلك كثير. فهذه المصطلحات باتت اليوم مدعاة للاستمرار في جدل متواصل حول ماهيتها والمراد بها وأهدافها...والحوار هو الأسلوب الحضاري العلمي الكفيل بتجلية تلك التصورات وإزالةاللبس فيها.

المبحث السادس: حلّ النزاعات والخلافات

من أبرز أهداف الحوار، حلّ النزاعات التي توجد بين الأفراد والمجتمعات والدول. وكذلك العمل على تجديد الفكر الإسلامي والنهوض بالمشروع الحضاري[365]. فالتنوع والتعدد

364- عبد العزيز بن عثمان التويجري، مرجع سابق، ص 14.

365- وقفت الدراسة على آثار الفرقة والتحذير منها في فصل الأول، ولم يذكر هنا لتحاشي التكرار والتطويل.

الواقع يُفترض له أن يسهم في إثراء الفكر الإسلامي في مختلف جوانبه العقائدية والفكرية والاقتصادية... لو كان ذلك يتم في إطار ممارسة الفكر بطرقه السليمة عبر مقارعة الدليل بالدليل، والحجة بالحجة، والعقل بالعقل في حوار ينفتح فيه الجميع وتتبادل فيه الآراء والطروحات بموضوعية وعلمية بعيداً عن التعصب.

الباب الثالث: ضوابط الحوار وآدابه

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن

المبحث الثاني: مراعاة حال المحَاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية

المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد

المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة

المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه

المبحث السادس: ضوابط مساعدة

الباب الثالث

ضوابط الحوار وآدابه

لا يؤتي الحوار ثماره المرجوة دون أن يقوم على أسس واضحة المعالم، وضوابط يلتزم بها المتحاورن في ثنايا حوارهم. وقد جاءت النماذج الحوارية في القرآن والسنة النبوية تطبيقا لتلك الضوابط والآداب، وما على الناظر إلا استنباط المعاني العظيمة منها. ومن ضوابط الحوار وآدابه ما يلي:

المبحث الأول: الحوار بالتي هي أحسن

ويقصد بها أن يسلك المحاور أفضل السبل وأحسنها مع مخالفيه مهما كان موقف المخالف منه. وهو أسلوب يقتضي سمات خاصة حضّت نصوص الوحي عليه كالرحمة والصفح والعفو...ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي هل أتي عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني وقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي فقال يا محمد ذلك لك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا[366].

فهنا تجلت صفة الرحمة من قبل النبي عليه الصلاة والسملا الذي عانى من قومه في سبيل الدعوة، إلا ان تلك المعاناة الطويلة لم تدفع به إلى طريق غير الرحمة والصفح عنهم.

وكلك موقفه ﷺ مع أهل الكتاب، فقد نزلت الآيات : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا

[366]_ العسقلاني، الفتح، مرجع سابق، ج 6، 3231.

مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.[367] بعد سلسلة طويلة من الحوارات بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين النصارى في شأن عيسى عليه السلام، ثم نزلت هذه الآية فدعاهم الله إلى النصف وقطع عنهم الحجة. فلما أتى رسول الله الخبر من الله عز وجل في شأن عيسى وفصل القضاء بينه وبينهم بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك. فقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا يا عبد المسيح ما ترى فقال والله يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمّدا لنبي مرسل ولقد جاءكم من خبر صاحبكم بالحق ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قد أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع إلى ديننا ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضى فقال لهم رسول الله ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين. فأرسل معهم أبو عبيدة بن الجراح ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه[368].

وهنا تبرز سمات الحلم والعفو وسجاياه ﷺ مع مخالفيه وصبره الطويل معهم رغم جهلهم وعنادهم.

وقد تحول هذا السلوك النبوي إلى مظهر من مظاهر تعامل المسلمين مع مخالفيهم من المشركين وأهل الكتاب بشكل عام. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصطبرون على الأذى قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[369] وكان النبي صلىالله عليه وسلم يتأول العفو ما أمره الله به"[370].

---

[367]- سورة آل عمران: 64.
[368]- أبو الربيع سليمان بن موسى، مرجع سابق، ج1،ص 374-375.
[369]- سورة آل عمران:186
[370]- العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق،ج 8، 4566.

وتتوالى التوجيهات النبوية بجعل هذا السلوك طابعا عاما، تتسم به معاملات المسلمين مع غيرهم. فمن ذلك أيضا ما ذكرته عائشة ﵂ أن يهودا أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم (أي الموت) فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش. قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ"[371].

ومن الوسائل الأخلاقية التي يمكن أن تعزز فوائد الحوار، روح التواضع الذي يتمتع بها المحاور. فكلما زادت حقيقة التواضع فيه كلما ازداد في داخله إحساسا بالجهل بينما هو في الواقع يتنامى علما وبصيرة.

وعلى العكس من ذلك فان التكبر والاستعلاء يغري الإنسان بإحساس كاذب بالكمال والاكتفاء فينكر افكار غيره بينما هو يتضاءل جهلا وعميا. إن عدم تعالي كل طرف على الآخر خلال الحوار، فلعلّ ثمة حق لدى الآخر يُكتشف أثناء الحوار. قال تعالى حاكياً قول النبي ﷺ وهو يحاور المشركين من قومه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[372].فإن الحوار بهذه النفسية أعون لكل من الطرفين على قبول الحق الذي يتكشف له، وصحيح أنه لابد أن أحد الطرفين على الهدى والطرف الآخر على الضلال، لكن ذلك ينبغي أن يتم التوصل إليه من خلال الحوار، لا قبله. إن الحق واحد لا يتعدد، ولكن الحوار بقلب يقظ وعقل مفتوح ورغبة وجدانية بالوصول إلى الحق سيوصل إليه حتماً.

بل إن مبعث الحوار مع المخالف إنما هو الرحمة به والرغبة العميقة الصادقة في إيصاله إلى الحق. عن ابن مسعود ﵁ قال قال رسول الله ﷺ:" لن تؤمنوا حتى ترحموا قالوا كلنا رحيم يا رسول الله قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة الناس رحمة العامة[373].

وعن أبي هريرة ﵁ أنه قال قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال: إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة"[374].

---

[371]- العسقلاني، فتح الباري، ج 10، ص6030.
[372]- سورة سبأ، 24.
[373]- العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ج 10/ 453.

يقول ابن حجر في تعليقه على حديث: من لا يرحم لا يُرحم. قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك..."[375].

لقد خط الاسلام بهذا النهج أنموذجا في الرحمة والعدالة والإنصاف لتعميق مفهوم الضمان والتكافل الاجتماعي في الدولة الإسلامية بقطع النظر عن المخالفة في الدين والمعتقد التي لم تكن في يوم ما مانعا من إنسانية الأفراد وتعاونهم في الخير والبر. فبدون تلك المواصفات لا تستقيم الحياة ولا يمتد خيرها.

المبحث الثاني: مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية

راعى القرآن الكريم والسنة النبوية مستويات الأطراف المتحاورة وخلفياتهم الثقافية والدينية والفروق الفردية، فجاء الحوار متنوعا متدرجا فكان الحوار في العهد المكي يختلف عن الحوار في العهد المدني، من حيث المضمون والأسلوب. كما تباين الحوار وأساليبه حتى في العهد الواحد باختلاف الطرف المتحاور معه.

فالحوار مع الكافر الجاحد المعاند العنيف في مواجهة الدعوة يختلف في الأسلوب والطرح والمضمون عن الكافر المتحير أو الشاك الهادئ. فأساليب الحوار وأهدافه جاءت متباينة لتبني برمتها رؤية إسلامية شاملة للحوار مع الآخر، غير متوقفة على أزمنة التنزيل ليتعامل أهل كل زمان ومكان مع تلك التوجيهات والتعاليم من خلال طبيعة الحالة التي يعيشونها.

بل إن مواصفات الحوار التربوي يختلف عن مواصفات الحوار في مجالات أخرى كمجال البناء الاجتماعي أو إقامة العلاقات الاجتماعية مع الآخر ..كما كانت مواصفات الحوار وأهدافه في العهد المكي الذي اتسم بالاستضعاف تختلف عن مواصفات الحوار في العهد المدني المتسم بالتمكين والبناء. وكانت توجيهات القرآن والسنة في ذلك كله محددة الطريق بناء

374- رواه مسلم، 2599.
375- العسقلاني، الفتح، ج 10، ص 455.

حواري متكامل يشمل حالات متعددة ومتنوعة تتعرض لها البشرية في مختلف الأزمنة والظروف.

عن عبد الله قال جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والخلائق على أصبع ثم يقول أنا الملك قال فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال وما قدروا الله حق قدره[376].

ففي هذه القصة يتبين لنا أن النبي عليه الصلاة والسلام أدرك بحسه الثاقب مستوى السائل والمتحاور معه، فلم يزد عن التجاوب معه وفق ذلك المستوى وبناءا عليه. وهو أمر في الواقع يستدعي فهم المحاور لأطراف الحوار ومستوياتهم وخلفياتهم الثقافية والفكرية.

وقد يلحظ القارئ لتلك الأساليب المتنوعة في الحوار المتعددة في الأهداف والوسائل، ما يمكن أن يتوهم فيه وقوع نوع من التعارض وعدم إمكانية التوفيق بينها جميعها في آن واحد. بيد أن القراءة الشمولية البعيدة عن الانتقائية والتعضية، سرعان ما تبدد ذلك التوهم الناجم عن اضطراب في الفهم واستقطاع في القراءة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق تأكيد أهمية المواصفات الخاصة التي ينبغي توافرها لدى الأطراف المحاوِرة من إدراك للفوارق والمستويات واستيعاب لحال الأطراف المتحاور معها وتخصصاتهم وخلفياتهم. الأمر الذي يستدعي توافر أنماط شمولية من الشخصيات المحاورة تنطلق من مرجعية شرعية واضحة المعالم راسخة الأهداف مستوعبة للتدرج والتباين في هيكلية الحوار، لتتمكن من تحقيق النقلة النوعية المطلوبة في الحوار.

إن عدم استيعاب النظرة الشمولية للحوار وأهمية تنوع أساليبه وتعدد أهدافه في الكتاب والسنة، يمكن أن يؤدي إلى نوع من التجزئة الفكرية والنظرة التفكيكية المؤدية إلى تعميم جوانب مرحلية معينة في الحوار مع الآخر على جميع الحالات وجعلها لونا واحدا

---

[376]- رواه مسلم في صحيحه، ج4، ص2147. حديث رقم: 2786. رواه الترمذي، مرجع سابق، ج5، ص 371. حديث رقم: 3238. تفسير الطبري، مرجع سابق، ج24، ص 26.

وإلغاء أنماط في الحوار مع الآخر لا يمكن أن تتحقق الأهداف بدونها. من هنا كانت أهمية النظرة الشمولية وضرورة الدراسة المستوعبة لمختلف الأساليب والوسائل.

المبحث الثالث: الانصات والاستماع الجيد

أثبت علماء النفس الاجتماعي أن الاستماع الجيد إلى الآخرين ليس بالضرورة ينتهي إلى التأثير الكامل عليهم إلا أنه يزيد من أواصر المحبة والتقارب الروحي والعاطفي بين الناس.. كما أن من أبرز سمات العظماء وأصحاب النفوذ والتأثير في المجتمعات هي الاستماع والإصغاء إلى كلام الآخرين..

فليس كثرة الكلام دليلاً على قوة الشخصية ولا قوة التأثير بل ربما – أو في الغالب – ينتهي كثرة الكلام إلى ما لا يحمد عقباه من النتائج..فإن الكلام الكثير يعرّض صاحبه إلى الوقوع في الأخطاء الكثيرة أيضاً والدخول في مجالات بعضها هامشية قد تضر ولا نفع مضافاً إلى أن الملل الناجم منه ربما ينزل بمستوى الحديث إلى مصاف الحديث العادي والكلمات فاقدة القيمة أو الشعارات التي تفتقد إلى المزيد من الواقعية..

ويتضح ذلك جليا من خلال مواقف النبي عليه الصلاة والسلام المتواصلة مع مخالفيه. فقد كان عليه الصلاة والسلام يحسن الاستماع إليهم مهما بلغت سفاهة طرح الطرف المقابل أو غلظة اسلوبه وجفاوته.

يروى أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا قال يوما وهو جالس في نادي قريش والنبي جالس في المسجد وحده يا معشر قريش ألا أقوم إلى مُحَمَّد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون. فقالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. فقال له رسول الله قل: يا أبا الوليد أسمع. قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد به

شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يسمع منه قال أقد فرغت يا أبا الوليد قال نعم قال فاسمع مني قال أفعل. قال بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حم. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[377]. ومضى رسول الله فيها يقرؤها عليه فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه ثم انتهى رسول الله إلى السجدة منها فسجد ثم قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك[378].

فالقدرة على الاستماع هي الأداة الرئيسية للوصول إلى تفاهم وتواصل مثمر بين الناس خاصة في مواقف الخلاف والصراع وفي تخفيف الميول العدوانية في لحظات التوتر والانفعال العنيف.

ومن فوائد الانصات في الحوار: مشاركة الآخرين ووفهم وجهة نظرهم وتقديرها والتعبير عن الذات وتأكيدها. كما تكمن القدرة على الإصغاء في قدرةالفرد على إعادة صياغة أفكار الآخرين وتصوراتهم وهي دلائل يطلق عليها بياجيه التغلب على الأنانية الفردية.

المبحث الرابع: التأكيد على القواسم المشتركة

ويقصد بالقواسم المشتركة الأفكار التي يتفق فيها أطراف الحوار وهي التي ينبغي التركيو عيها أولا والتقديم لها عند الدخول في الحوار، فهي التي تقرب النفوس والأفكار مع إغفال التقاطعات التي تبعد وتقطع الاتصال.

وقد أكدت النصوص القرآنية تلك القواسم وكرستها في إطار يوضح أهميتها في بدء الحوار الدعوي مع تلك الفئات الأمر الذي يجعل ذلك من أهم وسائل الحوار. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ

377- سورة فصلت: 1-5.

378_ الكلاعي، مرجع سابق، ج1، ص 227-228.

بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[379] . فالآية تؤكد وجود التوافق بين ما جاء في القرآن وما عند أهل الكتاب في خطوة أولى لفتح باب الحوار معهم. وهذه الآية تعد من أوئل الآيات التي ذكر فيها أهل الكتاب مما يؤكد أولوية هذا العامل في التحاور مع المخالف عموما[380].

ثم إن التأكيد على القواسم المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب ازداد وضوحا في العهد المكي كما في العهد المدني، كما جاء في آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[381] وفيها تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى. وسورتا الأعلى والنجم اللتان وردتا فيها تلك النصوص الواضحة مما نزل مبكرا.

ومن ذلك أيضا الحديث الوارد ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ فَسَدَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ[382] .

وفي ذلك تقرير لحقيقة التوافق والتساوق التامين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتابيين وكتبهم من حقائق وبشارت ونعوت وأوصاف للنبي علهي الصلاة والسلام ودعوته. إضافة إلى ما في ذلك من توجيه أصيل لأهمية البدء بالقواسم المشتركة في الحوار قبل الخوض في الجزئيات الأخرى.

وقد ظهر ذلك في مواقف النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب. فقد كان في مكة والمدينة بعض الجاليات الكتابية. وقد بدأ النبي عليه الصلاة والسلام أول ما بدأ مع هؤلاء بالتأكيد على **القاسم المشترك بين دياناتهم وبين الدعوة الجديدة** ألا وهو الدعوة إلى وحدانية الله ووحدة المصدر الذي صدرت عنه تلك الديانات الثلاث وكتبها.

379- سورة المدثر:31.

380- محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، قطر، 1400هـ، ج1، ص 328-329.

381- سورة الاعلى:18-19.

382- صحيح البخاري، اللباس، الفرق، حديث رقم: 5462. سنن أبي داود، الترجل، ما جاء في القرق، حديث رقم: 3656.

ومن ذلك رسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة والتي جاء فيها:" بسم الله الرحمن الرحيم من مُحَمَّد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة جملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده .."[383].

والتأكيد على القواسم المشتركة يؤكد منهج الإسلام في توطيد السلام وتحقيق مبدأ التعارف بين الناس وبقاء المحبة من خلال عدالة التعامل ونزهة السلوك. وعلى هذا الأساس أرسالنبي عليه الصلاة والسلام أسس التعايش معهم لأهمية ذلك في بناء وتأسيس الاستقرار الذي هو من أهم عوامل النهوض والبناء.

بل ظهر ذلك في تعاملاته مع غيرهم إن كان ثمة أمر مشترك ومن ذلك ما رواه الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا لَا نُقِرُّ بِهَا فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ امْحُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ سِلَاحٌ إِلَّا فِي الْقِرَابِ وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَأَنْ لَا يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلُ أَتَوْا عَلِيًّا فَقَالُوا قُلْ لِصَاحِبِكَ اخْرُجْ عَنَّا فَقَدْ مَضَى الْأَجَلُ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَبِعَتْهُمْ ابْنَةُ حَمْزَةَ يَا عَمِّ يَا عَمِّ فَتَنَاوَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ حَمَلَتْهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي وَقَالَ جَعْفَرٌ ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي وَقَالَ زَيْدٌ ابْنَةُ أَخِي فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِخَالَتِهَا وَقَالَ الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ وَقَالَ لِعَلِيٍّ أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ وَقَالَ لِجَعْفَرٍ أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي وَقَالَ لِزَيْدٍ أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا[384].

---

[383]- أبو بكر السيد البكري، إعانة الطالبين، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص 147.

[384]- رواه البخاري، الصلح، حديث: 2501.

وعلى هذا فإن إبراز العناصر المشتركة بين الأطراف المتحاورة من أهم وسائل إنجاح الحوار. فلا ينبغي التركيز على مواطن الاختلاف والتباين وعرضه بأسلوب غير موضوعى لما يؤديه من تغذية عوامل الصدام والصراع ومحاولات فرض السيطرة والاستعلاء.

وهو أسلوب فطن يدل على حسن الفهم والعمق في الوعي والإدراك الذي هو جماع الحكمة التي أمر الله بها عز وجل عند المحاورة.

ويترتب على هذه الوسيلة محاولة إبراز أهمية التكامل بين الأطراف المختلفة وتأكيد أهمية إيجاد إطار مشترك من خلال دعم وتعزيز التوجهات التى تؤمن بالتعايش والتفاعل والاحترام المتبادل بين الشعوب والأمم والحضارات.

المبحث الخامس: الاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه

وهو مسلك أرسته نصوص القرآن الكريم المتضافرة فقد احتجت بصحة الرسالة المحمدية بما جاء في الكتب السماوية التي يؤمن بها أتباعها من اليهود والنصارى، وانطلقت من تلك الكتب في إثبات صحة الرسالة الخاتمة وصدق صاحبها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾[385] فقد تضمنت هذه الآية تقرير أن الحجة على صدق الرسالة المحمدية والتي طالب بها المحاورون من قريش إنما هي الكتب السماوية التي كانوا ينظرون إليها نظر الثقة والاعتماد[386].

ومما يؤكد هذا الموقف من العرب قول عبد المطلب جدّ النبي عليه الصلاة والسلام لأم أيمن يا بركة: لا تغفلي عنه فإن أهل الكتاب يزعمون ان ابني نبي هذه الأمة[387].

والحق أن الاحتجاج بما يؤمن به الطرف المتحاور معه، من أبلغ وسائل الحوار وأوقعها في النفس، فإذا كان المتحاوَر معه لا يؤمن بالقرآن فلا يُحتج بأدلة ونصوص من القرآن على صحة الموضوع المتحَاور فيه، لأنه لا يؤمن به أصلا. وتأسيسا على هذا كان الاحتكام في الحوار للمنطق والمنهج العلمي، قطبا في الحوار الإسلامي. ذاك أن التعاليم الإسلامية النابعة من مشكاة الوحي، يوافقها المنهج السليم المبني على العلم والمنطق.

ومن شواهد الاحتجاج بما يكون حجة لدى المتحاورين في السنة، ما ورد في كتب السيرة عن الكتاب الذي أرسله الرسول ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أمية حيث جاء فيه:

385- سورة طه: 133.

386- دروزة، مرجع سابق، ج1، ص 331.

387- جلال الدين السيوطي، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م،، ج1، ص 138.

" لما وجّه رسول الله رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وجه إلى النجاشي عمرو بن أمية فقال له يا أصحمة: إن عليّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا منا وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفي ذلك وقع الحز وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشي أشهد بالله أنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب"[388].

كما سار النبي عليه الصلاة والسلام على ذات الأسلوب مع قيصر ملك الروم حين أرسل إليه دحية الكلبي، مما يؤكد أن هذا الأسلوب في الاحتجاج بما يكون لدى المخالف حجة، هو الأسلوب الأنجع في التوصل إلى الحق المرتجى[389].

ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أو يحتّج على أهل الكتاب إلا بما ورد في كتبهم من الحق. وقد أدرك هذا الضابط رسله الذين أرسلهم إلى الملوك لمحاورتهم. ومنهم ولما وجه رسول الله رسله إلى الملوك، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس صاحب الإسكندرية بكتاب جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بداعية الإسلام اسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون"[390].

ثم دار بين حاطب والمقوقس الحوار التالي:" إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه فأنت ممن أدركه هذا النبي **ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به** ".

[388]- أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج2، ص 390.
[389]- أنظر الكتاب بصيغته المطولة في: المرجع السابق، ج2، ص 379.
[390]- أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج2، ص 394.

لقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم وهم حملة رسالة الإسلام ما انطوى عليه هذا الدين من أصول وقيّم وقواسم مشتركة تربط بين أهل الأديان كلها بل بين الإنسانية كلها من وشائج الإخاء والمحبة، فجاءت حوارتهم تعكس تلك القناعات السامقة.

وتأسيسا على هذا أجاب حاطب عن تساؤلات المقوقس بأن مثل مُحَّد ﷺ عند الله كمثل عيسى في أن الله جعلهما رسولين لهداية الخلق كغيرهما من الأنبياء. فلما لزمت الحجة المقوقس فقال إن لنا دينا لا ندعه إلا لما هو خير منه، أجاب حاطب بأن ما يدعو الإسلام إليه هو ما دعاك دينك إليه. وفي هذا غاية الفهم العميق في التحاور وإقامة الحجة النيرة التي أوردها في كلمته ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

فالاحتجاج بما يحتج به المتحاور معه ويؤمن به، من أقرب الوسائل وصولا إلى ذاته ودنوا منها وبناء على هذا فقد أثمرت تلك الحوارات جميعا نتائج طيبة.

ومن ذلك أيضا ما كتبه النبي صلىالله عليه وسلم إلى ضغاطر الأسقف حيث جاء فيه:" سلام على من آمن أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية وإني أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى"[391].

وقد كان لتلك الكتب والرسائل وقعها وأثرها الإيجابي على متلقيها. ذلك الأثر الذي لم يكن منحصرا في إسلام البعض منهم كالنجاشي وضغاطر بل امتد ليشمل الأمم والشعوب التي كانت تحت إمرتهم. فقد كانت تلك الحوارات الإيجابية ذات أثر بعيد في مستقبل الدعوة الإسلامية عندما انساح المسلمون في الأرض يدعون تلك الشعوب إلى الله، فقابلها هؤلاء بالوقوف مع المسلمين في وجه الظلمة من الرومان حتى أتيح لهم الدخول ف يالإسلام لاحقا عن إيمان وقناعة بدون إكراه[392].

ومما يُلاحظ على الكتب والرسائل التي أرسلها إلى أهل الكتاب أنها مفتتحة باسم الله الرحمن الرحيم، لإيمانهم بالله فهم أهل كتاب. في حين أن الكتاب الذي كُتب يوم الحديبية بين رسول الله صلىالله عليه وسلم والمشركين لم يرد فيه البسملة بهذه الصيغة. لما ورد عن

[391]- مُحَّد بن سعد بن منيع، مرجع سابق، ج1، ص 276.
[392]- مُحَّد الصادق عرجون، مرجع سابق، ج1، ص 262.

سهيل بن عمرو(مبعوث قريش) قوله: لا أعرف هذا (يعني الرحمن الرحيم)ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتب ذلك. وكذا عندما قال رسول الله صلىالله عليه وسلم لكاتبه: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو[393].

المبحث السادس: ضوابط مساعدة

ثمة ضوابط وآداب يمكن أن تسهم في إنجاح الحوار مثل:

– أن لا يكون الحوار بقصد عقد النفس بالكبر أو العجب أو الفعل أو التشهير مثلاً.. أو بقصد التسقيط والمغالطة لإثبات القدرة العلمية، أو بقصد التضليل أو الانتقاص من الآخرين.. أو أي قصد آخر غير الحقيقة موضوع الحوار، فإنه يلغي الحسن فيه، بل قد يكون قبحاً.

– منح أطراف الحوار الحرية الفكرية المتحررة من أي ضغط أو إكراه، قال تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[394].. وقد خاطب القرآن النبي عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء والرسل، ورسالته خاتمة الرسالات .: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[395]. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[396]. فلا بد لكي يبدأ الحوار أن يمتلك أطرافه حرية الحركة الفكرية التي ترافقها ثقة الفرد بشخصيته الفكرية المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر لما يحس فيه من العظمة والقوة التي يمتلكها. فتتضاءل ازاء ذلك ثقته بنفسه وبالتالي بفكره وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار فيتجمد ويتحول الى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر.

لذلك أمر الله رسوله ان يحقق ذلك ويوفّره لمحاوريه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

[393]- جلال الدين السيوطي،مرجع سابق،ج1، ص 400.
[394]- سورة البقرة:256.
[395]- سورة الغاشية:21-22.
[396]- سورة يونس:99.

أَحَدًا﴾[397]. وقوله عزّ وجلّ موجها نبيه ﷺ: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾[398].

– القبول بمبدأ الخطأ من الذات، وعدم ادعاء العصمة لأفكار الذات وتصور امتلاك الحقيقة المطلقة، ومن ثمّ إلغاء أفكار الآخرين وإقصائها واعتبارها خطأ دون منح فرصة المراجعة والتقويم وإعادة الحسابات مهما كانت الاستدلالات. فالحوار هو الذي يوفر الأجواء لمعرفة الحقيقة والتواصل. كما يمكن أن يعزز مبدأ المشاركة الجمعية للوصول إلى الحقيقة دون أفكار مسبقة بالتعصب والتفرد الفكري.

– أن يكون المتحاور متميزا بالأسلوب الحسن الهادئ والقدرة على استعمال الألفاظ المهذبة، والتجاوز عن هفوات الطرف الآخر في الحوار. وأن يظهر ليّنا ومدارة كبيرة لمن يحاوره، ويتحشى الحدة والانفعال والغضب، فالحوار لا يحتاج فقط إلى عقل لكن يحتاج إلى خُلق أيضا فيه خُلق الحوار الرفق في الحوار اللطف في الحوار.

ويتضح ذلك جليا من مواقف النبي عليه الصلاة والسلام العديدة في سيرته مع مخالفيه. فقد وسع نبي الله ﷺ برحابة فكره وسعة صدره، محاوريه ومخالفيه على اختلاف مشاربهم. ومن ذلك ما دار بينه وبين عدي بن حاتم قبل إسلامه، حيث قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ الْقَوْمُ هَذَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ وَجِئْتُ بِغَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ. فَلَمَّا دُفِعْتُ إِلَيْهِ أَخَذَ بِيَدِي وَقَدْ كَانَ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ يَدَهُ فِي يَدِي قَالَ فَقَامَ فَلَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ وَصَبِيٌّ مَعَهَا فَقَالَا إِنَّ لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةً فَقَامَ مَعَهُمَا حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُمَا ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي حَتَّى أَتَى بِي دَارَهُ فَأَلْقَتْ لَهُ الْوَلِيدَةُ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ مَا يُفِرُّكَ أَنْ تَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللَّهِ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ ثُمَّ تَكَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا تَفِرُّ أَنْ تَقُولَ اللَّهُ أَكْبَرُ وَتَعْلَمُ أَنَّ شَيْئًا أَكْبَرُ مِنْ اللَّهِ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ قَالَ قُلْتُ فَإِنِّي جِئْتُ مُسْلِمًا قَالَ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ تَبَسَّطَ فَرَحًا.."[399].

---

[397]- سورةالكهف: 110.
[398]- سورة الأعراف: 188.
[399]- رواه الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، رقم 2878.

ومن ذلك أيضا ما ذكره الطبري في تاريخه أن صفوان بن أمية خرج يوم فتح مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومي وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك قال: هو آمن قال يا رسول الله فأعطني آية ليعرف بها أمانك فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر فقال يا صفوان فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به قال ويحك اغرب عني فلا تكلمني قال يا صفوان فداك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وابن عمك عزة عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك قال إني أخافه على نفسي قال هو أحلم من ذلك وأكرم فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان إن هذا يزعم أنك قد أمنتّني قال صدق قال فاجعلني بالخيار فيه شهرين قال: أنت بالخيار أربعة أشهر[400]. ففي هذا الموقف يتجلى صبر النبي عليه الصلاة والسلام ورحمته ورأفته بمخالفيه وحكمته في منح الطرف المقابل الوقت الكافي لمراجعة الذات والقناعة بما يقدم عليه.

وكان عليه الصلاة والسلام يقدم الرحمة والرأفة بين يدي مخالفيه سلوكا وعملا. ففي حديث كيد لبيد بن الأعصم اليهودي في عمله السحر للنبي ﷺ، وقول النبي ﷺ بعد أن عافاه الله وأطلعه عليه:" أما أنا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ وَكرهت أنْ أثير عَلى النَّاس شَراً". فتركه وَلم يُعَاقبه[401]. وفي رواية عمرة فأخَذه النبي صَلى الله عليه وسلم فاعترفَ فعَفا عَنه وفي حديث زيد بن أرقم فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئا مما صنع به ولا رآه في وجهه[402]. وتأسيساً على هذا الحديث استنبط البخاري رحمه الله ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر. وهذا يدل على دقة فهم الإمام البخاري وبراعة فقهه لمقاصد النصوص. فالله عز وجل أقام الإسلام على دعائم العدل وندب عباده إلى الإحسان والعفو عن المسيء والنبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى لهذه الدعائم.

- التزام الحوار العلمي بعيداً عن الجدل بالباطل: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[403]. والتزام العلم يسع الناس

400- تاريخ الطبري، ج2، ص 162.
401- راجع الحديث بنصه في صحيح مسلم، باب السحر، رقم 2189.
402- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج10، ص 231.
403- سورة آل عمران: 66.

جميعاً، وإن الادلاء بالحجج والبراهين يستميل العقول والقلوب، ويفتح الأبصار والبصائر على الحق المبين، أما الجدال بالباطل فمضيعة للوقت وإزدراء بالعقل ومجافاة للحكمة، ولكنه مع هذا أسلوب كثير من الناس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[404].

وهو نهج رائده القرآن الذي طالب الكفار والمنكرون للحقائق بتقديم الدليل والبرهان على ما يدعون. قال تعالى:" أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم" ، " وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". وتضافرت النصوص القرآنية بمطالبة المخالفين بتقديم البراهين على دعواهم، مؤسسة بذلك قاعدة من أهم قواعد الحوار السليم والتفكير العلمي الهادف.

ويقتضي هذا الالتزام التجرد من الأهواء وعدم الوقوع تحت سلطانها، فلا يميل المحاوِر عن المنهج العلمي لإثبات ما يوافق رغبته وهواه.

404- سورة الحج:8.

الباب الرابع: وسائل الحوار

الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي

الفصل الثاني: وسائل معاصرة

المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الاسلامية

المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.

المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع

أولا: التنشئة الاجتماعية Socialization.

ثانيا: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية

ثالثا: المناهج الدراسية

رابعا: المؤسسات الإعلامية

خامسا: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد

الباب الرابع

وسائل الحوار

اعتنت نصوص الوحي (قرآنا وسنة) بالبحث في وسائل الحوار المجدية التي يمكن من خلالها تحقيق أهداف الحوار لمختلف الأطراف.

الفصل الأول: الحوار بالقدوة والسلوك العملي

الحوار بالقدوة والسلوك العملي من أهم وسائل وأشكال الحوار مع المخالف. وقد أثبتت الشواهد التاريخية أن هذا النوع من الحوار من أنجع الوسائل في إبلاغ الدعوة ومبادئها وأقرب الوسائل والسبل وصولا إلى الطرف الآخر وأكثرها وأعمقها تأثيرا.

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه[405] في ذلك:" لقد سحر العربي الشعوب في البلدان المفتوحة بأصالته وملاحة وجهه ولطف حديثه. فشرفه وكرامته المتوارثة أجبراهم على اتخاذه مثلا أعلى يحتذونه بل ويتشوقون إلى مثل مكانته الاجتماعية بمعنى أن يصبحوا عربا مثله. واستطاع العربي أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد فكسب بذلك لدينه عددا وفيرا لم تكن أية دعاوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله"[406].

والسيرة النبوية حافلة بالروايات والحوادث التي تعكس بجلاء هذه الوسيلة واستعمال النبي عليه الصلاة والسلام المستمر لها مع مخالفيه على تعدد مشاربهم واختلاف انتماءاتهم وتغاير سلوكياتهم تجاهه واتجاه دعوته عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن علي بن أبي طالب أَنَّ يَهُودِياً كَانَ لَهُ عَلَى رَسُولِ الله دَنَانِيرَ فَتَقَاضَى النَّبِيُ صَلَى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ: مَا عِندِي مَا أُعطِيكَ قَالَ فَإِنِّي

[405]- زيغريد هونكة المستشرقة الألمانية الذائعة الصيت وهي زوجة الدكتور شولتزا الذي اشتهر بكتاباته المنصفة عن العرب وآدابهم وآثارهم. صدر للمؤلفة العديد من الكتب في هذا المجال وكانت رسالتها للدكتوراه أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية ومن أشهر كتبها كتاب شمس العرب تسطع على الغرب. أنظر ترجمتها في:

[406]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 366-367.

لاَ أُفَارِقَك يَا مُحَمد حَتى تُعطِيَنّي قَالَ إذاً اجلِس مَعَك فَجَلسَ مَعهُ فَصلَّى النّبيُ ﷺ الظُهرَ وَالعَصرَ وَالمغرِبَ والعِشَاء والغدَاة وَكَانَ أصحَابُ النّبي يَتهدَدون اليهوديَ ويتوعدونه فقالوا يا رسول الله يهودي يحبسك قال: **منعني ربي ان اظلم معاهدا ولا غيره** فلما ترجل النهار أسلم اليهودي وقال شطر مالي في سبيل الله أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة مُحَّد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا متزين بالفحشاء ولا قوال للخنا"[407].

لقد قدّم النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف وغيره من مواقف عديدة نقلتها كتب السير، ترجمة صادقة حيّة للتعامل مع المخالف بالصدق والعدل والإحسان فأقنع العالم من خلال سلوكه بعدالة الإسلام وسماحته.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مكحول قال: كان لعمر على رجل من اليهود حق فأتاه يطلبه. فقال عمر لا والذي اصطفى مُحَّدا على البشر لا أفارقك. فقال اليهودي والله ما اصطفى الله مُحَّدا على البشر فلطمه عمر فأتى اليهودي النبي ﷺ فأخبره فقال: أما أنت يا عمر فأرضه من لطمته. ثم قال: بلى يا يهودي آدم صفي الله وإبراهيم خليل الله وموسى نجي الله وعيسى روح الله وأنا حبيب الله بل يا يهودي تسمى الله باسمين سمي بهما أمتي هو السلام وسمى بها أمتي المسلمين وهو المؤمن وسمى بها أمتي المؤمنين بلى يا يهودي طلبتم يوما دخر لنا اليوم ولكم غد وبعد غد للنصارى بلى يا يهودي أنت الأولون ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة بل أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها وهي محرمة على الأمم حتى تدخلها أمتي[408].

وعن مُحَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قالا جاء أعرابي الى رسول الله فقال ان قومي أسلموا فزادهم الاسلام فقرا فالتفت رسول الله الى رجل كان دفع اليه نفقة فقال قد أنفقت ما كان معي فقال يهودي خلف رسول الله هذا رجل يعطيك ورقا يسلفك في تمر حائط كذا وكذا فقال رسول الله لا تسمي لك حائطا ولكن تسلفنا في تمر مسمى في

407- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، مرجع سابق،ج2، ص 678. رقم 4242.

408- أبو بكر عبد الله بن محمد بن ابي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، 1409هـ، ج6، ص 327. رقم 31802.

كيل معلوم الى أجل معلوم فبايعه اليهودي ثم حل ورقا معه فقال رسول لله ادفعها الى الأعرابي الحق فأغث بها قومك فخرج رسول الله في جنازة فلما وضع الميت في قبره وحثوا عليه قام اليهودي فقال يا مُحَمَّد ألا تقضين تمري فوالله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب الا تمطلون الناس بحقوقهم فقال عمر بن الخطاب ﷺ والله لولا مجلسه لوجأت أنفك، فقال رسول الله يا عمر أنت الى غير هذا أحوج **أن تأمره فيحسن طلبي وتأمرني فأحسن قضاءه** . انطلق معه الى حائط كذا وكذا وهو الذي كان أراد من رسول الله فأبى أن يسميه له فأدخله فقل لفلان يكشف له عن الطعام فيريه اياه فان رضيه فمره فليوفه ماله وكل له كذا وكذا صاعا بشتمك اياه فانطلق به عمر فأراه فرضي فكال له كما أمر به رسول الله فقال اليهودي لعمر: انه **لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام الا قد رأيناه في مُحَمَّد الا الحلم فقد رأيناه الآن منه فأنا أشهدك أني أشهد أن لا اله الا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله** وأشهدك أن نصف ما أملك صدقه على من آمن بمحمد فقال عمر انه قد حقت علي نصيحتك لا يسعهم كلهم ولكن اجعله لمن مع رسول الله ففعل ثم ان اليهودي مات فخرج رسول الله فحمل سريره على عاتقه الأيمن وحمل علي أيضا سريره على عاتقه الأيسر"[409].

ومن المواقف التي علّم النبي عليه الصلاة والسلام من خلالها أصحابه كيفية الحوار مع المخالف من خلال القدوة الحسنة والسلوك الهادئ الطيب، موقفه مع اليهودي الذي اتهم بسرقة الدرع. جاء في تفسير الطبري أن الآيات: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا. وَاسْتَغْفِرِ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[410]. نزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما همّ به نبي الله من عذره وبين الله شأن طعمة بن أبيرق ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيما. وكان طعمة بن أبيرق رجلا من الأنصار ثم أحد بني ظفر سرق درعا لعمه كانت وديعة عنده ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودي إلى نبي الله يهتف فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله

[409]- رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقا ل عنه صحيح الإسناد، انظر: المستدرك على الصحيحين، ج2، ص 37. صحيح ابن حبان، ج1، ص 521. علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1407ه، ج8، ص 240. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، مرجع سابق،ج6، ص 52. وانظر كذلك هذه الرواية في: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق،ج1، ص 166

[410]- سورة النساء: 105-107.

ليعذروا صاحبهم وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بعذره حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل فقال: ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إلى قوله ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة يعني بذلك قومه وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا. وكان طعمة قذف بها بريئا﴾[411].

وعن أبي حدرد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه رسول الله فقال ادفع إليه حقه فقال لا أجد فأعادها ثلاثا وكان إذا قال ثلاثا لم يراجع فخرج إلى السوق فنزع عمامته فاتزر بها ودفع إليه البرد الذي كان متزرا به فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه[412].

وهكذا كان السلوك العملي والقدوة الحسنة من أعظم وسائل التخاطب والتحاور مع الآخر وبهذا، انتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بالتزام الحق والعدل والإنصاف والمعاملة الحسنة مع المخالفين[413].

والتاريخ الاسلامي حافل بالنماذج التي كانت القدوة فيها من أهم وسائل الدعوة. فالتزام الحق مع الناس ومعاشرتهم بالبر والقسط والعدل هو دعوة الإسلام في كل حين. والإسلام لم يقصد مطلقا أن تقوم الحياة بين المسلم وغيره على العداء المستمر والقتال الدائم والغلظة والفظاظة والظلم والتظالم بل جعل الأصل في الحياة السلم والعدل والإنصاف والبر والإصلاح.قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[414]. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[415]. وأوضحت تلك الآيات المحكمة الواحدة تلو الآخرى أهمية السير على هذا المبدأ وتنفيذه في حياة المسلمين وجعله أصلا.

411- الطبري، تفسير الطبري، ج5، ص 267.
412- علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، مرجع سابق،ج4، ص 129. وذكره الشوكاني في نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت،1973م، ج9، ص 182.
413- لتوضيح المزيد حول هذه النقطة، راجع: محي الدين عبد الحليم، القدوة الحسنة وفاعليتها في الإقناع بالثوابت الإسلامية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الثامن عشر، ربيع الثاني 1418هـ/ أغسطس 1997م، ص 117.
414- سورة البقرة:83.
415- سورة الإسراء:53.

وتأسيساً على هذا كانت القدوة الحسنة وراء دخول أعداد هائلة من أهالي البلاد المفتوحة إلى الاسلام. وقد صرّح الفقهاء بأهمية هذه الوسيلة حيث يقول الكاساني رحمه الله في ذلك:" أهل الكتاب إنما تركوا بالذمة وقبول الجزية لا لرغبة فيما يؤخذ منهم أو طمع في ذلك بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها فيروها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله فيدعوهم ذلك إلى الإسلام فيرغبون فيه فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام"[416].

ويؤكد السرخسي ذلك فيقول:" المقصود " من الجزية" ليس هو المال بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلا ولا يقاتل من لا يقاتل ثم يسكن بين المسلمين فيرى محاسن الدين ويعظه واعظ فربما يسلم"[417].

وتأتي الدراسات النفسية الحديثة بعد قرون من الزمن لتبين أن قدرا كبيرا من التعلم يتم بطريقة الاقتداء، فيتعلم المرء من خلال مشاهدة سلوك شخص آخر وما يترتب عليه من نتائج، أكثر مما يتعلمه من أقواله.

فالناس في مختلف الثقافات وخاصة الأطفال لا يعملون ما يقوله الراشدون وإنما يعملون ما يشاهدونه من سلوكهم وما يتمثل من نماذج واقعية. فالاقتداء يعد من أهم الأساليب التي تتم من خلالها تنشئة الأفراد. وهو الأمر الذي أرست دعائمه مواقف النبي عليه الصلاة والسلام في المجتمع[418]. ويؤكد علماء الاتصال في العصر الحديث أن الاتصال العملي غير اللفظي عامل هام في إيصال الرسالة. فالمستقبل يميل إلى تصديق الرسالة العملية غير اللفظية[419].

وحول ثمار ذلك الأسلوب الحواري الفذ الذي امتاز به المسلمون تقول المستشرقة زيغريد هونكه:

---

[416]- علاء الدين الكاساني، مرجع سابق، ج7، ص 111.
[417]- أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، 1406هـ، ج 10، ص 77.
[418]- شعبان جاب الله، التنشئة الاجتماعية، زين العابدين وآخرون(محرر). علم النفس الاجتماعي أسسه وتطبيقاته، مطابع زمزم، 1993م، ص 67-88.
[419] - Lin. Nan. The Study of Human Communication, (New York: 1973), pp. 37-39.

" واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد فكسب بذلك لدينه عددا وفيرا لم يكن أية دعاوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله"[420].

وثمة وسائل معاصرة يمكن الإفادة منها في إنجاح الحوار مع المخالف، ومن ذلك :

الفصل الثاني: وسائل معاصرة

المبحث الأول: تفعيل دور سفارات الدول الاسلامية

من أهم الوسائل التي يمكن جعلها منابر للقاء مع المخالف في بلدان العالم المختلفة الأديان والملل، والتعريف بالاسلام وثقافته وعادات الشعوب وتقاليدها لتصبح حلقة وصل ثقافية بين تلك البلدان والبلد الأصلي لها. وهي مهمة تحتاج إلى مزيد من الصبر على دراسة وتفهم تعاليم الإسلام وثقافته من جهة، وتعاليم وثقافة الشعوب الأخرى المضيفة.

وهي وسيلة تمتد جذورها في عمق السيرة النبوية حين أرسل النبي ﷺ سفرائه إلى مختلف الملوك والأمراء. ولعل أبرز سفرائه وأشهرهم عمرو بن العاص الذي ارسله النبي ﷺ سنة ثمان للهجرة إلى جيفر وعبد ابني الجلندي في عُمَان وهما من الأزد. والملك منهما جيفر فدعاهما إلى الأسلام فأسلم الملك وأسلم أخوه عبد وأسلم معهما كثير من العرب أهل عُمان.

ولقد راعى النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون سفرائه أصحاب امتيازات عالية من العلم واللياقة والمظهر والمخبر الحسن في سبيل نقل أروع صورة عن الإسلام ومبادئه لدى الدول المرسلين إليها.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام راعى في كل دولة أرسل إليها سفيره، الفروق الموجودة بين ثقافات الدول واهتماماتها. فراعى في سفرائه رواء المظهر خاصة عندما أرسلهم إلى كسرى الفرس وقيصر الروم ومقوقس مصر مراعاة لميل ملوك تلك الدول بالاهتمام بالمظهر ومدى تأثرهم بذلك. فكان يتخير ﷺ من يرسله ليكون أقرب إلى النفوس وأقدر على التأثير فيهم وأحرى أن يستقبل بالحفاوة والقبول منهم[421].

---

[420]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 366-367.

[421]- انظر في ذلك: محمود شيت خطاب، عمرو بن العاص القائد المسلم، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ربيع الأول 1417هـ، ج2، ص 101 وما بعدها.

وهذه قضية يمكننا الإفادة منها في تطوير الحوار مع الأمم والشعوب. فلا تكاد تخلو دولة في العالم من سفارات دول اسلامية يمكنها أن تكون قنوات ثقافية وجسور حضارية بين الشعوب المختلفة على أن تتبنى ذلك كواحد من مشاريعها الاستراتيجية.

المبحث الثاني: التركيز على الحوار مع الشعوب.

قد يكون الأفراد والمؤسسات الشعبية أقرب إلى الاستجابة لنداء الحوار، والحوار معها أجدر بأن يعطي ثماراً حسنة وينتج تجاوباً فعالاً مجدياً.

وقد ظهر فعالية تلك الوسيلة جليا في مواقف النبي عليه الصلاة والسلام فقد حاور الجميع. حاور زعماء الكفار المعاندين الجاحدين الذين اتسمت مواقفهم بالاستخفاف بالدعوة والتسفيه بصاحبها والسخرية اللاذعة منه، كما حاور أصحاب المواقف المعتدلة غير العنيفة في جحودها للدعوة. فكما يوجد الأنبياء والأولياء والصالحون الذين قال عنهم الله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[422]، يوجد في المقابل المستكبرون والجبارون والسفهاء والمفسدون في الأرض. وهؤلاء يدعوهم تجبرهم واستكبارهم وعلوهم في الأرض إلى إنكار الحق وجحوده مهما كان بيناً واضحاً، وقد بين القرآن حقيقتهم فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[423].

فإذا سدت سنة الله في الحوار من أجل التفاهم والتعايش، انفتحت سنة الله في الدفع، دفع الباطل بالحق، ودفع الشر بالخير، ودفع الإفساد بالإصلاح، ودفع العدوان بالجهاد.

لأنه لولا هذا الدفع لعمّ الظلام وانتشر الفساد في البر والبحر والجو، وتعطلت مسيرة الحياة البشرية على وجه الأرض أو تعسرت. قال تعالى: (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾[424]. وقال سبحانه ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا

---

[422]- سورة الأنبياء:73.
[423]- سورة النمل: 13-14.
[424]- سورةالبقرة: 251.

اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[425].

ويمكن تفعيل هذه الوسيلة بشكل أفضل من خلال الجاليات المسلمة المتواجدة في مجتمعات غير إسلامية. ولعلّ المرحلة التاريخية الراهنة من أهم المراحل التي ينبغي أن تتوجه إليها أنظار الجاليات المسلمة.

وهي مرحلة ذات بعدين: البعد الأول يتمثل في واقع المخالف في مجتمعه، فقد تعالت صيحات الخطر من قبل علماء النفس والاجتماع منذرة باستفحال أوبئة الانحرافات الأخلاقية واللوثات الشاذة التي باتت تهدد كيان المجتمعات الغربية عموما. ومن ذلك ما كتبه الكاهن المشهور جيري فولول Jerry Fawell في كتابه اسمعي يا أمريكا:" لدي إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتدمير الأسرة والإجهاض وجنوح الناشئة والفوضى الجنسية وتعاطي المخدرات وجرائم القتل إنني أشاهد حطام الإنسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات إن أمريكا بحاجة سريعة إلى الاتقاذ الروحي والأخلاقي إذا كانت تريد أن لا تهلك في القرن العشرين"[426].

أما البعد الثاني فيتمثل في إزالة الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين والتي تأكدت معالمها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. تلك الصورة التي باتت تقض مضاجع المسلمين هناك ولا سبيل للخلاص منها إلا بالتغيير السلوكي الإيجابي الفعّال من قبل المسلمين ومحاولة اختراق المجتمع ثقافيا وتربويا ومحاورة الشعوب بلسان الحال لا المقال.

بيد أن هذا الدور لا يمكن للجالية المسلمة أن تلعبه إلا من خلال العودة إلى هويتها الحضارية الاسلامية والاعتزاز بها وبدورها في تقديم الإسلام. على أن يكون نمط الحياة المعيشية التي يحيونها أنموذجا يتحاورون من خلاله مع الآخر في عقر داره ومجتمعه. ولا يقتصر الحوار على الممارسات الفردية بل لابد أن يمتد ليشمل توعية الجالية المسلمة بدورها كجماعة في المجتمعات، من خلال ممارسة ألوان العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية مع الآخر هناك.

---

[425]- سورة الحج: 40

[426] - Jerry Fawell, Listen America,(New York: Bantam Book. Inc, 1981).

وراجع كذلك: ماجد عرسان الكيلاني، رسالةالمسلم في المجتمع الأمريكي، مقالات في الدعوة والإعلام الاسلامي، مرجع سابق، ص 128.

ومما لاشك فيه أن هذا الأمر يتطلب خطة استراتيجية لدراسة طبيعة المجتمعات التي يعيشون فيها وطبيعة التصورات المشوهة المفتراة على الاسلام مع جهل العامة بالحقيقة التاريخية والحضارية له.

ولعلّ أوضح دليل على فعالية هذه الوسيلة الشواهد التاريخية التي تؤكد دور التجار المسلمين في نشر الإسلام في دول جنوب شرق آسيا وأفريقيا أثناء رحلاتهم التجارية. فقد شقّ الاسلام طريقه عبر التجار المسلمين الذين حاوروا أهل البلاد بسلوكياتهم قبل أقوالهم.

يقول الرحالة جوزيف تومسون في تقرير له نشرته مجلة التايمز:" إذا بلغنا غربي أفريقيا والسودان الأوسط نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا وتقبل عليه بإقبال عجيب شبه أيامه السالفة ترى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون وآخذة في إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر.

وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذا همة وإقدام..وكان يجهد نفسه لنشر لواء ديانته..ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها"[427].

ذلك الدور الذي لم يقابله دور مماثل للجاليات المسلمة في الغرب. وهو أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتعمق لحصر أسباب ذلك ومعالجته.

ولئن كانت الفترات الماضية لم تؤكد بالقدر الكافي ضرورة هذه الخطوة وأهميتها، فإن المرحلة الراهنة أكبر شاهد على حتمية هذا الحل وضرورة الانصياع له. وهذه الخطوة ليست نظرية البتة وإنما هي ضرورة حيوية لا يمكن أن يتصور بدونها تقدما حقيقيا في مجال الحوار العملي مع الآخر. وتتطلب هذه الخطوة من كافة العاملين في مجالات الحوار، محاولة إعادة تأهيل الخطاب الفكرى لمواجهة التحديات الراهنة المتزايدة.

وعلى هذا فكل ما يمكن أن يحقق المصلحة والفائدة، يصلح أن يكون مجالا للحوار، فلا يقتصر الحوار على موضوع دون أخر. بل يشمل كل ما يتعلق بحياة المجتمع فى حاضره

[427]- نقلا عن أنور الجندي، الإسلام يزحف بقوته الذاتية في أفريقيا، مجلة حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة العاشرة، جمادى الآخرة 1389هـ/ أيلول 1969م.

ومستقبله، ويغطي شتى الموضوعات المرتبطة بمناحي الحياة المختلفة، التى تفرضها طبيعة العلاقات الثنائية والمصالح المتبادلة

المبحث الثالث: وسائل تعزيز ثقافة الحوار في المجتمع

يتضح لنا مما سبق أن هناك شعوراً عاماً بضعف ثقافة الحوار بشكل بدأ يترك آثاره السلبية في كثير من مظاهر السلوك اليومي للأفراد في المجتمعات المسلمة على وجه الخصوص. وهو أمر يستدعي تكوين نخبة من علماء النفس والاجتماع والتربية المسلمين لرسم خطة من أجل تغيير الاتجاهات السلبية الشائعة لدى الأفراد والمؤسسات وتكوين الشخصية الإيجابية المستقلة القادرة على تجديد ذاتها واستعادة دورها في الخطاب مع الغير المخالف.

وهذا كله يقتضي البحث في واقع المسلمين والممارسات التربوية التي يعيشونها وما للنظم الأسرية والتعليمية والإعلامية من دور في تعزيز ونشر ثقافة الحوار لدى الأفراد.

من هنا فإن من أهم وسائل نشر ثقافة الحوار وتنميتها:

أولا: التنشئة الاجتماعية Socialization.

تعتبر التنشئة الاجتماعية العملية التي يقوم بها المجتمع من خلال وكالاته ووسائله المختلفة، التي من أهمها الأسرة والمؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام والاتصال وجماعة الأقران والمؤسسات الدينية في تشكيل اتجاهات وسلوك الأفراد وفقا لثقافة المجتمع ومعاييره[428].

فالأسرة تعد بلا منازع الجماعة الأولية التي تكسب النشء الجديد خصائصه النفسية والاجتماعية. فالأسرة هي التي تزود الفرد بالرصيد الأول من القيم التي ترشده في سلوكه وتصرفاته. وتشير الدراسات الحديثة والبحوث التي أجريت بهذا الصدد أن أساليب التنشئة الاجتماعية التي يستخدمها الآباء والأمهات مع الأولاد إنما تعكس الاتجاهات

[428]- معتز سيد عبد الله، عبد اللطيف محمد خليفة، علم النفس الاجتماعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص 213.

الوالديةParental Attitudes وهي عبارة عن مشاعرهم وتوجهاتهم في أساليب التعامل مع الأبناء.

وأغلب طاقات المجتمع الفردية أو الجماعية تنبع من التركيب الأسري للفرد، وكلما كانت التربية الأسرية مبنية على أسس سليمة وبناءة، كلما أنتجت من الكفاءات ما يرفد المجتمع بعوامل القوة والنجاح.

ومن أهم هذه الوسائل التي يمكن الإفادة منها في تعزيز ثقافة الحوار من خلال تربية الوالدين هو تبني مبدأ السماحة معهم. وإعطاء الأبناء حرية اللعب والتعبير عن مشاعرهم دونكبت في المنزل ومحاولة بعث الثقة في نفوسهم وتوجيههم إلى التعامل مع عناصر البيئة من حولهم بدجة من الاستقلال تسمح لهم بنمو اعتمادهم على النفس.

فالتعامل مع الطفل بإيجابية ومحبة ، واحترام فرديته ، يساهم في تفتح شخصيته، وتنمية قدراته الإبداعيَّة ، وهذا موكولٌ بالأسرة التي تستطيع أن تهيئ له فرصة التعبير عن أفكارٍ جديدةٍ وإيجابية، وتوفر له فرص القراءة والمناقشة وطرح الأسئلة.

إن تبني الأسرة للنهج القائم على الحوار مع الطفل، واحترام مشاعره وآرائه، والإصغاء إليه، وترك الحرية له للتعبير بحريَّة عن أفكاره ، من أهم عوامل تعزيز ثقافة الحوار وتأسيسها فيه. على ألاّ تصل إلى الخضوع لرغبات الطفل ، والانقياد لأهوائه في ما يطلب ويرغب ، بل في مشاركته بالقرار الذي يتعلق به.

وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك نموذجا يحتذي به المربون والآباء. فعن سهيل بن سعد ﵁ أن رسول الله أتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدا قال: فتله رسول الله ﷺ في يده[429].

[429]- البخاري: الفتح: 10/ 5620 واللفظ له.

فسلطة الوالدين لا تكون من النوع التسلطي القهري بل تكون كنوع من التوجيه والتربية والقيادة. فيتربى الأفراد فيها على احترام الذات والتفكير الإيجابي واحترام الغير النابع من احترام الإنسان لذاته. وهذا النوع من التنشئة هو الذي ينبغي أن تتوجه إليه أنظار المربين وبخاصة الآباء والأمهات في مجتمعاتنا. ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية في مرحلة مبكرة جدا بتوعية الوالدين بأهمية ذلك ودوره في إرساء القيم والمثل المنشودة.

كما أوضحت تلك الدراسات أن فرض إرادة الوالدين دائما على أبنائهم وتسلطهما عليهم بشكل مستمر واستخدام أساليب التهديد أو الضرب والحرمان تؤدي إلى التطرف وضعف الثقة بالذات وتحاشي المواقف والآخرين والعزلة عن المجتمع وإعاقة الأولاد عن التفاعل الإيجابي مع المجتمع[430].

فوجود نوع من العلاقة السلطوية بين الوالدين والأبناء يحدّ من درجة التواصل الضروري بين الطرفين ويئد روح الحوار والميل إلى العزلة واللجوء إلى الصمت من باب غلق منافذ أية مواجهة بين الطرفين. فيتربى الأولاد على الشعور بالتهميش والظلم مما يؤدي إلى تولد غضب مكبوت لديهم لا يستطيعون التعبير عنه إلا من خلال وسائل العنف والتطرف والتمرد والانحراف في غالب الأحيان.

وقد أظهرت الدراسات أن من ابرز المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بالعدوان أسلوب التنشئة الذي يعايشه الطفل في محيط أسرته على وجه الخصوص. كما أظهرت ارتباط السلوك العدواني بتهيئة الطفل للتصرف بعدوانية مع الآخرين. كما أن تهميش دوره كفرد في الأسرة وإقصاء رأيه والتقليل من شأنه، سيؤدي به إلى ممارسة تلك الأشكال من السلوكيات والتصرفات مع الآخرين[431].

وقد حوت السيرة النبوية نماذج عدة تؤكد هذا التوجه في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم للصغار والكبار بأسلوب يتسم بالأناة والحلم والبعد عن الانفعالات والغضب التي تترك آثارا سلبية على نفسية المتعلم يمتد أثرها إلى مدى بعيد وينعكس على سلوكياته فيما بعد.

---

[430]- حامد الفقي، أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، لويس كامل مليكة(محرر) قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م، ج6، ص 43-45.
[431]- فؤاد البهي السيد، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[432].

كما جاء عن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ يَقُولُ كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[433].

كما أن عدم تربية الأولاد وتنشئتهم على الاستقلالية يسوق، إلى تفعيل روح التبعية وهذا وإن بدا للناظر أنها تضبط روح التمرد لدى المتلقي، إلا أنها لا تحقق الإشباع النفسي إلى الاستقلال عن غيره، التي هي جزء من النمو النفسي السوي لنفس المراهق والتي إن لم يتم إشباعها فسيجتهد المراهق بذاته في البحث عن وسائل الإشباع منطلقًا من تصوره الشخصي للصواب والخطأ أو مما يرده من مصادر أخرى قد تكون غير آمنة.

ومن المعلوم أن من تم تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي فإنه أيضًا عُرضة لاستباق الغير إليه وتربيته على اتباعه خصوصًا إذا وفر له ما يحتاجه من احترام أو شهوات على عكس التربية على المسؤولية التي تنتج لنا أفرادًا قادرين على الإدراك واتباع الصواب وتجنب الخطأ مما يراه نابعًا من ذاته من فكر آمن.

فطريقة الاستبداد والتسلط التي تعتمد على القمع والقسوة، بحيث يتم توجيه الطفل، وفرض الأمور عليه وقتل روح المبادرة والاستقلالية في ذاته، من شأنه أن يترك آثارا سلبية على شخصية الطفل قد تستمر إلى مدى بعيد، وربما تحولت إلى عُقد نفسيَّةٍ تتحكم بسلوكه

432- رواه مسلم، باب المساجد ومواضع الصلاة، رقم 836.
433- رواه البخاري، الأطعمة، رقم 4957.

وتفكيره كالانغلاق والانزواء وغيرها. كما يمكن أن ينجم عن أمثال تلك الممارسات تعلم الطفل والمراهق ممارسة القسوة والعنف التي مورست ضده ومن ثمّ ممارستها ضد الآخرين.

من هنا كان دور الأسرة بالغ الأهمية في الوقاية من مختلف الآثار السلبية التي يمكن أن تترتب بناءا على غياب فقه الحوار وثقافته بين الأفراد.

من هنا ذهب علماء النفس الاجتماعيين إلى أهمية تحاشي الممارسات الخاطئة في تنشئة الأطفال خاصة في الاسرة. وتمثل تلك الممارسات في نظرهم في خلو الحياة الأسرية من أية ضوابط أو التشدد الشديد البعيد عن توضيح مواطن الخلل والزلل في سلوك الطفل. فإذا تجاوز الطفل مرحلة التفاعل الإيجابي مع أقرانه ورفض أسلوب الحوار والمناقشة معهم وانتقل إلى مرحلة العنف والعدوانية مع غيره، فلا بد للوالدين من معالجة الأمر بحزم ومعاقبته معنويا على ذلك ومراقبة ذلك السلوك. وفي المقابل يمكن للوالدين تنمية حساسية الطفل نحو مساعدة الآخرين والتعاطف معهم وتعزيز وسائل التعايش مع الغير.

وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام أنموذجا في التربية الهادئة التي تبني شخصية المتعلم وتنّمي روح الاستقلالية والثقة في نفسه. كما ضرب أمثلة في معالجة الأخطاء الصادرة عن النشء بأسلوب هادئ يتسم بالإيجابية.

عن أَنَسٌ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ يَا أُنَيْسُ اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ قُلْتُ نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَنَسٌ وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُ هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَ[434].

والمتأمل في هذا الحديث، يلحظ الأسلوب التربوي الفذ الذي خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم أنس، الأمر الذي أثمر تصحيح الخطأ والتجاوب معه. فالتنشئة الحقيقية

434- رواه أبو داود، باب الأدب، رقم 4143.

لتعزيز الحوار الهادف البناء لابد أن تبدأ بالاعتناء بالأطفال. فهذا هو المدخل الأساسي الصحيح لكل جهد هادف لتنمية بشرية حقيقية. ولابد من الأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن وأثره في إذكاء وإنجاح هذه التنشئة، فعملية إكساب الطفل المفاهيم الصحيحة والقيّم المثلى، عملية تحتاج إلى كثير من الوقت، لكنها هي المحصلة الفعلية الحقيقية للإنسان.

فهذه التنشئة هي الخطوة الأولى في تربية الفرد على تقبل الرأي الآخر واحترامه، وتعلمّ لغة الحوار الصحيحة وإتقان لغة الاستماع والتقبل أو الرجوع، والتخلص من التكبر الفكري الذي بات يحول دون تقبل إمكانية وجود آخر.

ثانيا: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية

المؤسسات جمع مؤسسة والمؤسسة في اللغة: مشتقة من أس أي أصل كل شيء وأسست الدار أي بنيت حدودها ورفعت قواعدها. ويطلق لفظ المؤسسة على كل ما بني لغرض من الأغراض الربحية وغير الربحية وتدخل في هذا المعنى المؤسسات التي تخصص لأغراض علمية وتربوية وإعلامية[435].

وتعد المؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو جامعة مصنعاً لشخصيات الأفراد سواء كانوا معلمين أم طلبة. ففي المدارس والمعاهد توضع البذور الأساسية لطريقة التفكير من حيث السطحية والعمق وكذا من حيث المنطقية والعملية، أو الذاتية والموضوعية. ومن خلال المدرسة يتم اكتساب المعارف والمعلومات وتكوين الاتجاهات نحو كثير من قضايا الحياة[436].

كما أن الجامعة هي المكان الذي يتاح فيه للعلماء والباحثين والمتعلمين تداول العلم والمعرفة وإجراء البحوث والدراسات. وتنشأ المؤسسات التعليمية بهدف تزويد الناشئة بالمهارات العلمية والأساليب المنهجية عن طريق تدريب عقولهم على الملاحظة والتجريب اللازمين للوصول إلى الاستخدام الأمثل للقدرات العقلية التي زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بها من هنا جاء تصدر الجامعات منذ القدم دور الريادة في تطور الإصلاح الاجتماعي. والمتتبع لتاريخ الجامعات في أوروبا على سبيل المثال، يلحظ أن التحولات وحركات الإصلاح الديني

[435]- لسان العرب، مرجع سابق، مادة أس.
[436]- عبد الرحمن الطريري، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1992م، ص 62.

والفكري والاجتماعي انطلقت في الأساس من الجامعات بواسطة الأساتذة في شتى فروع المعرفة والعلم[437].

والمجتمع المدرسي يعتبر جزءا من المجتمع الكبير باعتبار أن المدرسة مؤسسة اجتماعية تربوية موجهة بسياسة الدولة ولها دورها الهام في إعداد الأجيال من خلال المحتوى وما يتضمنه من أيدلوجية تقدم للتلاميذ، التي تحدد بدورها نوعية الأفكار والمفاهيم التي يكتسبها التلاميذ. ومن ثم فهي ذات تأثير هام على اتجاهاتهم ومعلوماتهم وطريقة تفكيرهم وتكوين مستقبلهم[438].

وقد يكون هناك ضعف أصاب الدور التربوي الذي تلعبه المدرسة بشكل عام في تنمية ثقافة الفرد، وغرس ثقافة الحوار وغرس التفاهم والتعايش بشكل خاص[439]. وهو ضعف لا ينبغي عزوه إلعامل واحد بل هو مرتبط بأسباب عدة، إلا أنه من المؤكد أن التخطيط السليم العلمي الجاد لتغيير هذا الوضع وتحسينه سيؤدي إلى نتائج إيجابية بإذن الله.

فمرحلة التعليم الأساسي التي تشكل مرحلة الطفولة ونهاية مرحلة الطفولة المتأخرة (بداية مرحلة المراهقة) —كما يؤكد علماء النفس- من أنسب مراحل التطبيع الاجتماعي. حيث يبدأ النمو العقلي بالازدياد كما يزداد الطالب اهتماما بالبحث عن الحقائق والقدرة على نمو المفاهيم ويتعلم المعايير والقيّم ويزداد لديه حب الاستطلاع والنقد الموجه لذاته وغيره وقد يتحدى هذه أفكار الآخرين ممن هم أكبر منه في المرحلة العمرية. وهو أمر يمكن الإفادة منه وتوظيفه في عملية تعزيز وغرس ثقافة الحوار أيما إفادة.

من هنا ينبغي الاهتمام بمرحلة الطفولة المتأخرة على وجه الخصوص وبداية مرحلة المراهقة اهتماما أكبر لأهميتها البالغة في غرس القيم والمفاهيم مع التركيز على ضرورة تهيئة الجو المدرسي المنفتح الذي يتطلب الاهتمام بالنواحي النفسية والاجتماعية للطلبة من أجل نمو فكر ذاتي سليم يحاور ويتبادل وجهات النظر ويبدي الرأي فيما حوله.

---

[437]- جمال محمد حسن الزنكي، كيفية تحقيق الهوية الإسلامية الملتزمة للطالب الجامعي، ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودو ركليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي، كلية الآداب، جامعة الكويت، 27-29 مارس، 2000م.

[438] - Spring. Joel. Education, The Worker Citizen, the Social Economic and Political Foundation of Education, New York, London, Long man, 1980, pp. 195-198.

[439]- بتصرف عن: محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص 66.

ويمكن الإفادة في هذا المجال من استخدام برامج التدريب على مهارات التخاطب Communication Skills Training وهي عبارة عن أساليب تعليمية لتدريس سلوكيات التخاطب البناء. ويركز هدف هذه البرامج على منحى حل الصراعات من خلال التدريب على أساليب التفاوض التي تتبع التدريب العام على التخاطب.

وتعد هذه البرامج منحى واعدا لتقليل التوتر في التعامل مع الآخرين والقضاء على الصراع الناتج عن ذلك أحيانا بين الأفراد[440].

ومن النواحي الهامة في هذا السياق ضرورة تغيير ثقافة التلقين في أسلوب التعامل والتعليم المدرسي إلى أسلوب يحقق فيه الطالب ذاته. يقوم على حرية الرأي والحوار والمناقشة والنقد الإيجابي البناء بين الطلبة والمعلمين والتربويين، ليصبح الجو المدرسي مناخا إيجابيا فعالا له دوره في إكساب التلاميذ ثقافة الحوار والانفتاحية والتقبل والاعتراف بالراي الآخر واتسع الأفق. ففي مثل تلك الأجواء تنمو العلاقات الإنسانية والاحترام المتبادل والاتجاهات الفكرية السليمة حتى تتوطد في نفوس الأفراد[441].

فثمة حاجة ملحة وضرورة آنية إلى تغيير ثقافة التلقي والتلقين في المناخ المدرسي والانتقال إلى تبني ثقافة الحوار والنقاش في مختلف القضايا في جو يسوده الاحترام والتقبل والنقد الإيجابي البناء.

فالأسلوب الواحد المفروض في التفكير والتلقي والاستظهار والتعبير والامتحان الذي يُمارس في المؤسسات التعليمية منذ مرحلة الابتدائي إلى المستوى الجامعي، لا يمكن أن يسوق إلى فكرة وجود رأي آخر ناهيك عن إمكانية التفكير في تقبلها أو مناقشتها. **فالمؤسسات التعليمية ومناهجها وأدواتها ومناخها ينبغي أن تتظافر لتنمية حرية التفكير وحرية الاختيار وإبداء الرأي ورعاية القدرات العقلية عند النشء وتوفير فرص النمو الفكري له.**

---

[440] -Corisini, R. (Ed). Encyclopedia of Psycology. New York. John Wiley & Sons. Pp. 39.
أنظر كذلك: علم النفس الاجتماعي، مرجع سابق، ص 700.

[441]- لطيفة إبراهيم خضر، دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، مصر، 2000م، ص 232.

ومن الأساليب التربوية التي ينبغي التنبة لخطورتها في إعاقة ثقافة الحوار لدى الناشئين، أسلوب المصادرة الفكرية. وهو أسلوب يكبت في نفس النشء الرغبات ويعوّق الإرادات ويدخله في صراع مع الذات بين معان وآراء داخلية وواقع خارجي يخشاالانفتاح عليه والإفصاح إليه عما في داخله.

ومما لاشك فيه أن في ظل تلك الأجواء التربوية الخاطئة لا يعرف النشء ما يسمى بالرأي الآخر فأنى له أن يتعلم تقبله ابتداء!!.

إن عملية طرح المشكلات على المتعلمين ودعوتهم إلى التفكير وإيجاد الحلول لها، يعد أحدث اتجاه في التربية المعاصرة. ويتم ذلك عن طريق الحوار بين طرفين هما المعلم والمتعلم فمنهج الحوار يهيء المتلقي ليصبح قادرا على التفكير والنقد والتحليل والإبداع. يقول في ذلك باولو فرايري صاحب كتاب تعليم المقهورين:" إن منهج طرح المشكلات يعتبر الحوار أساسا من أجل فهم العالم..ويساعد منهج التعليم الحواري على الإبداع والفهم والتبصر بحقائق الوجود وبالتالي فإنه يحقق إنسانية الإنسان"[442].

وقد سلك النبي ﷺ أسلوباً فذاً في تبني هذا النهج مع المتعلمين ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة أن فتى من قريش أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إئذن لي في الزنا فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا مه مه فقال أدنه فدنا منه قريبا فقال أتحبه لأمك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لأختك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال أتحبه لعمتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال أتحبه لخالتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[443].

---

[442]- باولو فرايري، تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، دار العلم، بيروت، 1980م، ص 9.

[443]- رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

ففي هذه الواقعة لم يعالج النبي عليه الصلاة والسلام الإشكالية من خلال تقديم موعظة مباشرة أو سلوك سبيل الزجر والنهي، بل لجأ إلى إيصال الفتى للحلّ بنفسه بأسلوب اتسم بالتدرج والحوار الهادف إلى التغيير الإيجابي بالإقناع.

ولا يقل دور المعلم أهمية ومحورية عن دور الأقطاب الأخرى في العملية التربوية. فالمعلم والمربي ينبغي أن يكون بمثابة نموذج المثل الأعلى المقدم في المؤسسة التعليمية. فلا ينبغي أن يقتصر دوره على إلقاء المعلومات وتلقين الأفكار والمفاهيم والمعتقدات من وجهة نظر واحدة تقوم على الإلزام دون أن يشرك المتعلم في ذلك كله ولو بشيء من التحليل والمناقشة وإبداء الرأي فيما يتلقاه[444].

ولا تخفى خطورة هذا النوع من التعليم في تقليل روح الإبداع في نفوس النشء وعدائية الجديد وعدم مراجعة القديم بل والمحافظة عليه بما يحمل من سلبيات أو إيجابيات. بل إن هذا النهج يسوق في بعض الأحيان إلى وصف الجديد بالبدعية والمجدد بسوء النية دون نظرة فاحصة تحليلية قد تصل إن وظفت إيجابيًا إلى التوافق الكامل أو الجزئي أو الرفض على بينة..وهذه أمور ينبغي الاهتمام بها من قبل المعلمين والمربين.

ولا ينحصر دور المعلم في ذلك فحسب بل يمتد ليشمل الممارسات التربوية في المؤسسة التعليمية، من خلال تقديم نماذج تطبيقية تسهم في إرساء هذه الدعائم كشرعية حق المتعلمين في التصويت على بعض القضايا المطروحة في الدروس، وتشجيعهم على إقامة ندوات حوار مفتوحة لمناقشة بعض القضايا المتعلقة باهتماماتهم وحياتهم وواقعهم. فلا يبقى الفرد في المؤسسة التعليمية بمنأى عما يدور في مجتمعه وواقعه.

ولا ينحصر دور المؤسسة في تلقين معلومات ومفاهيم أحادية الجانب بل يمتد ليشمل بعض ما يدور في المجتمع لتتم معالجة ما يمكن أن يطفو على السطح من سلبيات أولا بأول بأسلوب يقوم على الحوار ويتبناه منهجا للعلاج.

فالمدرسة بعناصرها المختلفة تلعب دورا هاما في ترسيخ فضيلة التسامح ونشر ثقافة الحوار عند المتعلمين. فالعلاقة بين المعلم والتلميذ إذا كانت تقوم على احترام شخصية التلميذ

---

[444]- لمزيد من التفاصيل حول ذلك: أنظر: ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الثانية، 1417/1997م، ص 182.

وتشجيعه على الحوار وطرح الأسئلة التي تدور في ذهنه، وإعطائه الفرصة المناسبة لإبداء رأيه، ومناقشته بعيدا عن التعصب، فإن ذلك يجعل الطالب يقدر قيمة التسامح والحوار.

وكلما كانت الأساليب المتبعة في المؤسسة يسودها التقبل والتفاهم والتعايش تجاه المتعلمين، كلما ساهم ذلك في تنمية شخصية الفرد وتحقيقها وإيقاظ مفاهيم التنوع والتقبل للآخر.

ويمكن إدراج الفوائد التالية لنشر ثقافة الحوار التربوي بين المتعلمين في مختلف المؤسسات التعليمية ومن ذلك:

- تعزّيز استراتيجيات بناء العلاقات الإيجابية بين المتعلمين والمدرّسين ومنسوبي المدرسة مما يؤدي إلى شيوع الاحترام المتبادل والتقبل ونبذ الصراع.
- يبني ويعزز ثقة المتعلمين بأنفسهم ويؤكد ذواتهم وينمّي استقلاليتهم، ويشجعهم على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم.
- تدريب المتعلمين على تقبل الاختلاف مع الآخرين وأن ذلك لا يُعدّ تهديدا لهم .
- تدريب المتعلمين على تحقيق وتقرير مبدأ القيم المقبولة فهو مناخ ممتاز لتعديل السلوك.
- تنمية للروح الاجتماعية حيث يساعد في التغلب على الخوف الاجتماعي والخجل، ويعطي مناعة ضد ذلك مستقبلا.
- يُظهِر الحوار، للآباء والمعلمين والمرشدين بشكل صريح أو بشكل إسقاطي، ما يعانيه الأولاد من مشاعر عدائية أو قلق أو خوف أو صراعات نفسية وإحباطات وكبت، وهذه فرصة يجب أن تنتهز لعلاج تلك المشكلات ودعم النمو الانفعالي واستنطاق المشاعر والتنفيس ومن ثمّ معالجتها في مراحل مبكرة.
- تنمية الشعور بإمكانية تصحيح أخطائهم بأنفسهم بالاقتناع نتيجة التعلم.
- تعليم المحاورين الشجاعة النفسية في القبول عند ظهور الدليل من المحاور الآخر.

ثالثا: المناهج الدراسية

تقوم المقررات الدراسية بدور بالغ الأهمية في تنمية وتنشئة الأفراد إذا ما تضمنت أهدافا بعينها وقيّما بذاتها تعكس وتؤكد أهمية ترسيخ مبدأ الحوار وتقبل شرعية الاختلاف

والتنوع. الأمر الذي يتطلب مناهج تؤسس لهذا الفكر وتعززه باعتباره نسقا قيميا من خلال تضمن المقررات الدراسية قيما بعينها كقيمة الوسطية والاعتدال والاتزان وتقبل الرأي الآخر.

فالمناهج الدراسية بما تحويه من معارف ومعلومات وأمثلة وتمارين ونصوص أدبية تمثل حجرا أساسيا في الكيفية التي ينمو بها عقل المتعلم. ويمكن الإفادة من ذلك تطبيقيا من خلال طرح الموضوعات المختلفة من خلال وجهات نظر وأراء متعددة لا تعتمد الأحادية في طرحها أو صياغتها. كما يمكن للمقررات الدراسية أن يتسع مداها الإيجابي من خلال أسلوب المعلم أثناء طرحه وتناوله للمسائل المختلفة بأسلوب يدع للمتعلم حرية الفهم والإدراك والوعي ومن ثم ترشيد عملية التوصل الفكري السليم إلى الصواب ومناقشة ذلك كله بحرية واحترام لرأي المتعلم واستقلاليته.

كما يمكن أن تتضمن بعض المقررات الدراسية خاصة ما يتعلق بالمقررات الدينية والاجتماعية تساؤلات تستثير قدرة المتعلم العقلية على المناقشة والمراجعة وإدراك مواطن الصواب من الخلل في القضايا المختلفة.

أما إذا كانت المناهج تطرح وجهة نظر واحدة على أنها هي الحق، ولا تفسح المجال لطرح الآراء الأخرى ونقدها بصورة علمية،لم تحقق الأهداف المرجوة من العملية التعليمية المتمثلة في تنمية الملكات النقدية والاستقلالية الفكرية لدى الطلاب.

كما إن اعتبار المقرر المدرسي المصدر الوحيد لمعرفة الطالب يجعله سجينا في هذا الكتاب ملتزما بحرفيته، وبالتالي فإنه لا يتعود على قراءة الآخر وتقييم الآراء والأفكار المختلفة . وإذا أضيف إلى ذلك الأسلوب التلقيني المتبع غالبا في المدارس الذي لا يتيح المجال لأي إبداع، ويتعامل مع الطالب على أنه وعاء فارغ يتم حشوه بالمعلومات بشكل قسري، فيمكن تفهم سرّ تعصبهم لآرائهم وعدم تسامحهم مع الرأي الآخر.

فالطفل الذى يتلقى مثل هذه التربية لا يمكن أن ينشأ نشأة سليمة متناغمة مع غيره من الأجناس ، لأنه تلقى تربية معرفية جعلت من الآخرين أعداءً، وبهذا تخلق التربية العدو كي تستفز احساسات الناشئة وتستثمر جهودهم لأغراضها، لأن التلقين عند الصغر أفعل فى النفس وأدوم حتى لو كان مبنيا على التزوير والكذب.

فالطفل لا يستطيع أن يحاكم الحقيقة، و إنما يقدر على تقبلها، وبخاصة إذا قدمت له شكل قصة أو قطعة أدبية أو حادثة تاريخية مشوقة. فهذه الأمور هى التى تشكل الأفكار المتطرفة مستقبلا وتجعلها ثوابت سلوكية تتحكم فى النشأ، ويصعب عليهم التخلص منها. فهي تتحول إلى مبادئ و تحشد لنفسها من أسباب القوة كى تقهر الآخر وتنتصر عليه[445].

ويمكن إضافة مقررات دراسية في مراحل التعليم المختلفة خاصة الأساسي يتم التركيز فيها على إكساب المتعلمين قيّم الحوار والتقبل والتسامح والتعايش ..على أن تتضمن تلك المقررات نصوصا من القرآن والسنة ونماذج التاريخ الاسلامي تركز على هذه القيم وتأصيلها في نفوس النشء. ويمكن أن يكون ذلك من خلال نصوص تحفظ أو موضوعات قراءة نقدية أو تعبير أو قصة ... على أن يتولى المعلم دوره في تناول هذه المقررات وشرحها كمعلومات معرفية بطريقة مشوقة مؤكدا أهميتها في الواقع وصلتها بحياة المجتمع.

ومن ذلك قصص السلف في تعاملهم مع بعضهم البعض فيما اختلفوا فيه، وحرص كل واحد منهم على عدم فرض رأيه مهما بلغت منزلة ذلك الرأي. ومن ذلك ما ينقل عن الإمام مالك: أنه لمَّا ألَّف الموطأ، ومكث أربعين سنة يؤلفه، وقرئ عليه آلاف المرات، وعرضه على سبعين من العلماء فأقروه عليه، وتعب فيه أيما تعب، ومع ذلك لمَّا بلغ الخليفة المنصور كتاب مالك وأعجبه، وقال: إنا نريد أن نعممه على الأمصار، ونأمرهم باتباعه؛ قال له الإمام مالك: "لا تفعل –رحمك الله–، فإن الناس سبقت منهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وما أتوا به، وعملوا بذلك ودانوا به وكل ذلك من اختلاف أصحاب رسول الله – ﷺ - ، ثم من بعدهم من التابعين، ورد الناس عما اعتقدوه ودانوا به أمر صعب شديد، فدع الناس وما هم عليه، ودع أهل كل بلد وما اختاروا لأنفسهم[446].

فمن خلال المادة المقررة يمكن بث المفاهيم والقيم المؤكدة للحوار والتعايش بما يتناسب مع الفئات العمرية للمتعلمين. إضافة إلى أهمية تضمن تلك المقررات تساؤلات تثير العديد من

445- يونس عمرو وغانم مزعل ، العربى فى أدب الأطفال العربى، منشورات مركز البحث العلمى، جامعة الخليل، 1988 م.
446- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج8، ص 61.

المناقشات وعلى المعلم إتاحة الفرص لمثل هذه المناقشات وحسن إدارتها وتوجيهها بين المتعلمين حتى يتم إدراكهم لمعاني المفاهيم من خلال الرأي والرأي الآخر والحوار والنقد والإجابات المدعمة بالوسائل والأدلة العلمية وممارسة الأسلوب العملي في التفكير وتدريب المتعلمين على كيفية توظيفه في حلّ القضايا المختلفة.

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى ضرورة تطوير طرق التدريس والوسائل والتقنيات التعليمية، وعدم التركيز على التدريس التقليدي الذي أظهر عدم فاعليته في ظل التقدم العلمي الذي نعيشه، وضرورة تغيير الأساليب القائمة على الحفظ والاستظهار في معظم المقررات إلى أساليب تقوم على حلّ القضايا بشكل يتم فيه تدريب التلاميذ على إعمال الذهن والاختيار بين البدائل وإعطاء الفرصة للنشء لتحديد وجهات نظرهم وإبدائها وفق منهج علمي مدروس.

كما **تلعب الأنشطة المدرسية دورا هاما في تعزيز ثقافة الحوار** والتقبل للمخالف لما تسهم به في ترجمة المفاهيم المجردة من خلال التدريب والممارسات المختلفة إلى سلوكيات معاشة. من هنا تأتي أهمية تعزيز الأنشطة المدرسية لتحقق دورا إيجابيا في ترجمة القيم والمفاهيم التي يحث عليهاالمعلم والمنهج الدراسي وتنمية قدرة الطالب على التفكير العلمي والعمل الجماعي والتفاعل الفعلي بين التلاميذ ليتم اكتساب معنى الجماعية والتواد والتعايش وحرية الرأي واحترام رأي الآخرين والنقد الإيجابي ...وهذه كلها من أهم القيم الايجابية التي ينبغي تأسيسها. ويمكن حصر بعض الآثار الإيجابية المترتبةعلى تفعيل تلك الوسائل مجتمعة فيما يلي:

- تعويد المتعلمين على الإيجابية
- إشباع حاجات التلاميذ العلمية.
- استثارة قدرات التلاميذ العقلية وتنميتها
- تنمية سلوكيات التلاميذ في التعامل مع الآخرين واحترام آرائهم وتقديرها.
- تنمية روح العمل الجماعي
- النأي بالتلاميذ عن روح التعصب للرأي.

- تحقيق ذات المتعلم من خلال ترك المجال له لتصحيح الخطأ والاستدراك بنفسه فإن عجز عن ذلك، قام المعلم بتعليمه بطريق المحاورة والنقاش والإقناع.

ولابد من التركيز على أهمية سلوك المعلم والمربي مسلك الحوار والإقناع من تلاميذه، فالتعليم لا يتم عن طريق التعسف وفرض الآراء على المتعلمين. بل إن أمثل طريقة لإيصال المعلومة هي عن طريق المحاورة وإشعار المتعلم بالحرية في التعبير عما في نفسه. يقول ابن خلدون في ذلك:" إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم ولا سيما في أصاغر الولد ولأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه العنف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها ودعاه إلى الكسل وحمله علىالكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه"[447].

إن عملية احتكاك المتعلم بمعلميه وزملائه ووجوده في مناخ يعطيه حرية التعبير والحركة والتجريب ..كلها أمور ذات أهمية بالغة في البناء العقلي والنمو السليم للأفراد ليتم البناء سليما وفق منهج علمي بعيد عن الانحرافات الفكرية وتداعياتها[448].

من هنا فإن **للمؤسسة التعليمية دورها المحوري في تأكيد الحوار مفهوما وقيمة في وجدان وأذهان المتعلمين، وبلورته سلوكا وممارسة من خلال المواقف التعلمية المختلفة.**

ومن الوسائل المعاصرة كذلك في هذا الميدان، **استحداث كراسي وبعثات دراسية تمنح للجامعات الغربية** ليتم من خلالها تلقي دارسيها وطلابها تعليمهم في جامعات الدول الإسلامية خاصة فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية والدراست الإسلامية.

فلا يشترط في الحوار أن يتم من خلال الوسائل التقليدية المعروفة بل يمكن أن يتم من خلال وسائل غير مباشرة كهذه تسعى لإشاعة روح التعارف والتعايش بين الذات والآخر.

رابعا: المؤسسات الإعلامية

تقوم وسائل الاعلام بدور فعّال في التنشئة والتربية الاجتماعية. حيث تسهم في إكسابهم معلومات ومعارف وحقائق وأخبار ووقائع وإعلانات ...حول موضوعات معينة

---

[447]- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القم، بيروت، الطبعة الخامسة، 1984م، ص 243. وانظر كذلك: سلمان خلف الله، الحوار وبناء شخصية الطفل، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998م، ص 110.

[448]- أنظر في ذلك: عبد الرحمن الطريري، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الامة، وزارة الأوقاف والشؤون الأسلامية، قطر، 1992م، ص 63.

كما تساعد على تكوين اتجاهات وقيم وأراء الأفراد بما يؤدي إلى تكوين رأي عام حول هذه الموضوعات.

فوسائل الأعلام تعد من أهم وأخطر القنوات التي تسهم مساهمة فعالة في تشكيل العقل وطبيعة توجهه نحو قضية معينة فيمكن من خلال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والقنوات الفضائية والانترنت....التأثير على عقلية الفرد وطريقة تفكيره. وقد ادركت بعض المجتمعات أهمية الأعلام فقامت بتوظيفه بشكل سليم لخدمة أهدافها ومصالحها على المدى القريب والبعيد، وتقديم قضاياها من خلال العرض المطروح بمختلف الأساليب.

ومن المعروف أهمية الرأي العام Public Opinion وموقعه في دول العالم. فقد حظي هذا الجانب باهتمام المتخصصين في العديد من المجالات كعلم النفس والاجتماع والسياسة والإعلام.

ويرجع تزايد الاهتمام بالرأي العام في دول العالم أجمع لما يمثله من أهمية في العديد من المجالات. فالرأي العام يشكل العنصر الأساسي لنجاح أي فكرة تدعو إليها الهيئات أو المؤسسات[449]. ولا يخفى دوره المحوري في التعرف على درجة شيوع بعض الأراء والتصورات الصحيحة أو الخاطئة التي توجه سلوك الأفراد والجماعات واستجاباتهم للمواقف والقضايا المختلفة.

وقد أجمعت البحوث والدراسات التي حاولت الكشف عن أثر وسائل الأعلام المسموعة والمرئية والمقروءة في عملية التنشئة الاجتماعية، على الدور الهام الذي تقوم به هذه الوسائل بوجه عام في تكوين وتغيير الآراء والاتجاهات والسلوك لأفراد المجتمع[450].

ولم يعد لأي مجتمع يريد الرقي والنمو تجاهل الدور الذي تلبعه وسائل الاعلام خاصة في عصر المعلوماتية فهي أداة فعالة في السلوك الاجتماعي والثقافي.

ووسائل الاعلام – إذا ما أُحسن استخدامها– يمكن أن تسهم في تعزيز ثقافة الحوار ونشرها من خلال قيامها بالوظائف الأساسية لها مثل: إكساب الأفراد المعلومات، الإقناع

[449]- محمد عبد القادر حاتم، الرأي العام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م، ص 24. وأنظر كذلك: إسماعيل علي سعد، الراي العام بين القوة والأيدلوجية، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص 150. ألفريد سوفي، الرأي العام، منشورات عويدات، بيروت، 1966م.

[450]- شاهيناز طلعت، وسائل الأعلام والتنمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ص 85.

والترفيه. وهي وظائف تتفاعل فيما بينها لخلق جوّ عام يتوجه نحو الأفراد لتوجيه الخطاب إليهم.

كما لا يخفى أن الاعلام قد تجاوز هذه الوظائف الأساسية ليصبح عاملا مؤثرا مهما في التنمية بل وأداة رئيسية لكسب الرأي العام. فقد لعب هذا النوع من الدعاية دوار محوريا في تغيير مواقف الأفراد والجماعات وحتى الدول لمن يقوم بها من الأطراف ولرفع الروح المعنوية لديها وكسب تعاطف الناس مع قضية معينة[451]. ويجمع الباحثون في هذا الصدد على ضرورة تعلم آليات الإقناع السلمي بواسطة الدعاية التي باتت بديلا حتى للحرب[452].

من هنا **يمكن للإعلام في البلاد الاسلامية المختلفة إحداث الأثر المنشود من خلال توجيه الحوار عبر الوسائل المسموعة والمرئية وبناء ثقافة شعبية تقوم على الحوار من جهة، ومخاطبة الشعوب بلغاتها ولهجاتها المختلفة لإيصال أبجديات الخطاب الإسلامي وغاياته من جهة أخرى،** خاصة في الوقت الراهن الذي اختلطت فيه الأفكار وشوشت المناهج واختلطت الأصوات.

كما يمكن الإفادة مما يعتمده الاعلام الحديث من وسائل لإنجاحه مثل مسألة طرح الفكرة مرات بعد مرات ومتابعتها بأشكال جديدة ومناسبات وظروف مختلفة للوصول إلى الغرض المطلوب[453]. فيمكن طرح فكرة الحوار بأساليب متنوعة فتارة على شكل قصة وتارة بشكل حوار مفتوح وهكذا ..إلى أن تترسخ ثقافة الحوار في النفوس.

وهو أمر سبق إليه القرآن الكريم قبل ذلك بكثير. فقد جاءت حوارات الأنبياء مع أقوامهم وخاصة حوار موسى عليه السلام مع فرعون مرات ومرات في القرآن الكريم.

ويمكن الإفادة من التطور الهائل الحاصل في الاعلام ووسائله، الذي أصبح يتيح للمسلمين فرصة تاريخية لتقديم وعرض الإسلام ومبادئه وتاريخ انجازاته الحضارية وفعالياته في صنع الحضارة الإنسانية.

فقد أضافت شبكة المعلومات الدولية بعدا جديدا لعملية الاعلام والاتصال فلم يعد هناك جهة تنتج المعلومة وترسلها إلى جهة أخرى فحسب، بل أصبح بوسع الفرد العادي من

---

[451]- إسماعيل علي سعد، مرجع سابق، ص 152.

[452]- قصف العقول الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، فيليب تايلور، ترجمة: سامي خشبة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، أبريل 2000م، 233.

[453]- زهير الأعرجي، دراسات في الاعلام، بيروت، الطبعةالثانية، 1982م، ص 52-53.

خلال موقع أو بريد الكتروني أن ينتج ما يشاء من معلومات ويتبادلها مع من يريد وهذا في حد ذاته نوع من الحوار الجديد.

كما أضافت الأقمار الصناعية بعداً جديداً يمكن الإفادة منه في نشر ثقافة الحوار، ألا وهو الحوار بين المشاهدين وبين ضيوف البرامج التي تبث مباشرة على الهواء. وهي أداة يمكن توظيفها لخدمة نشر الحوار كمنهج تتم ممارسته عمليا من خلال هذه البرامج.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الحوار المؤثر في الغير لا يشترط فيه أن يكون أحادي الطرح يتم التركيز فيه على عرض مبادئ الإسلام فقط. بل يمكن أن يتم التأثير من خلال عرض متنوع الوسائل والأساليب. فتارة تطرح على المتلقي الجوانب الجمالية في الحضارة الإسلامية، وتارة تاريخ انتشار الإسلام ...وتارة تحاور بشكل مباشر شخصيات عالمية من المستشرقين وعلماء الغرب.

ولتأثير وسائل الاعلام مستويات عدة تبدأ من مجرد الاهتمام إلى حدوث تدعيم داخلي للاتجاهات إلى تغيير فعلي في تلك الاتجاهات ثم في النهاية إقدام الفرد على سلوك علني.

من هنا فإن دور وسائل الاعلام ومؤسساته يمكن أن يتمركز في أمرين أساسين:

الأول: الخطاب الموجه للمخالف بطريقة غير مباشرة في سبيل تقديم صورة الإسلام الحقة ومبادئه السمحة في التعامل مع الغير عبر التاريخ مع توخي الحذر في الوقوع في فخّ الدفاع والاتهام المضاد للمخالف من خلال تقديم مواقف دفاعية تضع الإسلام والمسلمين موضع الاتهام المتواصل.

الثاني: الخطاب الموجه للذات في سبيل الترقي بنهج الحوار وتفعيل دوره في المجتمع وجعله نهجا عاما بين أفراد المجتمع في طرح ومعالجة مختلف القضايا. إضافة إلى تدريب المتلقي المتواصل على أساليب الحوار البناء والنقاش العلمي لخلق مناخ يحترم الرأي الآخر والقبول بالتنوع والاختلاف.

كما ينبغي الاهتمام بالصحف والمجلات ودورهما في ذلك خاصة فيما يتعلق بتنمية قيمة الحوار لدى الأطفال والمراهقين والشباب. حيث يرى المتخصصون في مجال صحافة هذه الفئة

العمرية أن الصحيفة لا تقل في رسالتها عن الأسرة بالنسبة لهم. وتلعب دورا هاما في تثقيفهم وتشكيل شخصياتهم[454].

إن تأسيس أو إعادة تأسيس وتفعيل النهج الحواري في الأمة يتطلب تغييرا في مناهج الفكر وفي الأنماط السلوكية للأفراد. فيصبح **الاعلام أداة فعالة في محاربة سلوكيات يسعى المجتمع لتغييرها ووقفها كما يسهم بشكل بارز في إرساء قيم وبناء سلوكيات الحوار التي يراد سيادتها في المجتمع. وبهذا يكون الاعلام قد لعب دوره في تشكيل رأي عام يتبنى الحوار منهجاً وسلوكاً تعبوياً.**

فوسائل الاعلام أداة فعالة وأساسية في إرساء ثقافة الحوار كما لا يخفى أثرها في تنمية قدرات الأفراد على ممارسة هذا السلوك وجعله نهجا عاما في طرح المجتمع لمختلف مشاكله واهتماماته وقضايه وبهذا يكون الحوار حلاّ محوريا لا يمكن الاستغناء عنه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق دور الإعلام السلبي في التحريض بطريقة غير مباشرة على السلوك المنحرف والعدواني في المجتمع من خلال عرضه لمشاهد العنف كنوع من الإثارة الفنية.

فمن العوامل الرئيسية التي تزرع في الطفل بدايات اعتياد السلوك العنيف، تلك المشاهدات المتكررة للعنف وإراقة الدماء على شاشات التلفزة وغيرها. ويعد علماء النفس مشاهدة لقطات العنف على شاشات التلفزيون أحد الأسباب الرئيسية لانتشار ظاهرة العنف عالمياً ويدل على صحة ذلك أن الدول والمجتمعات التي لم تكن تعرف هذا النوع من الأفلام، كانت في منأى عن الجريمة بالشكل الذي آلت إليه في الوقت الحاضر.

تقول الكاتبة الأمريكية (بنلوب ليتسن) في سياق الحديث عن العنف الواقعي والعنف المرئي على الشاشة:" منذ جيلين فقط كان من النادر أن يشهد الطفل شخصاً يصاب بحجر ضخم على رأسه، أو يردى قتيلاً برصاصة، أو تدهمه سيارة، أو انفجار تتناثر معه أشلاء الضحايا (...)، أما الآن فإن الأطفال، مثلهم مثل الكبار، يشاهدون هذه الحوادث يومياً وعلى مدار

[454]_ معتز سيد عبد الله و عبد اللطيف خليفة، مرجع سابق، ص 226.

الساعة وعندما يعتاد الطفل ذو الأربع سنوات على هذه المشاهد فإنها في الواقع تصبح شيئاً عادياً بالنسبة له ويفقد الإحساس بها كأعمال غير إنسانية"[455].

ومن الوسائل الاعلامية ذات الأهمية الكبرى في نشر ثقافة الحوار وتعزيزها، **الندوات العامة والمؤتمرات**. فهي مدعاة لتنشيط الأذهان وإثارة العقول وتذويب الجمود والتبلد وغرس روح الإبداع في الأفراد من خلال المشاركة العامة فيها.

بيد أن عملية تفعيل دور وسائل الاعلام في نشر ثقافة الحوار، لابد أن يُسبق بخطوات من أبرزها: إدخال بعض مناهج الثقافة الإسلامية والحضارة والحوار مع الغرب في كليات وأقسام الاعلام في الجامعات المختلفة[456].

كما ينبغي أن يتوجه الاهتمام لإدخال دراسات علوم الاتصال الحديثة وتقنياتها في مناهج الكليات ذات التخصص الشرعي لتخريج إعلاميين مدركين لحيوية دور الثقافة الإسلامية وأهمية نشرها ودعاة مزودين بعلوم وتقنيات العصر التي بات تعلمها من الفروض الأساسية التي لا تعذر بجهلها كوادر الأمة[457].

خامسا: تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد

ركزت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أهمية إقامة شعائر ثابتة في الإسلام تقام في مناسبات زمانية معينة ومن ذلك الخطب المنبرية كخطب الجمعة والعيدين. وقد شهدت تلك المنابر الدعوية في مراحل تاريخية مختلفة، دورا بارزا في طرح مفاهيمالأسلام وتعاليمه وتوجيهاته كما عالجت مختلف المحن والخطوب الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عصفت بالأمة. فكان المسجد بحق جامعة تربوية ومؤسسة تعليمية راشدة، وبقيت خطبة الجمعة من أهم فعاليات المسجد.

بيد أن هذه الوسيلة تحولت بمرور الزمن إلى نوع من الرتابة الفكرية فللم تعد تخرج مواضيع الخطب عن أمور مكررة ومواضيع محددة ربما غابت عن الساحة الواقعية منذ أمد بعيد.

---

[455]- الأطفال أولا، نقلا عن: محمد خضر عبد المختار، الاغتراب والتطرف نحو العنف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م، 76.

[456]- السيد عبد الرؤف، الاعلام والتأسيس لفكر وحدوي اسلامي، بحوث مؤتمر التقريب بين المذاهب الاسلامية وأثره في تحقيق وحدة الأمة، البحرين، ص 8.

[457]- للمزيد حول أعداد الاعلاميين المسلمين راجع مقالات في الدعوة والأعلام الاسلامي، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، رجب 1411هـ، ص 42.

وهكذا باتت الخطبة – في كثير من الأحيان- مكرسة لبعد الدين عن واقع الحياة من خلال ذلك الطرح. وواقع الامر أن الخطابة فن وعلم له أصوله وقواعده ومتطلباته التي من أهمها الثقافة الواسعة والاطلاع العريض على مستجدات الواقع ومتغيرات الحياة، وفهم عميق لشرائح الناس ومستوياته الفكرية والاجتماعية لتأتي الخطبة ملامسة لذلك كله في إيقاع تربوي هادف.

وتأسيس ثقافة الحوار- الذي نحن بصدده- يحتاج إلى تجنيد كافة الطاقات وفق خطة مدروسة لتعزيز قيمة الحوار وتأسيس أدب الاختلاف ونشر الوعي بين الناس عامتهم وخاصتهم من خلال خطب متسلسلة تصب في اتجاه نشر ثقافة الحوار والوعي بدور الأمة في توجيه زمامه.

ويمكن التوسل بالطرق المقترحة التالية لتوظيف الخطب في نشر ثقافة الحوار:

أولا: تأليف كتاب إرشادي خاص بالخطباء يقوم بتأليفه نخبة من مفكري الأمة وعلمائها من مختلف التخصصات الاسلامية والتربوية والاجتماعية والنفسية..يتبنون في كل فترة زمنية معينة(شهرية، فصلية، سنوية) قضية كبرى يتم انتخابها من خلال دراسات ميدانية موثقة تؤكد أهميتها ومحوريتها في المجتمع.

ويمكن تبني قضية الاختلاف وأسسه وآدابه...وما يندرج تحتها من أبجديات كثيرة يمكن أن تشكل أبجديات موضوعات تأخذ حيز عام كامل. على أن يتضمن ذلك الكتاب خطة منهجية متسلسلة يمكن من خلالها توطيد ثقافة الحوار والتسامح مع الآخر ...

ثانيا: دعوة المصلين إلى المساهمة بآرائهم من خلال استفتاء يتم توزيعه بعد كل خطبة حول موضوع الخطبة وأهميته وتشجيعهم على طرح تساؤلاتهم وتحفظاتهم ليتم معالجتها من خلال الخطب اللاحقة. وهذه الخطوة تحمل جانبا تنظيرا وآخر تطبيقي مما يؤكد أهميتها ودورها في نشر ثقافة الحوار وفنونه بين مختلف الطبقات وممارسته عمليا.

ثالثا: ضرورة احتواء الخطبة على ربط واقعي ومعالجة موضوعاتها لما يثار في الواقع مع ربط ذلك كله بالسيرة النبوية والمسيرة التاريخية للأمة مما يستدعي اطلاعا واسعا للخطباء وتمرينا مسبقا ودورات تأهيلية متواصلة لتفعيل دور السيرة النبوية في الدعوة والتعليم.

رابعا: القيام بحملات توعية كل شهر على مستوى العالم الإسلامي قاطبة والعالم العربي بشكل خاص، وذلك من خلال التعاون المشترك الفعال عن طريق رابطة العالم الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامي واتحاد الجامعات والمجامع الفقهية وغير ذلك من منظمات ومؤسسات تضم مختلف دول العالم الاسلامي. ويخصص لكل حملة توعوية موضوع يصب في تكريس وبناء ثقافة التسامح والحوار وتعزيز مبادئ الالفة والمحبة بين المسلمين. والدراسة تقدم اقتراحا لأمثال تلك الموضوعات كقضية **التكفير خطورته آثاره الجسيمة على الفرد والمجتمع**.

ويتم في هذه الحملة تكريس مختلف الجهود لنشر كل ما يتعلق بهذه المسألة بمختلف الأساليب الدعوية عن طريق خطب الجمعة ودروس وحلق العلم في المساجد. ويمكن تقديم لوحات بشكل مشوق يتم تعليقها كجداريات في مختلف المدارس والجامعات وبعض الشوارع والمرافق العامة تضم أحاديثاً نبوية تكرّس مبدأ الاخوة بين المسلمين وتحض على التسامح والوحدة وتحذر من النيل من المسلم أو التشهير به بأي وسيلة. كما تتضافر جهود وسائل الاعلام من خلال الدعاية المكثفة المسبقة والمصاحبة لشعار كل حملة شهرية.

وثمة مؤسسات أخرى لا ينبغي إغفال دورها في عملية إنجاح الحوار، ومنها على سبيل المثال: هيئة الأمم المتحدة، والتنظيمات التابعة لها.. وفى مقدمتها منظمة اليونسكو، التى تتمتع بما يؤهلها لدور مميز فى تنظيم الحوار الحضارى والدعوة إليه، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، وجامعة الدول العربية، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية، منظمة الدول الأمريكية، والاتحاد الأوروبى، ومنظمة دول جنوب شرق أسيا ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة دول عدم الانحياز وغيرها من المنظمات الإقليمية والمؤسسات المتخصصة التابعة لها.

الباب الخامس: الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار

أولا: تخفيف حدة التعصب

ثانيا: تخليص المجتمع من الشخصيات السيكوباثية

ثالثا: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين

رابعا: الدعوة إلى الله

خامسا:التلاقح الحضاري

الباب الخامس

الآثار الإيجابية الناجمة عن الحوار

تتعدد ثمار الحوار الناجح وآثاره الإيجابية على المستوى المنظور والبعيد، ولعل من أبرز آثارها ما يلي:

أولا: تخفيف حدة التعصب

التعصب في اللغة: من العصبية والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناؤئهم ظالمين كانوا أو مظلومين. وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم. والعصبي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم والعصبة هم الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويتعصب بهم[458].

أما التعصب في المفهوم الأوروبي فهو مأخوذ من الاسم اللاتيني الحكم المسبق Praejudicium . ويعني الفكرة المسبقة التي لا تستند إلى واقع موضوعي أو منطق سليم وتكون لدى المرء بحكم وجودها بين من ينتمي إليهم وتنتقل منهم إليه فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة أو الكم دون سابق معرفة أو تجربة. فالتعصب هوى بالنفس واتجاه نفسي[459]. وتغير تلك التوجهات في النفس أمر بالغ الصعوبة لما ينطوي عليه من القوالب النمطية[460].

إلا أن الحوار الهادف المنضبط يعد من أنجع الوسائل في تخليص الفرد والمجتمع من وباء التعصب وتحصينه منه. فالاتصال المباشر بين الجماعات المختلفة يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية والاعتقادات الخاطئة والعمل على تغييرها كما أن التقارب والتفاعل يزيدان في القوة والمحبة بين الجماعات المختلفة.

ويمكن تفعيل هذه الوسائل خاصة في الدول الإسلامية التي يعيش فيها أقليات من معتقدات مختلفة. ففي ظل التقارب والاتصال تزداد فرص التفاعل الإيجابي وإمكان قيام علاقات تقوم على الحوار والاعتراف بالآخر.

---

[458]- ابن منظور،مرجع سابق، ج2، ص 296.
[459]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي، 1995، ص 345.
[460]- معتز عبد الله، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م، ص 88.

والسيرة النبوية حافلة بالشواهد التي تدل على وقوع أنواع شتى من الاتصالات التجارية والثقافية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى في مجتمع المدينة، مما أدى إلى غياب روح التعصب والقضاء عليها إلى حد كبير رغم وجود جماعات متباينة في المجتمع الواحد. فلغة الحوار هي السبيل الأمثل للتواصل مع الآخر في الوجود الإنساني، وإن كان يحمل رأياً مناقضاً أو فكراً معارضاً، أو مذهباً يبتعد في تكوينه عن الآخرين.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على مد جسور الحوار والتعارف في مجتمع المدينة مع مختلف الفئات المتواجدة آنذاك، ليخلص المجتمع من القوالب النمطية المهددة بإشعال التعصب والتحزب من حين لآخر. جاء في السيرة النبوية عَنْ أَنَسٍ أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ فَأَجَابَهُ[461].

والتعصب باعتباره سلوكا متعلما، يمكن تغييره أو التخفيف من حدته إلى حد كبير، من خلال تفعيل وسائل التوعية والدعاية غير المباشرة والتثقيف. ويلعب التعليم دورا إيجابيا هاما من خلال التشجيع على تقريب المسافات بين الجماعات المتعايشة خاصة تلك التي تشترك في مجتمع واحد.

ولا يشترط في الحوار والاتصال أن يكون بشكل مباشر بين الجماعات المختلفة، بل يكتفى بالمشاركة في أعمال ومشاريع متنوعة، يحدث من خلالها احتكاك واطلاع على إمكانيات الآخرين وأفكارهم.

ثانيا: تخليص المجتمع من الشخصيات السيكوباثية

الشخصية السكوباثية هي التي تتسم بالعنف غير الطبيعي، وتعاني من انحراف السلوك، وتسبب المعاناة لمن حولها في الأسرة والمجتمع، وتتسم بعجزها عن تكوين علاقة دائمة من المودة والاحترام مع الآخرين.

وثمة عوامل تسهم في تشكّل نمط الشخصية المضادة للمجتمع (السيكوباثية)، منها ما يتعلق بالتكوين الأسري وبفئة الأسرة عموماً، ومنها ما يكتسب من عوامل سيكولوجية في الطفولة أو المراحل التالية، ومنها ما يتعلق بالحالة البيئية الاجتماعية التي نشأت فيها الشخصية.

---

[461]- مسند أحمد. 13357

وتؤكد الدراسات أهمية عدم حصر عامل واحد والتركيز عليه في نشأة مثل تلك الشخصية وإغفال العوامل الأخرى، بل ينبغي استحضارها جميعا.

وتشير الدراسات النفسية إلى أن الأسرة التي يعيش أفرادها حالة التفكك والانحلال وكثرة النزاعات والتحلل في العلاقات، تعد النواة الأولى لنشأة وترعرع السلوك المضاد للمجتمع (السيكوباثي). ويندرج تحت ذلك ممارسة القسوة الجسدية أو النفسية على الأبناء، وإحساس الطفل بالخوف أو الرعب الزائد من قِبل الأبوين أو القائمين على التربية. فتبقى صورة القسوة والعنف مرتسمة في مخيلة الطفل.

ثم إن هذا النمط من الشخصيات سرعان ما يتزايد ظهوره في البيئات التي تفشل في التواصل مع الآخرين، فتبقى محصورة مع الذات، لتقوم في فترة لاحقة بإفرازها من خلال العنف والتعدي على أفراد المجتمع والخشونة والتهور في المعاملة[462].

ثالثا: تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين

الحوار من أهم وسائل الحفاظ على وحدة الأمة وتحقيق التآلف بين افرادها وهو أمر تضافرت على وجوبه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. فمن تأمل أحكام الشرع وجد مظاهر كثيرة تؤكد على أهمية الاتفاق والاجتماع، وتقضي على الفرقة والشتات.

فجمعت الناس في أنساكهم وصيامهم وصلاتهم: أن يشرعوا فيها في وقت واحد، ويختموها في وقت واحد، وشرع الاصطفاف للصلاة والتراص، ونهى عن تفويت الجماعة في الصلوات...إلى أخر ذلك من تطبيقات تضافرت على تأكيد هذا المعنى.

وقد اختار بعض العلماء كالثوري ومالك وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي عدم إعادة الجماعة في مسجد له إمام راتب. فمن فاتته الجماعة صلى منفردا لئلا يفضي ذلك إلى اختلاف القلوب والعداوة[463]. وفي هذا إعمال لمقاصد التشريع في الحفاظ على الوحدة والنهي عن الفرقة مهما كانت أسبابها ودواعيها. بل وترك بعض الأمور التي تصل حد الوجوب في سبيل الحفاظ على مصلحة عامة تتمثل في وحدة المسلمين.

وتأسيساً على هذا المبدأ الأصيل، ذهب العلماء إلى أن الرد علىالمخالف إذا ترتبت عليه مفسدة أكبر، فلا يسوغ الرد عليه. يقول ابن القيم: "إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب

---

[462]- راجع في ذلك كله: ليندا، ل، دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، القاهرة، 1983م، ص616 وما بعدها.

[463]- عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج2، ص 5.

إنكار المنكر ليحل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذ كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله"[464].

رابعا: الدعوة إلى الله

لعل من نافلة القول تأكيد أهمية انفتاح الدعوة الإسلامية وضرورة توجيهها للعالم أجمع، دون حصرها بمكان أو زمان أو بفئة معينة. وهذا الانفتاح الخطاب أمر رباني عززته عشرات النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي أكدت عالمية الدعوة الإسلامية ودور المسلم في إيصال أبجديات هذه الدعوة بأفضل الوسائل والسبل المتاحة.

يقول الشاطبي رحمه الله في ذلك:" الشريعة بحسب المكلفين كلية عامة بمعنى أنه لا يختص بالخطاب بحكم من أحكامها الطلبية بعض دون بعض ولا يحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف ألبتة والدليل على ذلك مع أنه واضح أمور أحدها النصوص المتضافرة كقوله تعالى: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقوله قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا وقوله عليه الصلاة والسلام بعثت إلى الأحمر والأسود [465]وأشباه هذه النصوص مما يدل على أن البعثة عامة لا خاصة ولو كان بعض الناس مختصا بما لم يخص به غيره لم يكن مرسلا للناس جميعا"[466].

والمسلمون في كل عصر ومكان مأمورون بحمل هذا التكليف عن طريق الحوار والتفاعل مع أصحاب الملل والديانات الأخرى والانفتاح على الآخرين ومدّ الخطاب الدعوي إلى العالم وشعوبه قاطبة والحوار أولى وسائل التبليغ الدعوي وأهمها. والتاريخ الإسلامي في مختلف مراحلة استجابة لهذا التكليف الرباني الذي أدرك السلف الصالح أهميته ومحوريته.

ويترتب على الحوار الناجح، أن يصبح همّ المحاور المسلم من حواره وغايته الأولى تقوى الله وتحقيق مرضاته من خلال إحيائه لهذه الفريضة الغائبة التي لا ينصرف همه فيها إلى

---

[464]- ابن القيم الجوزية، اعلام الموقعين، مرجع سابق، ج3، ص 4.
[465]- رواه أحمد وابن حبان.
[466]- أبو إسحاق الشاطبي، مرجع سابق، ج2، ص 244.

حب ظهور او شهرة بين الناس بل غايته إظهار الحق وتبليغه تنفيذا لأمر الله. يقول الباجي رحمه الله في ذلك:" ينبغي للمناظِر أن يقدم على جدله تقوى الله عز وجل ليزكو نظره ثم يسأله المعونة والتوفيق لنفسه على طلب الحق وتوفيقه لإدراكه ويقصد بنظره طلب الحق والوكالة عليه ليدرك مقصوده ويحوز أجره ولا يقصد به المباهاة والمفاخرة فيذهب مقصوده ويكتسب إثمه ووزره.."[467].

فإذا تحقق المحاور أن الحوار في الأصل سبيل للدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصبح لعمله هدفا يسعى لتحقيقه وليس مجرد حاجة تلح عليها الظرفية التي يعيشها الناس اليوم.

يقول في ذلك الإمام الجويني[468]:" أول شيء فيه مما على الناظر، أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء الحق عن الباطل وعما يخبر فيه ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وإبطال الباطل. ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه والتكسب والمماراة والمحك والرياء ويحذر أليم عقاب الله سبحانه ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر.."[469].

ولا ينبغي أن ينصرف الحوار إلى فئات معينة من الشعوب وإنما يتجه إلى مختلف الفئات خاصة الفئة الشبابية من طلبة الجامعات الغربية على وجه الخصوص. فقد فترت قناعة هؤلاء بما تلقيه عليهم الكنيسة من تعاليم وعقائد يعجزون في كثير من الأحيان عن فهمها وفهم مدى واقعيتها ومصداقيتها في حل ما يعانون من مشاكل. وقد ظهر العديد من الدراسات الغربية التي تتحدث عن أزمة الشباب في الغرب في محاولات لإيجاد بعض الحلول

---

[467]- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، مرجع سابق، ص 9.

[468]- هو عبد الملك بن يوسف بن عبد الله الجويني النيسابوري يلقب بإمام الحرمين، ولد سنة 419هـ في أسرة عريقة معروفة بالعلم سمع عن أبيه أولا وعن الإسفراييني وغيره من علماء عصره ورحل في طلب العلم كثيرا توفي سنة 478هـ. من مؤلفاته الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد، البرهان في أصول الفقه والكافيه في الجدل وغيرها. أنظر ترجمته في: طبقات الشافعية، ج2، ص 255. سير أعلام النبلاء، ج18، ص 468.

[469]- عبد الملك بن عبد الله الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسين محمود، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1399هـ/ 1979م، ص 529.

من خلال إقامة ندوات وحوارات ومؤتمرات حول ذلك[470]. وعليه فإن الفرصة سانحة لمشاركة المسلمين في تلك اللقاءات وتقديم التصور الاسلامي للحياة والوجود ودور الشباب فيها، مع لتأكيد على قدرة الإسلام على وضع مبادئ وقيم أخلاقية روحية عالمية توجّه وترشد تطور المجتمع الإنسانى المعاصر، خاصة مع تزايد الإحساس العالمى بأزمة الإنسانية فى ظل التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتسارعة. فالإسلام قادر على توفير القيم الحافظة للعلاقات الإنسانية فى عالم يشوبه القلق وفقدان الشعور بالأمن، وضآلة العلاقات الإنسانية.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أهمية مراعاة الواقعية في عرض ذلك كله، وهو أمر لا يتأتى إلا بالقدرة على فهم واقع الأمم والشعوب والتعرف على عناصرها ومكوناتها في محاولة لتقديم تصورات ومفاهيم وحلول ملائمة تستجيب لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع، انطلاقا من المبادئ والقيم والمقاصد الإسلامية. وهو أمر يتطلب القدرة على الإبداع الحضارى والقابلية المتميزة للكشف عن القيم الاسلامية وما يمكن أن تقدمه من معالجات، وصيغ متميزة فى المجالات التنموية المختلفة.

[470]- انظر سلسلة المؤتمرات والندوات المقامة في ألمانيا لمعالجةوضع الشباب في: السيد محمد الشاهد، المسيحية والاسلام من الجوار إلى الحوار، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، 1412هـ/ 2001م، ص 25.

خامسا: التلاقح الحضاري

يعيش العالم بصورة متصاعدة، تغيرات متسارعة في مكوناته الحضارية والثقافية نتيجة للثورة التقنية والمعلوماتية التي أنتجت نماذج فريدة في تشكيل العالم يصعب اللحاق بها أو فهمها.

وهذه المعطيات والتغيرات الجديدة والتحولات السريعة والثورة المعلوماتية الهائلة واختفاء الحواجز الثقافية ..تفرض علينا إيجاد وسائل فاعلة للتعامل معها والحوار حولها، والعمل المشترك على توظيفها فى خدمة الإنسانية ومواجهة تداعياتها السلبية.

كما أن التنافس الثقافي من أهم عوامل النمو والتطور. وأغلب الحضارات والإبداعات ظهرت عندما واجهت تحديات وتواصلت بشكل إيجابي مع الآخرين. لأن إبداع الآخر يستثير ويحرك روح التنافس. وهو ما شهده التاريخ في النهضة الأوروبية التي بدأت من خلال اتصالها بالآخر المسلم في قرطبة وأشبيلية وغيرها من قلاع العلم والمعرفة الإسلامية آنذاك. **فالتواصل الفكري يؤدي إلى وجود أفكار جديدة عبر التفاعل والتكامل بل والتضاد.**

تقول المستشرقة زيغريد هونكة: " كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة وحمت الإسلام من الجمود وأجبرته على أن يسلح نفسه علميا وأن يتطور بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها"[471].

وقد أثبتت الدراسات السيكواجتماعية، ومدرسة جنيف التي تتعلق بالبناء الاجتماعي للذكاء، أن القدرات العقلية للفرد لا يمكنها أن تتطور إلا مع الآخر المختلف أي في ظل الصراعات المعرفية، التي تشكل المجال الأفضل للتطور الذهني والمعرفي. فالتفاعل الاجتماعي، يمكّن الفرد من بناء أدوات ذهنية جديدة تساعده على مزيد المشاركة في تفاعلات اجتماعية أكثر تطوراً وأكثر تعقيداً، وهو ما يسمى بالسببية اللولبية[472].

---

[471]- زيغريد هونكه، ص 373.

[472]- حول ذلك انظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة مدارس علم النفس، مكتبة مدبولي، مصر، 1995، ص 471. وهو ما أشارت إليه المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه. انظر من هذه الدراسة ص 54.

كما تؤكد الأبحاث التطبيقية في علم النفس والتعليم التي قام بها **جان بياجيه**[473] (1896-1980) أن التقدم المعرفي وإثراء الفكر لا يحصل إلا إذا وجد الأفراد أنفسهم في وضعيات اختلاف ومواجهة مع أفراد متنوعي المستويات والتوجهات. وبناء على ماقدمته هذه الأبحاث من حقائق يمكن أن نستنتج أن **أي صراع معرفي بإمكانه أن يؤدي إلى إثراء الفكر يشترط وجود اختلافات في آراء الأطراف المجتمعة حول عملية تملك المعرفة**. إذ أن الاختلاف يفرز لدى الفرد وعياً مزدوجاً[474]. فهو من ناحية يشعر الفرد أن نظامه التأويلي غير متلائم مع ماهو مطلوب منه فيتجاوز بذلك البداهة الخادعة والأفكار المسبّقة والمعارف الحسية المباشرة والسطحية عبر تصحيح الفكر بالوقائع، وترشيد الواقع بالفكر في حوار جدلي دائم. ومن ناحية أخرى يكتشف الفرد أوجه نظر مغايرة، وهو أمر جد هام: لأن هذا الاكتشاف سيعينه على تجاوز التمركز حول الذات (أي تمركزهُ حول ذاته) المضرة بالنمو السليم لفكره، لأن الطفل يتجاوزها عند سن السابعة. إلا أن إثراء الفكر عن طريق الصراعات المعرفية يتطلب مُناخاً معيناً يقبل الاختلاف ويسوده التفاهم والتسامح.

وقد بينت الدراسات السيكواجتماعية منذ تجربة ك. لوين المجرات سنة 1938 . مدى تأثير الأجواء السائدة على نتاج الفكر وإثرائه.

كما تؤكد النظرية التفاعلية الاجتماعية لدواز ***Doise*** أن التعلم لا يتم عن طريق الصراع المعرفي فحسب بل يتم بصفة أفضل داخل المجموعة وذلك عن طريق الصراعات الاجتماعية المعرفية *Les conflits sociocognitifs*.

وقد أبرزت مدرسة جينيف من خلال مباحثها أن **دينامية التطور المعرفي تكون أفضل داخل وضعيات التفاعل الاجتماعي تلك التي تحمل كل مشارك في الصراع على ابداء**

[473]- نظرية الارتقاء المعرفي لـ " جان بياجيه" "1896- 1980" هي واحدة من أهم النظريات في علم النفس الحديث، واذا كان مقياس اي نظرية يقاس بقابلية فروضها للتحقق من صحتها وامكانية الحصول على نفس النتائج في ظروف مشابهة مع وضوح التعريفات المتعلقة بالنظرية الى جانب ما يمكن للنظرية أن تثيره من بحوث جديدة، فاننا نستطيع ان نقول أن أغلب هذه الشروط - ان لم يكن كلها - قد توافرت لنظرية "بياجيه" بطريقة لم تتوافر لأية نظرية اخرى مشابهة في مجال علم النفس ، فقد حصر "مدجل" حتى عام 1976 ما يزيد على 35 ألف بحث ودراسة أجريت حول المفاهيم الاساسية في نظرية "جان بياجيه".

[474]- أرنو ف. ويتبيج، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون، دار ماكجروهيل للنشر، 1984م، ص 329. وانظر: جان بياجيه ، اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة احمد عزت راجح ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1954 م.

آرائه أو **تنسيق جهوده مع الآخرين الشيء الذي يمكنه من التطور المعرفي**، وتشترط لذلك: وجود نسبة من الاختلافات بين آراء الأفراد. كما ترى ضرورة تنظيم المشاركة وتطوير الصراع المعرفي ليؤتي ثماره.

وتشكل العوامل الذاتية أكثر العناصر محورية وأهمية في الذات. فالنفس الإنسانية عندما تسرف في تقدير ذاتها وتستعلي على الآخرين وتحس بالتفوق المطلق ترفض الاعتراف بغيرها، ومن هنا ينشأ الاستبداد. هذا بالإضافة إلى سيطرة الروح الأنانية والمصلحية في الإنسان التي تحاول ان تحتكر كل شيء لصالح منافعها الخاصة، هذه الأنانية قادت ولاشك إلى كثير من النزاعات والصراعات العبثية. ويرى الفيلسوف الفرنسي ألكسيس دي توكفيل[475] Tocqueville أن الفردية بحد ذاتها صيغة مخففة من الأنانية التي تدفع كل فرد من أفراد المجتمع إلى عزل نفسه والابتعاد عن الآخرين. ويرى توكفيل أن تماسك المجتمع يتطلب تجاوز النزعة الفردية والأنانية الضيقة[476].

إن القراءة التاريخية لمعظم الأمم والحضارات تعطينا نتيجة واضحة وهي ان **الأمم التي استطاعت ان تتقدم وتتطور وترتقي سلم الحضارة هي الأمم التي استطاعت ان توجد حالة التجانس والتعايش والتفاهم بين مختلف الفئات والقوميات والطوائف والأديان وفي مختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية** بحيث كتب لها البقاء التاريخي على مرور الأجيال لقدرتها على تحقيق الوفاق الإنساني والسلام العام.

والأمة الإسلامية التي أنشأها رسول الله مُحَمَّد ﷺ، شاهد حيّ لايزال يزخر بنماذجه الرائعة. فقد استطاعت أن تجمع النسيج البشري في أطر متوافقة من أجل البناء المشترك والحياة السليمة والعدالة العامة بعيدا عن الحرب والقتل والعنف.

475- ولد توكفيل بعد الثورة الفرنسية مباشرة (عام 1805) ومات بعد أواسط القرن التاسع عشر بقليل عن عمر لا يتجاوز الرابعة والخمسين عاماً، مفكر سياسي وعالم اجتماع ومؤرخ عميق في ذات الوقت، وقد ولد اصلاً في عائلة ارستقراطية مؤيدة للعهد القديم ومعادية بالضرورة للثورة الفرنسية التي قضت على امتيازات الطبقة الارستقراطية ومصالحه. خلف وراءه بعض الكتب المهمة من أشهرها الديمقراطية في أمريكا.

476- حول ذلك كله انظر:
Oliviour Zunz & Alan S. Kahan,The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003.

فقد استفاد المجتمع المسلم من التواصل الإيجابي مع محافظته على قيمه الذاتية، بناءا على وجود قدرة واعية في تفهم الآخر والاستفادة بشكل متبصر من خلال التبادل الفكري والعلمي والحضاري. من هنا وجدت شخصيات بارزة أسهمت في صياغة الحضارة الإسلامية ونموها رغم مخالفتها في المعتقد والملة. ولم يكن في أي زمن من الأزمنة عنصر التنوع والاختلاف، مشرّعا للتناحر والصراع والتصادم.

إن قدرة أي أمة في تحقيق قوتها ورقيها هو في قدرتها على استيعاب الآخرين وضمهم في مسيرتها وتحقيق الوفاق الجماعي الشامل. كما أن عجز أي امة يتبين من نبذها للأخرين وتشتيتها لأفرادها واختيار تقطيع أوصالها لكيانها عندما ترفض مبدأ التوافق. حيث أن التعامل الإيجابي والمتفهم مع الآخر الفكري أو المذهبي أو الديني.. هو العنصر الأساسي في حركة التاريخ المتقدمة نحو المستقبل. إذ أن حركة الإنسان لا تتكامل عناصرها بشكل عملي إلا بتكامل الجسم الإنساني العام. فالإنسان لوحده لا يشكل إلا وجودا يمثل وجها واحدا والوجه الآخر هو الإنسان الآخر الذي يمثل البعد الآخر المكمّل للوجود الإنساني.

الباب السادس: الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار

المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات

المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب

المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري

المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف

المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد

المبحث السابع: الوقوع في الظلم والبغي وبروز ظاهرة التكفير

المبحث الثامن: انتشار داء الفرقة والنزاع

المبحث التاسع: التراجع الحضاري

الباب السادس

الآثار السلبية الناجمة عن غياب ثقافة الحوار

إذا غابت ثقافة الحوار عن المجتمع سواء أكان ذلك الحوار داخليا أم خارجيا، طفت جملة من الظواهر السلبية التي قد لا يتفطن المجتمع في البداية إلى خطورتها، إلا أنها سرعان ما تنتشر ويستفحل أثرها. من هنا فإن كوادر المجتمع الثقافية مطالبة بمراجعة ودراسة الظواهر المجتمعية أولا بأول، والتنبه لمعالجتها مبكرا قبل استفحال خطورتها، ومن تلك الآثار:

المبحث الأول: الإسراف في تقدير الذات

يذكر علماء النفس أن للشخصية الإنسانية جوانب ثلاثة كما تقرر مدرسة التحليل النفسي حيث يرى مؤسس هذه المدرسة أن هذه الجوانب هي (الهو Id) (الأنا Ego) (الأنا الأعلى superego). ومنبع التعصب للرأي هي (الأنا ego) وهي تختلف من شخص لآخر حسب المستوى والعمر والطموح. وتشكل ضغطاً على النفس عندما يفسح لها المجال التوسعي فترى ذاتها فوق الآخر. وتوجد علاقة وطيدة بين حب الذات والآخرين فالذاتية تجعل الفرد يحافظ على وجوده. ويرى شوبنهور Showpenhoor أنه منع الفردية Individuality والأنانية(حب الذات) يريد الفرد كل شيء لنفسه، ويجعل من ذاته مركز العالم وينظر إلى كل ما يجري من حوله من زاويته الخاصة فقط. كما يتلقى مصالح الآخرين واهتماماتهم باللامبالاة وعدم الاكتراث. من هنا كان حب الذات والإسراف في تقديرها مدعاة لنهاية الإنسان ذاته كما أكد ذلك الفيلسوف الأخلاقي Gankifitish[477].

وبهذا يفر المرء إلى الانغلاق حتى يصبح السمة الأساسية في سلوك الأفراد والجماعات مع قطع خطوط الاتصال والتواصل مع الآخر.

كما تمتد خطورة الإسراف في تقدير الذات إلى خلق شعور بفرط الإحساس بالانتماء إلى جماعة الفرد ذاته فيدفعه إلى التفاخر بأصله على حساب قوميات أخرى وأمم أخرى. ثم إن هذا الأحساس يمكن أن يسوق إلى الشعور بالمغايرة للأمم الأخرى وهذه المغايرة من الأسباب

[477]- إيريك فروم، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود، ص 31-33.

النفسية الدافعة للكراهية والمستوجبة للنفور. وفي الحالات الشديدة قد تتحول إلى فوبيا الأغراب Xenophobia[478].

و يعد الإسراف في تقدير الذات من أبرز عوامل الجمود والتوقف عن السير في الخط الإيجابي. من هنا جاء تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من تلك المرحلة أيما تحذير حين قال:" إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك.."[479].

ومن النتائج المترتبة على ذلك، التعصب للرأي وإملائه على الآخرين وفرضه في جميع دوائر الحياة ومناحيها. فتبرز مجتمعات الكراهية وفقدان الثقة بالآخرين وتفرق الكلمة والتستر على العيوب وتحطم روح الجماعات وسدّ قنوات الاتصال بالآخرين والتفاهم معهم.

ومن أخطر نتائج الانغلاق على الذات وإقصاء الآخر انتشار الانحرافات الفكرية والثقافية وغيرها. فقد أثبتت إفرازات الواقع أن أغلب الانحرافات تنشأ في الأجواء المنغلقة والاستبدادية. لأن عدم وجود التواصل المستمر يلغي حركة الحوار والتخاطب البناء في المجتمع مما يساهم في ترسيخ الأفكار السلبية ونمو الأفكار الضالة التي تنشأ في الأذهان لشبهات بسيطة لم تجد جوابا ونقاشا من الآخرين. لذلك نرى الكثير من المجتمعات المنعزلة تصبح مرتعا للانحراف بعد ان فقدت التواصل قواعدها الداخلية وعالمها الخارجي كذلك.

ومع غياب الحوار وتنامي الإحساس بتقدير الذات واعتقاد امتلاكها الحق المطلق دون سواها، يتفاقم الانغلاق الفكري المسوق إلى التطرف الفكري.

المبحث الثاني: شيوع فكر التعصب

والتعصب يجعل في مقدرة المتعصبين الذين لهم السيطرة في مجتمعاتهم أن يميزوا أنفسهم فيها وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم. وعادة ما يتوجه في المجتمع الواحد من الأغلبية إلى الأقلية. ويفسر ذلك التوجه علماء النفس الاجتماعيين أن بعض المجتمعات أو بعض الأفراد في جماعة داخل المجتمع، تقوم على اعتبار تماسكها في

---

[478]- عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ص 348.

[479]- رواه الترمذي ي السنن، ج8، ص 222 رقم 3060. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، ج2، ص 1331 رقم 4014. وسنن أبي داود، ج4، كتاب الملاحم.

جماعة واحدة داخلية وتطلق على الأقلية أو ما دونها اسم الجماعة الخارجية. وتبدأ بتصور غيرها من الجماعات على أنها جماعات خارجية مختلفة عنها في خصائصها وثقافتها وقيمها. وبناء على ذلك تعاملها معاملة تتسم بالتعصب والتمييز. وكثيرا ما يقوم الصراع بينهما حيث تمثل قيم ومعايير وأنماط السلوك للجماعة الخارجية تهديدا لتماسك الجماعة الداخلية[480].

وهو وباء نفسي اجتماعي قديم حاربه الإسلام منذ بداية ظهوره. فقد كانت قيم العصبية القبلية العربية ومحاور الولاء التي أفرزتها متأصلة بعمق في الذات العربية. فلما جاء الإسلام أحدث نقلة نوعية تأبى انتقال تلك العصبية إلى المجتمع العالمي الجديد وتؤكد توسيع شبكة العلاقات الاجتماعية إلى ما وراء دائرة الولاء القبلي. وقد شكل التعصب والولاءات العصبية واحدة من أعتى العقبات في طريق الدعوة وانتشارها في بيئة كانت تعتبر المقيمين خارج الدائرة القبلية أجانب عنها ولا ولاء يربطهم بالقبيلة.

فكان التحدي الأكبر أن يواجه ذلك التيار وأن يتم تزكية النفوس في سبيل بناء أمو عالمية يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق.

وعلى هذا حارب النبي عليه الصلاة والسلام قيم التعصب واعتبرها قيما بالية نتنة وحذّر الأمة من الردة إليها واعتبرها من الأمور الكبيرة. ففي الحديث:" إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب".

وفي حديث آخر:" دعوها فإنها منتنة" عندما ضرب أجير عمر رضي الله تعالى عنه حليف الخزرج فسال الدم، فنادى حليف الخزرج يا معشر الانصار وقيل قال يا للخزرج. ونادى أجير عمر يا معشر المهاجرين وقيل قال يا لكنانة يا لقريش. فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة. فخرج رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية فأخبر بالحال أي فقالوا رجل من المهاجرين ضرب رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوها أي تلك الكلمة التي هي يا لفلان فإنها منتنة أي مذمومة لانها من دعوى الجاهلية"[481].

((من نصر قومه على غير الحق؛ فهو كالبعير الذي رُدِّي، فهو يُنزع بذنبه))[482].

---

[480]- الحفني، مرجع سابق، ص 349.

[481]- السيرة الحلبية، ج2، ص 595.

[482]- أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في العصبية 341/5، بإسناد صحيح.

والتعصب له أسبابه المختلفة إلا أن واحدا من أهم أسباب تزايده ودواعيه، غياب الحوار مع المخالف. مما ينجم عنه اتساع في الهوة بين الأغلبية التي تعيش غالبا في بلدها وبين أفراد مجتمعها وبين الأقلية المخالفة لها في الدين والمعتقد وتعيش معها لسبب أو آخر.

ويرى علماء النفس الاجتماعيين أن التعبير عن التوجه التعصبي لدى الأفراد يتخذ مراحل متعددة منها التمييزDiscrimination وتعد هذه المرحلة بداية أشكال التمييز الضارة حيث يأخذ صاحب التعصب على عاتقه السعي إلى منع أعضاء الجماعات الخارجية من الحصول على التيسيرات والامتيازات التي يتمتع بها هو والآخرون من أعضاء جماعته.

وقد أشار إلى تلك المرحلة وخطورتها النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي أخرجه الحاكم عن حذيفة عن رسول الله قال:" لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع قلت ما التمايز قال عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام قلت فما التمايل قال تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرمتها قلت فما المعامع قال تسير الأمصار بعضها إلى بعض تختلف أعناقها في الحرب"[483].

من هنا كان اعتبار النبي عليه الصلاة والسلام فكر التعصب وخاصة التعصب في المعتقد Belief Prejudice من أخطر الأوبئة الفكرية والنفسية.

بل إن القرآن الكريم اعتبره من سيماء المجتمع الجاهلي ومن أخطر معالمه التي عانى منها الناس طويلا قبل الإسلام. كما اعتبر الخلاص من التعصب والعصبية من نعم الإسلام على العباد ومن ثمرات تنفيذ تعاليمه ومبادئه. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[484] .

ذكر الطبري في تأويلها:" اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء أي بشرككم يقتل بعضكم بعضا عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله فألف الله بالإسلام بين قلوبكم فجعل بعضكم لبعض إخوانا بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه، وعن قتادة قوله واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء

---

[483]- رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ج4، ص 569، رقم 8597.

[484]- سورة آل عمران: 103.

فألف بين قلوبكم كنتم تذابحون فيها يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام فآخى به بينكم وألف به بينكم"[485].

ويرى علماء النفس أن مردّ التعصب مكتسب فهو فكر وسلوك يتعمله الفرد ويتلقاه من خلال عمليات التعلم الاجتماعي سواء أكان ذلك في الأسرة من خلال آباء وأمهات متسلطين يمارسون التسلط على أبنائهم أو مع جماعة الأقران أو من خلال وسائل الأعلام المختلفة التي تعرض بعض أشكال العنف اتجاه فئات معينة أو جماعات محددة فتنمي روح الكراهية إزائها. ويعد هذا الاتجاه في تفسير ظاهرة التعصب الأكثر شيوعا وقبولا في ميدان علم النفس الاجتماعي بوجه عام[486].

وقد يكون الفرد في بداية حياته متمركزا حول ذاته ثم نما في مجتمعه ليصبح متحمورا حول الجماعة، ثم لعبت عوامل التنشئة الاجتماعية دورا في إكسابه وتعليمه اتجاهات معادية أو مناهضة لأحدى الجماعات زادت المسافة الاجتماعية ونما الاتجاه السالب لديه[487].

كما يذهب علماء النفس كذلك إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص في المتعصب تجعله يغالي في الانتساب إلى قيم ومعايير جماعته ليقوى بها ويجد متنفسا لصرف مشاعر النقص لديه على أفراد الأقلية[488].

وخلاصة القول أن كافة أشكال التعصب تتوقف أساساً على استعداد الفرد أو الجماعة لقبول هذه الظاهرة أو المفهوم أو السلوك. فالانغلاق الذاتي للفرد والتربية الثقافية والتراكمات النفسية والثقافية والفكرية، تسهم في تشكل تلك السلوكيات الصدامية.

كما أن إنكار ورفض الاعتراف بالمخالف هو في حدّ ذاته سلوك صدامي عام يصدر من خلال القنوات النفسية والثقافية والعقائدية للفرد حتى يصبح عاجزا عن التفاهم مع الآخرين. وفي الطرف الآخر فان الفرد المتسامح والايجابي نراه قادرا على التواصل مع الآخرين والانفتاح عليهم على كافة المستويات.

485- تفسير الطبري، ج4، ص 33.

486- معتز سيد عبد الله، مرجع سابق، ص 558.

487- ليلى عبد الستار، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء 43، القاهرة، 1992م، ص 197.

488- الحفني، مرجع سابق، ص 352.

والتعصب أولى خطوات التطرف فالإنسان المتعصب هو الذي لا يعترف للآخرين بوجود، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً، وأرجح ميزاناً. من هنا كان **انغلاق باب الحوار من أخطر الأمور المؤدية إلى نشأة وترعرع أوبئة فكرية في داخل دهاليز عقلية بعيدة عن المجتمع والتحاور معه.**

كما أن فقدان التواصل الإيجابي والحوار المتفاهم، يسوق إلى لغة سلبية قائمة على التصادم والشك والتلقي الثقافي السيئ.

ومما يسهم في حدة وازدياد حالات التعصب اليوم، طبيعة الظرفية التاريخية الراهنة المتسمة بفرض نمط الحضارة الغربية، واستخدامها كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية. الأمر الذي من شأنه تغذية مظاهر الصراع الحضارى بين البشر، وإدخاله فى حلقات جديدة أكثر عنفا وضراوة.

والحوار هو الحل الأمثل لإخراج الإنسانية من تلك الدوامة. فالحوار سبيل يعزز مبدأ التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابى بينها لإبراز العناصر التى تعزز احترام الحضارات والأمم الأخرى.

ولا يقف أثر داء التعصب الناجم عن غياب الحوار، عند حدّ المخالف في المعتقد فحسب بل يمتد ليشمل المخالفين من المسلمين كذلك. الأمر الذي يترتب عليه انتهاك حرمة المسلم والنيل منه والتعريض به والقدح فيه لمجرد الاختلاف معه في أمر ما. وقد وصّف هذه الحالة التاريخية الإمام الشوكانيّ رحمه الله حيث قال:

"وها هنا تُسكَب العبرات ويُناح على الإسلام وأهلِه بما جناه التعصّبُ في الدين على غالبِ المسلمين من الترامي بالكُفر لا لسنّةٍ ولا لقرآن، ولا لبيانٍ من الله ولا لبرهان، بل لما غلَت به مراجلُ العصبيّة في الدين وتمكّن الشيطان الرجيم من تفريقِ كلمة المسلمين، لقّنهم إلزاماتِ

بعضِهم لبعض بما هو شبيهُ الهباء في الهواء والسّراب بقيعةٍ، فيا للهِ والمسلمين من هذه الفاقِرة التي هي أعظمُ فواقرِ الدين والرّزيةِ التي ما رُزِئ بمثلِها سبيلُ المؤمنين.."[489].

المبحث الثالث: بروز التطرف الفكري

التطرف في اللغة: الوقوف في الطرف بعيدا عن الوسط وأصله في الحسيات كالتطرف في الوقوف أو الجلوس أو المشي. وفي المعنويات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك.

فالتطرف Extravagance هو البعد عن منتصف المنحنى الاعتدالي خلال الإفراط والتفريط، وقد يظهر في الفكر أو القول أو الفعل. وقد يتصف المتطرف بتصلب الشخصية والسلوك[490].

والتطرف اتجاه نفسي وانفعالي يجعل الفرد يؤمن بعقيدة أو حكم مسبق دون الاعتماد على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية. الأمر الذي يقوده إلى إلى عدم إدراك الواقع إلا من خلال نظرته الذاتية بكل ما تحمله من تحيزات[491].

وهو ظاهرة قديمة قدم الإنسان فقد عرفت البشرية موجات بالغة من التطرف. وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالجمود العقلي Dogmatism والانغلاق الفكري. فالتطرف في الأساس أسلوب مغلق للتفكير يتسم بعدم القدرة على تقل اية معتقدات أو آراء تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة التي ينتمي إليها[492].

وتشير الدراسات في علم النفس إلى أن التطرف مظهر من مظاهر التعصب للرأي الذاتي والعقيدة والفكر وعدم الرغبة في الاعتراف بالنقد الموجه من قبل الآخرين. من هنا يظهر التطرف من خلال الرفض لمناقشة الرأي الذي يعتقده، مما يجعل يقف في وجه كل فكر جديد. الأمر الذي يجرّه إلى اعتقاد أنه يمتلك الحق المطلق، مما يدفعه إلى التصرف فى اتجاه

[489]- محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ، ج4، ص 584.
[490]- مصطفى سويف، التطرف كأسلوب للاستجابة، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م، ص 4.
[491]- حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1974م، ص 165.
[492]- سمير نعيم، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، يناير 1990م، ص 111.

تصويب الآخرين وإقناعهم بوجهة نظره. فإن لم يحدث اقتناع، لجأ إى العنف وهو الممارسة العملية للتطرف الفكرى، والمحصلة النهائية له[493]. والاستمرارية في رفض المخالف وآرائه مطلقا مهما بلغت من الصحة والصواب، يزيد من حدة التطرف وقد تدفع به إلى العدوان لإسكات كل صوت يغاير رأيه واعتقاده.

المبحث الرابع: انتشار السلوك العدواني والعنف

ثمة تداخل واضح بين مفاهيم العنف Violence والعدوان Aggession والعداوة Hostilty.

فالعنف في جوهره حالة نفسية سلبية ضد الآخر بحيث تنفيه وترفضه في وجوده ونفسه أو في موقعه ومنصبه أو في مصالحه وعلاقاته، وتتحرك نحوه بطريقة عدوانية – تدميرية.

والعدوان: أي سلوك يصدره الفرد بهدف إلحاق الضرر أو الأذى بفرد آخر أو مجموعة من الأفراد بدنيا أو لفظيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

أما العداوة فهي استجابة اتجاهية تنطوي على المشاعر العدائية والتقويمات السلبية للأشخاص والأحداث وهو ما يعبر عنه بصورة لفظية[494].

والعلاقة جد قريبة بين الثقافة التي تؤسس لمقاولات الإكراه والإلغاء والنفي، والسلوك العدواني تجاه الآخر بمختلف درجاته. فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لذلك السلوك العدواني الذي لا يرى إلا قناعاته ومصالحه ويعمل على تدمير الآخر بمستويات متعددة.

والعلاقة بين الثقافة التي تبث الكراهية بين بني الإنسان لدواعي أيدولوجية أو سياسية، وبين السلوك العدواني بكل مستوياته والذي يستهدف تدمير الآخر والغاء هي علاقة السبب بالنتيجة.

فلا يمكن أن تنتج ثقافة الكراهية والبغضاء والإلغاء واقع المحبة والألفة والتسامح، بل تنتج واقعاً من طبيعة ماهيتها وجوهرها، وهو العدوان بكل صوره ومستوياته.

---

[493]- عبد الرحمن عباد، التطرف الفكري أسبابه وابعاده، المؤتمر الثامن، مرجع سابق، ص 4.

[494]- بتصرف عن: عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م، ج1.

وهو سلاح يستخدمه البعض عندما لا يستطيع ان يستجيب لمتطلبات التواصل والحوار. فعندما يعجز الفرد عن إقامة التفاهم والاتصال الموضوعي مع الآخرين يلجأ للعنف لاثبات وجوده وفرض قيّمه. اذ أن استخدام العنف في غير موقعه يبين ضعف الفرد أو الجماعة في التواصل والاندماج بشكل سليم في المجتمعات البشرية وفقدان القدرة التفاعلية على الحوار والتفاهم والتكامل.

ويرى بعض علماء النفس العنف والعدوان بمختلف أشكاله في ضوء التفاعل بين التفسير الاجتماعي والتحليل النفسي لسلوكيات الفرد. مع تأكيد أهمية مفهوم الذات ومفهوم الآخر والتطور النفسي الاجتماعي لهذه الجوانب في بناء الشخصية، ومديات استعدادها لسلوك العنف والعدوان في حال فشل التفاعل والتواصل بين الذات والآخر[495].

كما يرى البعض الآخرمنهم أن هذه الظواهر السلبية نتاج حالة الاغتراب الناجمة عن فقدان العلاقات الاجتماعية بين الافراد بعضهم البعض أو توترها، وبينهم وبين المجتمع من ناحية أخرى، إضافة إلى وجود عقائد تحمل طابعا عدوانيا عنيفا في التعامل والسلوك. وتعتبر تلك المظاهر لبنات المرض النفسي وتكوينه لأي شخصية عدوانية ذات سمة إرهابية.

وتأسيساً على هذا فإن الفشل في إقامة العلاقة بين الذات والآخر على أسس القبول بالتعددية والاعتراف بحق الاختلاف ونسبية الحقيقة، من أبرز العوامل المكرّسة لموجبات العدوان على الآخرين.

ذلك العدوان الذي يعتبر أي اختلاف أيدلوجي أو سياسي أو ثقافي، مدعاة لانتهاك حقوق الآخرين، ومبررا للاعتداء على حرياتهم ومصادرة أفكارهم أو حياتهم في بعض الأحيان.

المبحث الخامس: فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد

غياب الحوار وثقافته يسوق إلى نشأة خلل كبير بين أفراد المجتمع الواحد فيفتقد عنصر الثقة بين أبنائه ويتربص كل فريق بإخوانه وتنشر سياسة البحث عن العثرات وتتبع العورات وتلقف الأخطاء مما يفقد المجتمع أمنه وطمأنينته فيعيش الأفراد في توجس وخيفة.

[495]- معتز عبد الله، صالح ابوعباة، أبعاد السلوك العدواني دراسة عاملية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث، 1995م، ص 521 وما بعدها.

كما ينجم عن ذلك تكريس الأحادية الفكرية في أمور تتسع للتعدد والتنوع والاختلاف. وهو أمر ينجم عن عملية غياب الحوار التي تسوق في نهاية الأمر إلى مزيد من الأحادية في الفكر والطرح والسلوك.

إضافة إلى أن ذلك مسوق إلى الوصول إلى حالة المطلقية في الآراء والأفكار، حيث لا آراء منافسة يمكن لها أن تكشف عن عوار الفكر السائد، الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا من خلال الحوار مع المخالفين.

وغياب الحوار عن الساحة الفكرية للمجتمع يؤدي في فترات لاحقة إلى الضيق بكل من يخالف الفكر الأحادي السائد إلى الحد الذي يدفع بالبعض إلى إصدار أحكام غيبية على الآخرين، اختص الله عز وجل بها ذاته سبحانه.وهي مبنية غالبا على الشك وسوء الظن بالآخرين وإن لم يظهروا مخالفة لشيء، نظرا لغياب الحوار معهم وعدم تبين وجهة نظرهم ابتداء. يقول ابن تيمية:" من أظهر لنا خيرا فإنا نقبل علانيته ونكل سريرته إلى الله تعالى فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله لما جاءوا إليه عام تبوك يحلفون ويعتذرون"[496].

ولايقف الأمر عند إصدار الأحكام على خطورته، بل يتعداه إلى قناعات عقلية راسخة في الذهن، تنعكس على سلوكيات بادية في الحديث والتعامل...الذي قد يبلغ بالبعض إلى حدّ قتال مخالفيهم ومعارضيهم في بعض المسائل.

وهو أمر وقع في التاريخ كثيرا ومنه ما أشار إليه ابن تيمية في عصره حيث يقول:" الأمر آل إلى قريب المقاتلة وسبب ذلك الاختلاف فى مسألة رؤية الكفار ربهم وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد فالأمر فى ذلك خفيف"[497].

وقد عرف العالم نماذج لهذا الضيق الفكري الذى غذاه التثقيف التربوى، فجاء الجيل كله يحمل فكرة أحادية الجانب، ترى الصواب إلى جانبها والخطأ ملك سواها، فتعمل على رده إلى الصواب ولو بمنطق القوة والعنف.

والحوار من أهم وسائل التخلص من الأحادية وإيجاد التفاعل الفكري الذي من شأنه التخلص من الأفكار الشاذة والتوصل الجمعي إلى الحقائق الصائبة.

---

[496]- المرجع السابق، ج24، ص 175.
[497]- ابن تيمية، مرجع سابق، ج24، ص 175- 176.

أما عملية إقصاء المخالف وتهميشه وحشره في الزوايا الضيقة، فإنها ستؤدي حتما إلى حدوث صراع بين ثنائية قطعية ترى الحق في أفكارها مطلقا دون أية احتمالية لنسبية الصواب أو الخطأ فيه.

المبحث السابع: الوقوع في الظلم والبغي وبروز ظاهرة التكفير

إن غياب ثقافة الحوار بين المسلمين على وجه الخصوص، يوقع أفراد الأمة في ظلم بعضهم البعض وبغيهم على بعض، من خلال التراشق بالتهم والإدعاءات التي لا تتم تصفيتها عن طريق المواجهة الحوارية الراقية. وإنما يتم تصريفها بوسائل أخرى كالتشنيع على المخالفين والنيل منهم قولا مسموعا أو مكتوبا منشورا، وقد يصل الأمر إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التى حرّمها الله ورسوله.

ويبقى علماء الأمة ومفكروها في حالة انشغال بالرد على مخالفيهم والانتصار لآرائهم، والمكتبة الاسلامية خير مثال لثقافة الردود الانفعالية السائدة في أجواء بعيدة كل البعد عن الحوار.

ومن أشد أنواع الظلم وأخطر مراحله الوقوع في تكفير المخالف المسلم. **والتكفيرَ حكم شرعيٌّ ومحضُ حقّ الله سبحانه ورسولِهِ.** وقد حذر العلماء من مغبة هذه الفتنة الكبيرة قديماً وحديثاً وهي ظاهرة تبدأ بالتهاون في أعراض المخالفين ولا تنتهي إلى حدّ التكفير بل تستمر لتصل إلى حد استحلال الدماء والأنفس المعصومة.

يقول الزركشيّ رحمه الله: "والذي ينبغي الاحترازُ منه التكفيرُ ما وجد إليه سبيلا، فإنّ استباحةَ الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلةِ المصرّحين بقول: لا إله إلا الله محمّد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألفِ كافرٍ في الحياة أهونُ من الخطأ في سفكِ دمٍ لمسلم"[498].

ويذهب الإمام ابن تيمية إلى أن أهل العلم لا يكفرّون مخالفيهم وإن وقع منهم تكفيرهم لبعض. يقول رحمه الله: "فلهذا كان أهلُ العلم والسنّة لا يكفِّرون من خالفَهم وإن كان ذلك المخالِف يُكفِّرهم؛ إذِ الكفر حكمٌ شرعيّ، فليس للإنسان أن يعاقبَ بمثلِه كمن كذب عليكَ

498- محمد بن بهادر الزركشي، المنثور، تحقيق: تيسير فائق، وزارةالأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، 1405هـ، ج3، ص 88.

وزنى بأهلِك، ليس لك أن تكذِب عليه ولا تزني بأهله، لأنّ الكذبَ والزنا حرامٌ لحقّ الله تعالى، وكذلك التكفير حقُّ الله، فلا يُكفَّر إلاّ من كفّره الله ورسوله"[499].

وظاهرة التكفير ظاهرة تاريخية، تبرز كلما بعدت الشقة بين المسلمين وفهمهم لقيّم الوحي قرآنا وسنة، وتنزيلهم لها في واقع الحياة.

فقد تضافرت الأدلة على وجوب صيانةِ عِرض المسلم واحترامِه، فكيف إخراجه عن الإسلام إلى الكفر ؟! فهذه جنايةٌ لا يعْدلُها جناية وجرأةٌ لا تماثِلها جرأة كما يقول الشوكاني في سياق توصيفه لظاهرةالتكفير:

" وأين هذا المجترِئ على تكفير أخيه من قولِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ"[500] وقوله عليه الصلاة والسلام: " سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْر"[501] وقوله: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ"[502]. ويقول سبحانه: " فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[503].

وفي الصحيحين من حديث ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: "إذا قال الرجلُ لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدُهما، فإن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه". وفيهما من حديث أبي ذر ﷺ أنه سمع رسولَ الله يقول: "من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدوّ الله وليس كذلك إلا حارَ عليه".[504]..

فثمة ضوابط في باب التكفير، فلا يكفَّر إلاّ من أجمع أهل الإسلام على تكفيره أو قام على تكفيرِه دليلٌ لا معارِضَ له. وهناك فرق في الحكم بين العموم والإطلاق والتعيين والتخصيص عند إطلاق وصف الكفر أو الشرك أو النفاق أو البدعة أو الفسق، وعند إطلاق الشهادة بالجنة والنار . ففي حالة العموم والإطلاق يجوز وصف العمل أو القول بأنه كفر أو شرك أو نفاق أو بدعة أو فسق، إذا كان هذا هو حكمه في شرع الله تعالى.

---

[499]- ابن تيمية، منهاج السنة، مرجع سابق، ج3، ص 61.
[500]- صحيح البخاري، المظالم والغضب، حديث رقم2262 .
[501]- رواه البخاري، باب الفتن، حديث رقم 6549.
[502]- رواه البخاري، الحج، رقم 1623.
[503]- سورة النساء: 94.
[504]- النص بتمامه من: محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار، مرجع سابق، ج4، ص 585.

أمَّا عند تعيين إنسان بعينه أو طائفة بعينها حصل منهم هذا الفعل أو القول الموصوف شرعاً بالكفر أو الشرك أو النفاق أو البدعة أو الفسق فلايجوز إطلاق هذا الوصف على المعين إلاَّ بعد وجود شروط هذا الوصف في المعين وانتفاء الموانع عنه.

وأساس هذه الظاهرة الخطيرة سوء الظن والقطيعة مع المخالف والبعد عن أروقة الحوار معه، مما يدفع الإنسان إلى تأول كلام المخالفين له بناءً على تصوراته الذاتية فيقوم أحيانا دون قصد إلى حملها وفقا لما يراه هو ذاته لا بناءً على ما يسمعه. وتزداد الخطورة عندما تمتد الظاهرة لتشمل الوقوع في علماء الأمة ومفكريها. علىالرغم مما ذهب إليه السلف من أن علماء المسلمين المتكلمين في الدنيا باجتهادهم لا يجوز تكفير أحدهم بمجرد خطأ أخطأه في كلامه.

يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك:" إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول ﷺ لا يكفَّر ولا يُفسَّق إذا اجتهد فأخطأ وهذا مشهور عن الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفَّروا المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفَّرون من خالفهم ..."[505].

ويقول تلميذه ابن القيم واضعا ضابطا مهما خاصة عند الحديث عن علماء الأمة: "من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهرٌ، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خَبثُ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخَبَث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.. إلى أن قال رحمه الله: "وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناس مستقرٌّ في فطرهم: أنه من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة"[506].

ولابن القيم رحمه الله نظرة ثاقبة حين قال في سياق الترهيب من الخوض في أعراض المسلمين: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من

505- ابن تيمية، منهاج السنة، مرجع سابق،ج3، 60.

506- ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ، مرجع سابق، 176 – 177. وانظر: زاد المعاد 423 – 427، ومدارج السالكين 455/2 – 456.

حركة لسانه! حتى يُرى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً ينزل منها أبعد ممَّا بين المشرق والمغرب. وكم نرى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول!"[507].

المبحث الثامن: انتشار داء الفرقة والنزاع

من الآثار السلبية البارزة عند غياب الحوار التفرق والنزاع والدخول في دوامة الإختلاف المخالف للإجتماع بين المسلمين أنفسهم. حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه. ويفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلى الإقتتال. وهذا كله من أعظم الأمور التى حرّمها الله ورسوله، في حين أن الإجتماع والأئتلاف من أعظم الأمور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى:" وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[508].

والفرقة بين المسلمين فإنها كفيلة بتعطيل حركة المجتمع وإضعاف المسلمين، وتمكين أعداءها منها. يقول ابن تيمية في هذا السياق: "وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشائخها، وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها.. وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا أصلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمةٌ والفرقة عذاب"[509].

وفي ظل أجواء القطيعة بين المخالفين من المسلمين، تتاح الفرصة لاحتواء بعض المخالفين من أفراد الأمة وجماعاتها من قِبل أعداء الأمة والانفراد بها، مما يسوق إلى التخاذل المتبادل بين أفراد الأمة وجماعاتها ودولها وحكوماتها، وأن يُسلم بعضهم بعضاً إلى الأعداء والفتن، والتحرش بهم، وتكالب الأعداء عليهم.

المبحث التاسع: التراجع الحضاري

[507]- ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 111.
[508]- سورة آل عمران: 103.
509- مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج 3، ص421.

مع وجود الشك في الآخر وعدم التواصل معه يصبح من العسير التجانس مع التغيرات والتطورات، وهذا يقود لوجود تأثيرات سلبية متزايدة ليس أقلها القطيعة الحضارية.

فالأمية السياسية والاقتصادية والثقافية تزداد اتساعا في المجتمعات عندما يجهل أفرادها أبسط قواعد الاتصال والحوار. إضافة إلى أن التطور الحتمي يستدعي التواصل الداخلي ووجود لغة حوار منفتح تقود نحو التجانس والتنسيق والعمل المشترك.

إن البعد عن الحوار الأصيل المتعدد الاتجاهات في مختلف مجالات العلم والحياة، لا يمكن أن يتحقق في إطار الرفض للمخالف وافكاره مطلقا. فالرفض نتيجة تحجر وتقوقع وعجز عن التمثل أو التفاعل الخلاق وليس رفضا واعيا لديه القدرة على طرح البديل.

وفي رفض الآخر رفضا مطلقا دعوة إلى مخاصمة كل الثقافات المعاصرة والاستهانة بها والاستدبار عن التعرف العلمي والموضوعي للثقافات الحية، وفي هذا النهج خروج من العصر والحياة إلى الموت الحضاري التدريجي..

فالمجتمعات والأمم التي ركبها الوهن الفكري والعجز الثقافي هي التي تحارب الآخر لانه يشعرها دائما بضعفها فتخاف ان تتواصل معه خوفا من ان يغزو أفكارها ويحصد أفرادها. والخوف وروح الانهزام لاتزيد الفرد أو الجماعة إلا ضعفا واندثارا، لأنه عندما يفتقد الارتباط مع الآخرين يفقد الفرد القدرة على فهم معطيات الصراع والمتغيرات وبذلك يبدأ بفقدان أوراقه وتتساقط أفكاره وينكشف وهنه فيرتمي في أحضان الغير مستسلما استسلاما مطلقا.

أما الأمم التي غرقت في صراعاتها وخلافاتها السلبية فقد تحولت إلى فتات مهمش لا يقوى على تجميع أجزائه حتى تقضي عليه قوانين التاريخ القاسية، وقد رأينا كيف سقطت الأمم عن عليائها نتيجة لذلك التعصب والتمرد ضد الآخرين بحيث تتحول حياة تلك الأم إلى جحيم ملتهب لعدم قدرتها على التفاهم والتعايش.

الخاتمة والنتائج

استهدفت هذه الدراسة محاولة وضع استراتيجية لفقه حواري معاصر مع المخالف عموما. وقد أوضحت الدراسة ضرورة الحوار وحتمية تنمية ثقافته داخليا وخارجيا. كما استهدفت الدراسة محاولة استنباط الأسس التي يقوم الحوار الناجح عليها والأهداق المتوخاة منه، وضوابط تفعيله وإنجاحه، ووسائل ذلك كله، وآثاره الإيجابية وما يمكن أن يترتب على غيابه عن الساحة من خلال العودة إلى نصوص الوحي (قرآنا وسنة) مع التركيز على السنة النبوية باعتبارها الوعاء التنفيذي للوحي. ولئن غاب عن العديد من الدراسات المعاصرة طرح وتناول الجوانب النفسية والاجتماعية في موضوع الحوار، فقد حرصت هذه الدراسة على طرح قضية الحوار بشكل يجمع بين فقه نصوص الوحي وفقه الثابت من هذه الدراسات، موضحة أهمية التكامل بينهما لإحداث التغيير الإيجابي في الطرح والمعالجة لموضوع الحوار وغيره. ويمكن تلخيص أهم نتائج الدراسة في النقاط التالية:

- الحوار الناجح لابد أن يقوم على أسس من أهمها: الاعتراف بظاهرة التنوع والاختلاف بين البشر، وفقه طبيعة ذلك الخلاف وخاصة الواقع بين المسلمين، وما يقتضيه من فهم للنصوص الواردة في ذلك. وتأكيد روح التعايش والتسامح بين البشر بوجه عام، وتحقيق الاجتماع والألفة والاعتصام بحبل الله بين المسلمين، مع ضرورة اتباع الحق والإنصاف والعدل مع المخالف بوجه عام وتأكيد حرمة عرض المسلم.
- لابد للحوار من أهداف يروم تحقيقها وإلا بات عبثا وترفا فكريا لا طائل من ورائه. ومن أبرز أهداف الحوار: إظهار الحقائق المدعمة بالأدلة والبراهين، التفاهم والتعاون للخروج من مرحلة الأزمة، الترقي بالذات، التلاقح الحضاري، تصحيح المفاهيم، وحلّ النزاعات والخلافات.

- أهمية التقيد ببعض الضوابط والآداب أثناء إجراء الحوار ومنها: الحوار بالتي هي أحسن، مراعاة حال المحاورين ومستوياتهم الدينية والثقافية، الانصات والاستماع الجيد، التأكيد على القواسم المشتركة، والاحتجاج بما يكون حجة عند المتحاور معه
- ضرورة الإفادة من مختلف الوسائل والإمكانيات في سبيل نشر ثقافة الحوار وتفعيل دورها في مسيرة التنمية الفكرية والثقافية والاجتماعية، ومن أبرز الوسائل: الحوار من خلال وسيلة القدوة والسلوك العملي وتنفيذ الحوار وآدابه سلوكا وممارسة. وتفعيل دور الوسائل المعاصرة كدور السفارات المنتشرة في دول العالم، ودور المؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية إضافة إلى محاولة تفعيل دور المؤسسات الدينية والمساجد.
- أهمية استحضار الآثار الإيجابية التي يمكن أن تنجم عن الحوار لمقارنة تقدم عملية الحوار بما يتمخض عنها من نتائج. ومن أبرز الآثار الإيجابية المترتبة على الحوار: التلاقح الحضاري، تخفيف حدة التعصب، تخليص المجتمع من الشخصيات السيكوباثية، تحقيق الوحدة والاجتماع بين المسلمين، والدعوة إلى الله.
- أهمية مراقبة الآثار السلبية الناجمة عن غياب الحوار وثقافته بغية تداركها ومعالجة ما يظهر من أعراضها ودواعيها. ومن أبرز تلك الآثار السلبية: الإسراف في تقدير الذات، شيوع فكر التعصب، بروز التطرف الفكري، انتشار السلوك العدواني والعنف، فقدان الثقة بين الأفراد في المجتمع الواحد، تكريس الأحادية الفكرية، الوقوع في الظلم والبغي وبروز ظاهرة التكفير، انتشار داء الفرقة والنزاع، وتمكين الأعداء من الأمة، التراجع الحضاري.

فهرس المراجع

ابن إبراهيم، ابن وهب أبوالحسين إسحاق، 1384هـ/1965م، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: احمد مطلوب، خديجة الحديثي، القاهرة: طبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

أرنولد، توماس، 1970م، الدعوة إلى الإسلام، القاهرة.

الأصبحي، مالك بن أنس، بدون تاريخ، موطأ مالك، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، مصر: دار إحياء التراث العربي.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد الراغب، 2001م، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: مُحَمَّد خليل عيتاني، الطبعة الثالثة، بيروت: دار المعرفة.

الأصبهاني، أبو مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد، 1998م، أخلاق النبي ﷺ وآدابه، تحقيق: صالح الونيات، الرياض: دار المسلم.

الأعرجي، زهير، 1982م، دراسات في الاعلام، الطبعةالثانية، بيروت.

الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين، بدون تاريخ، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي وكتابه فقه السيرة، دمشق: مكتبة الخافقين.

الفا، زوني أيلي، 1992م، موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: جورج نخل، بيروت: دار الكتب العلمية.

الباجي، أبو الوليد سليمان، 1987م ، المنهاج في ترتيب الحجاج، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد المجيد تركي، بيروت: دار الغرب الاسلامي.

البخاري، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، مجد الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة.

البطليوسي، عبد الله بن مُحَمَّد، 1403هـ، الإنصاف، تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر.

البعلي، 1985م، المطلع على أبواب المقنع، بيروت: المكتب الاسلامي.

البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، 1980م، الفرَق بين الفِرق، وبيان الفرقة الناجية، تحقيق: مُحَمَّد عثمان الخشت، القاهرة: مكتبة ابن سينا.

البكري، أبو بكر السيد، بدون تاريخ، إعانة الطالبين، بيروت: دار الفكر.

بياجيه، جان، 1954 م، اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة احمد عزت راجح ، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، 1414هـ/ 1994م، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة: مكتبة دار الباز.

البهوتي، منصور بن يونس،1402هـ، كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: هلال مصيلحي، بيروت: دار الفكر.

البهوتي، منصوربن يونس، 1415هـ، الروض المربع، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

تايلور، فيليب، إبريل 2000م، قصف العقول – الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، بدون تاريخ، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

التهانوني، محمد علي، 1966م، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: شركة خياط للكتب والنشر.

ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، بدون تاريخ، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي، السعودية: مكتبة ابن تيمية.

ابن تيمية، أحمد عبد الحليم، 1403هـ، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم، المدينة: مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود.

ابن تيمية، عبد الحليم أحمد، 1404هـ، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، الطبعة الثانية، دمشق: مؤسسة علوم القرآن.

ابن تيمية، 1406هـ، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، السعودية: مؤسسة قرطبة.

جاب الله، شعبان، زين العابدين وآخرون (محرر)، 1993م، علم النفس الاجتماعي أسسه وتطبيقاته، مصر: مطابع زمزم.

الجاحظ، عمرو بن بحر، 1984م، المختار في الرد على النصارى، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة: دار الصحوة.

الجرجاني، علي بن مُحَمَّد، بدون تاريخ، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الريان.

الجصاص، أحمدبن علي الرازي، 1405هـ، أحكام القرآن، تحقيق: مُحَمَّدالصادق قمحاوي، بيروت: دارالتراث العربي.

الجندي، أنور، جمادى الآخرة 1389هـ/ أيلول 1969م، الإسلام يزحف بقوته الذاتية في أفريقيا، مجلة حضارة الإسلام، السنة العاشرة، العدد الرابع.

جورافسكي، أليكسي، تشرين الثاني 1996م، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، الكويت: إصدار عالم المعرفة.

الجوزية، ابن القيم، 1973م، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه سعد، بيروت: دار الجيل.

الجوزية، ابن قيم، 1981م، احكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، الطبعة الثانية، بيروت: دار العلم للملايين.

الجوزية، ابن قيم، 1986م، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الرابعة عشر، بيروت:مؤسسة الرسالة.

الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر المعروف بابن قيم، بدون تاريخ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية.

الجوزية، ابن القيم، 1418هـ/1997م، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر العاروري، الدمام: دار رمادي للنشر.

الجوزية، 1418هـ/ 1998م، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن مُحَمَّد الدخيل الله، الطبعة الثالثة، الرياض: دار العاصمة.

الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، بلا تاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية.

الجويني، عبد الملك، 1399هـ/1979م، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسين محمود، مصر: عيسى الحلبي.

حاتم، مُحَمَّد عبد القادر، 1972م، الرأي العام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

الحاكم النيسابوري، أبوعبد الله مُحَمَّد بن عبد الله، 1990م، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفعبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

حبيب، صموئيل، 1994م، فن الحوار، القاهرة: الدار الثقافية.

حجازي، أحمد، 1988م، المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، القاهرة: مكتبة زهران.

ابن حزم، أبو مُحَمَّد، بدون تاريخ، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

ابن الحسن، مُحَمَّد، 1957م، السير الكبير، مصر: مطبعة مصر.

حسين موسى وآخرون، بدون تاريخ، الإفصاح في فقه اللغة، الطبعة الثانية، مصر: دار الفكر العربي.

حفني، عبد الحليم، 1985م، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الطبعة الثانية، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الحفني، عبد المنعم، 1995، موسوعة مدارس علم النفس، مصر: مكتبة مدبولي.

الحفني، عبد المنعم، 1995، الموسوعة النفسية، مصر: مكتبة مدبولي.

الحلبي، علي بن برهان، 1400هـ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، بيروت: دار المعرفة.

حلمي، منيرة أحمد، 1977م، ثلاث نظريات في تغير الاتجاهات، القاهرة: الأنجلو المصرية.

حميد الله، مُحَمَّد، 1990م، الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت.

الحنبلي، أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد بن مفلح، 1400هـ، المبدع، بيروت: المكتب الاسلامي.

الخربوطلي، علي حسن، 1969م، الإسلام وأهل الذمة، الكتاب التاسع والأربعون، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

خضر، لطيفة إبراهيم، 2000م، دورالتعليم في تعزيز الانتماء، مصر: عالم الكتب.

خطاب، محمود شيت عمرو بن العاص، ربيع الأول 1417هـ، القائد المسلم، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ابن خلدون، عبد الرحمن، 1984م، الطبعة الخامسة، المقدمة، بيروت: دار القلم.
خلف الله، سلمان، 1998م، الحوار وبناء شخصية الطفل، الرياض: مكتبة العبيكان.
خليفة، حاجي، 1992م، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية.
خليفة، عبد اللطيف مُحَمَّد، 2003م، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
دافيدوف، ليندا، ل، 1983م، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، القاهرة.
دروزة، مُحَمَّد عزة، 1400هـ، سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، قطر: وزارةالأوقاف والشئؤون الإسلامية.
الدمشقي، مُحَمَّد بن أبي بكر بن ناصر الدين، 1393هـ، الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي.
الدهلوي، شاه ولي الله، بدون تاريخ، حجة الله البالغة في أسرار الحديث وحكم التشريع، بيروت: دار المعرفة.
الذهبي، حمد بن أحمد، 1413هـ، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومُحَمَّد نعيم العرقسوسي، الطبعة التاسعة، بيروت: مؤسسة الرسالة.
الرازي، مُحَمَّد بن أبي بكر، 1995م، مختار الصحاح، تحقيق: محمود شاكر، بيروت: مكتبة ناشرون لبنان.
الريسوني، أحمد، 1412هـ/ 1992 م، نظرية المقاصد عند الشاطبي، الطبعة الثانية، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.
الزبيدي، السيد مُحَمَّد مرتضى، 1413هـ/ 1993م، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: محمود الطناجي، الكويت: طبعة وزارة الإعلام.
الزحيلي، مُحَمَّد، 1986م، الامام الجويني، دمشق: دار القلم.
الزركشي، مُحَمَّد بن بهادر، 1405هـ، المنثور، تحقيق: تيسير فائق، الطبعة الثانية، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.

الزنكي، جمال مُحَمَّد حسن، 27-29 مارس، 2000م، كيفية تحقيق الهوية الإسلامية الملتزمة للطالب الجامعي، ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودوركليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي، الكويت: جامعة الكويت، كلية الآداب.
زهران، حامد عبد السلام، 1974م، علم النفس الاجتماعي، الطبعة الثالثة، القاهرة: عالم الكتب.
أبو زهرة، مُحَمَّد، بدون تاريخ، تاريخ الجدل، مصر: دار الفكرالعربي.
الزيادي،مُحَمَّد فتح الله، 1415هـ/1995م، انتشار الإسلام، الطبعة الثانية، دار قتيبة للنشر والتوزيع.
السايح، أحمد عبد الرحيم، جب 1414هـ، في الغزو الفكري، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، كتاب الأمة.
السرخسي، أبو بكر مُحَمَّد بن أبي سهل، 1406هـ، المبسوط، بيروت: دار المعرفة.
سعد، إسماعيل علي، 1988م، الرأي العام بين القوة والأيدلوجية، بيروت: دار النهضة العربية.
ابن سعد، مُحَمَّد، بدون تاريخ، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر.
سفر، محمود مُحَمَّد، دراسة في البناء الحضاري، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة.
السكوني، أبو علي عمر، 1976م، عيون المناظرات، تحقيق: سعد غراب، تونس: منشورات الجامعة التونسية.
سليمان، ميخائيل،1987م، صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
السمعاني، أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد، 1997م، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: مُحَمَّد حسن الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية.
سوفي، ألفريد، 1966م، الرأي العام، بيروت: منشورات عويدات.
سويف، مصطفى، 1968م، التطرف كأسلوب للاستجابة، القاهرة: الأنجلو المصرية.

السيد، فؤاد البهي، 1981م، علم النفس الاجتماعي، القاهرة: دار الفكر العربي.
السيواسي، مُحَمَّد بن عبد الواحد، بدون تاريخ، شرح فتح القدير، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر.
الشاطبي، أبو إسحاق، بدون تاريخ، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة.
الشافعي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس، 1939م، الرسالة، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، القاهرة.
الشاهد، السيد مُحَمَّد، 1412هـ/ 2001م، المسيحية والاسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة: دار الأمين للنشر والتوزيع.
الشربيني، مُحَمَّد الخطيب، بدون تاريخ، مغني المحتاج، بيروت: دار الفكر.
الشرقاوي، مُحَمَّد عبد الله، 2000م، بحوث في مقارنة الأديان، مصر: دار الفكر.
أبو شنب، أحمد إسماعيل، 1424/ 2003م، مشكلات الحوار وأثرها علىالنهوض الثقافي..دراسة نقدية، العدد الحادي والعشرون، قطر: حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية.
الشوكاني، مُحَمَّد بن علي، 1973م، نيل الأوطار، بيروت: دار الجيل.
الشوكاني، مُحَمَّد بن علي، 1985م، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، بيروت: دار الكتب العلمية.
الشوكاني، مُحَمَّد بن علي، 1405هـ، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت: دار الكتب العلمية.
الشوكاني، مُحَمَّد بن علي، بدون تاريخ، فتح القدير، بيروت: دار الفكر.

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن مُحَمَّد، 1409هـ، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد.
الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، بدون تاريخ، طبقات الفقهاء، تحقيق: خليل الميس، بيروت: دار القلم.

الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، بيروت: المكتب الاسلامي.

ضياء الحق، مُحمَّد، يوليو/ تموز 2004م، أحكام المعاهدات الدولية في الشريعة الاسلامية والقانون الدولي، الامارات العربية المتحدة: مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون.

الطبري، مُحمَّد بن جرير، 1405هـ، تفسير الطبري، بيروت: دار الفكر.

الطحاوي، أحمد بن مُحمَّد، 1318هـ، حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح، الطبعة الثالثة، مصر: مكتبة البابي الحلبي.

الطريري، عبد الرحمن، 1992م، العقل العربي وإعادة التشكيل، قطر: وزارة الأوقاف،كتاب الأمة.

طلعت، شاهيناز، 1980م، وسائل الأعلام والتنمية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

طنطاوي، مُحمَّد سيد، 1997م، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة: دار نهضة مصر.

عبد الحليم، محي الدين، ربيع الثاني 1418هـ/ أغسطس 1997م، القدوة الحسنة وفاعليتها في الإقناع بالثوابت الإسلامية، الامارات العربيةالمتحة: مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الثامن عشر.

عبد الرؤف، السيد، سبتمبر 2003م، الاعلام والتأسيس لفكر وحدوي اسلامي، بحوث مؤتمر التقريب بين المذاهب الاسلامية وأثره في تحقيق وحدة الأمة، البحرين: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

عبد الستار، ليلى، 1992م، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء 43، القاهرة.

عبد الله، معتز، & صالح ابوعباة، 1995م، أبعاد السلوك العدواني دراسة عاملية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث.

عبد الله، معتز، 1997م، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، الطبعة الثانية، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

عبد الله، معتز سيد & مُحَّد خليفة، عبد اللطيف، 2001م، علم النفس الاجتماعي، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

عبد المختار، مُحَّد خضر، 1999م، الاغتراب والتطرف نحو العنف، مصر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

عرجون، مُحَّد الصادق، 1404هـ، الموسوعة في سماحة الإسلام، الطبعة الثانية، السعودية: الدار السعودية للنشر والتوزيع.

العسقلاني، ابن حجر، 1972م، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: مُحَّد خان، الهند: مطبعة كجلس دائرة المعارف العثمانية.

العسقلاني، ابن حجر، 1992م، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي مُحَّد البجاوي، بيروت: دار الجيل.

العسقلاني، ابن حجر، بدون تاريخ، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، بيروت: دار المعرفة.

العلمي، عبد الواحد، شتاء 2002م، حرية الاعتقاد في الإسلام ..دلالات وإشكالات، مجلة رؤى، السنة الثالثة، العدد 14.

عمرو، يونس & مزعل، غانم، 1988م، العربى فى أدب الأطفال العبرى، الخليل: منشورات مركز البحث العلمى، جامعة الخليل.

العلواني، رقية طه، 2003م، أثر العرف في فهم النصوص، دمشق: دار الفكر دمشق.

العلواني، طه جابر، جمادى الأولى 1405هـ، أدب الاختلاف في الإسلام، قطر: كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

النووي، ترجمة: سامي خشبة، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

عمارة، مُحَّد، 1988م ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، القاهرة: طبعة الأزهر.

عمارة، مُحَّد، 2003م، في فقه الحضارة الاسلامية، مصر:مكتبة الشروق الدولية.

فرايري، باولو، 1980م، تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، بيروت: دار العلم للملايين.

فروم، إيريك، المجتمع السليم، تعريب: محمود محمود، بلا مكان نشر.

الفقي، حامد، لويس كامل مليكة(محرر)، 1994م، أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

فلوسي، مسعود بن موسى، 1424هـ/ 2003م، الجدل عند الأصوليين، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون.

ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، 1405هـ، المغني، بيروت: دار الفكر.

القرضاوي، يوسف، 1977م، غير المسلمين في المجتمع الاسلامي، مصر: مكتبة وهبة.

القرضاوي، يوسف،2001م، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، مصر: دار الشروق.

القرطبي، ابوعبدالله مُحَمَّد بن أحمد، 1372هـ، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: احمد البردوني، الطبعة الثانية، القاهرة: دار الشعب.

قرم، جورج، 1979م، تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت.

القضاة، أمين مُحَمَّد، معاملة غير المسلمين في الإسلام، الأردن: بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

القنوجي، صديق بن حسن، 1978م، أبجد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، بيروت: دار الكتب العلمية.

الكاساني، علاء الدين، 1982م، بدائع الصنائع، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتاب العربي.

كب، ستانوود، 1405هـ/ 1985م، المسلمون في تاريخ الحضارة، الطبعة الثانية، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، بدون تاريخ، البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، 1401هـ، تفسير ابن كثير، بيروت: دار الفكر.

الكلاعي الأندلسي، أبو الربيع سليمان بن موسى، 1997م، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: مُحَمَّد كمال الدين، بيروت:عالم الكتب.

الكيرانوي، رحمة الله بن خليل الرحمن، م، إظهار الحق، تحقيق: عمر الدسوقي، قطر: طبعة الشئون الدينية.
الكيلاني، ماجد عرسان، 1997/1417م، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، الطبعة الثانية، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
ابن ماجه، أبو عبد الله مُحَمَّد بن يزيد، بدون تاريخ، سنن ابن ماجه، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر.
متز، آدم، 1967م، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت.
مجموعة من الباحثين والعلماء، رجب 1411، مقالات في الدعوة والأعلام الاسلامي، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة.
ابن مُحَمَّد، أبو بكر بن أحمد، 1407 هـ، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، بيروت: عالم الكتب.
المخزنجي، السيد أحمد، شوال 1407هـ/ يونيو1987م، العدل والتسامح الاسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد 67.
مرحبا، مُحَمَّد عبد الرحمن، 1982م، أصالة الفكر العربي، بيروت: منشورات عويدات.
المرداوي، علي بين سليمان، بدون تاريخ، الإنصاف، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
المقدسي، عبد الله بن قدامة، 1988م، الكافي في فقه ابن حنبل، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الخامسة، بيروت: المكتب الإسلامي.
المقدسي، ابن قدامة، 1405هـ، المغني، بيروت: دار الفكر.
المقدسي، مُحَمَّد بن أحمد بن قدامة، بدون تاريخ، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقي، بيروت: دار الكاتب العربي.
مناظرة بين الإسلام والنصرانية، 1407هـ، الرياض: نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية.

المناوي، محمد عبد الرؤوف، 1410هـ، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت: دار الفكر المعاصر.

ابن منظور، جمال الدين، بدون تاريخ، لسان العرب،بيروت: دار صادر.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، 1401هـ/1981م، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، الطبعة الثانية، دمشق: دار القلم.

ندوات علمية حول الشريعة الاسلامية وحقوق الانسان في الإسلام، 1973م، بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن النديم، ابو الفرج محمد بن إسحاق، 1978م، الفهرست، بيروت: دار المعرفة.

نعيم، سمير، يناير 1990م، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، 1392هـ، شرح النووي على صحيح مسلم، الطبعة الثانية، بيروت: دار إحياء التراث العربي

النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم، 1990م، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

النيفر، أحميدة، سبتمبر 1996م، المعيار والهوية والحوار قراءة في التجربة التاريخية للغرب الاسلامي، الامارات العربية المتحدة: مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الرابع عشر.

ابن هشام، عبد الملك، 1411هـ، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، بيروت: دار الجيل.

هونكه، زيغريد، 2002م، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، الطبعة العاشرة، بيروت: دار صادر.

ابن الوزير، محمد بن إبراهيم، بدون تاريخ، إيثار الحق على الخلق، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن أبي الوفاء، أبو عبد القادر، بدون تاريخ، طبقات الحنفية، كراتشي: مير محمد كتب خانه.

ويتبيج، أرنو ف، 1984م، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون، بلا مكان نشر: دار ماكجروهيل للنشر.
ابن أبي يعلى، أبو الحسين مُحَّد، بدون تاريخ، طبقات الحنابلة، تحقيق: مُحَّد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة.
اليعمري، إبراهيم بن علي، بدون تاريخ، الديباج المذهب، بيروت: دار الكتب العلمية.
بدون تاريخ، مفتاح دار السعادة، بيروت: دار الكتب العلمية.

المراجع باللغة الانكليزية

Corisini, R. (Ed), Encyclopedia of Psycology. New York, John Wiley & Sons.
Henri Jajfel, Individuals and Groups in Social Psychology, British Journal of Social and Clinical Psychology, Vol, 18,1979.
Jerry Fawell, Listen America, New York: Bantam Book. Inc., 1981.
John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce, American Psychologist, vol. 35, no. 10, October 1980.
Lin. Nan, The Study of Human Communication, New York, 1973.
Oliviour Zunz and Alan S. Kahan, The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003
Paul F. Secord and Carl W. Backman, Social Psychology, New York: McGraw-Hill, 1974
Spring. Joel. Education, The Worker Citizen, the Social Economic and Political Foundation of Education, New York, London, Long man, 1980.
Straughn, R. Wringley, J. eds, Values & Evaluation in Education, London, Harper& Row Pub. 1980
Tajfel, Social Stereotypes and Social Groups, Little Brown Co, 1980.
Yinger, J. M and Simpson, G. E., Techniques for reducing prejudice; Changing the Prejudiced Person: P. Waston (Ed), Psychology and Race, Chicago Aldine Bublishing Company, 1973.